رقم الترتيب:

الرقم التسلسلي:



وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ورقلة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية و آدابها

مذكّرة من متطلّبات شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصّص : الأدب العربي و نقده

من إعداد الطلبة: هاجر مدقن

الخطاب الحِجَاجِي أنواعه و خصائصه

دراسة تطبيقية في ((كتاب المساكين)) لـ : " الرافعي " .

نوقشت هذه المذكرة علنا بتاريخ: **03-12-2003** م

أمام لجنة المناقشة المكونة من:

د /سعيد خضراوي، أستاذ محاضر، (جامعة باتنة)	رئيسا.
د /جمال كديك، أستاذ محاضر، (المركز الجامعي بالمدينة)	مقررا.
د /أحمد جلايلي، أستاذ محاضر، (جامعة ورقلة)	مناقشا.
د /عبد الحميد دبّاش، أستاذ مساعد مكلف بالدروس، (جامعة ورقلة)	مناقشا.

السنة الجامعية:

2003 / 2002

إهـداء

إلى روح والدي الطاهرة في الملكوت الأعلى .

إلى قبس النور و العطاء الرّباني ، والدتي أطال الله عمرها .

إلى جميع أهلي و أفراد عائلتي و خاصّة خنساء .

إلى الغالية كلثوم .

إلى صديقاتي مع تمنياتي بالنجاح .

إلى أستاذي المشرف مع بالغ امتناني و عظيم تقديري .

إلى البعيد القريب ، أستاذي : عبد الكريم محمد الشريف .

إلى كل من جعل العلم محبّة و قبلة ، و أضاء شمعة في دروب طالبيه .

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي وفاء و امتنانا .

هـــاجر

شكـر

إلى المشرف على هذه المذكّرة الدكتور : جمال كديك
إلى أساتذتي في كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، وخاصّة في قسم اللغة العربية و آدابها .
وأعظم تقديري و امتناني إلى : فضيلة ورقلي .

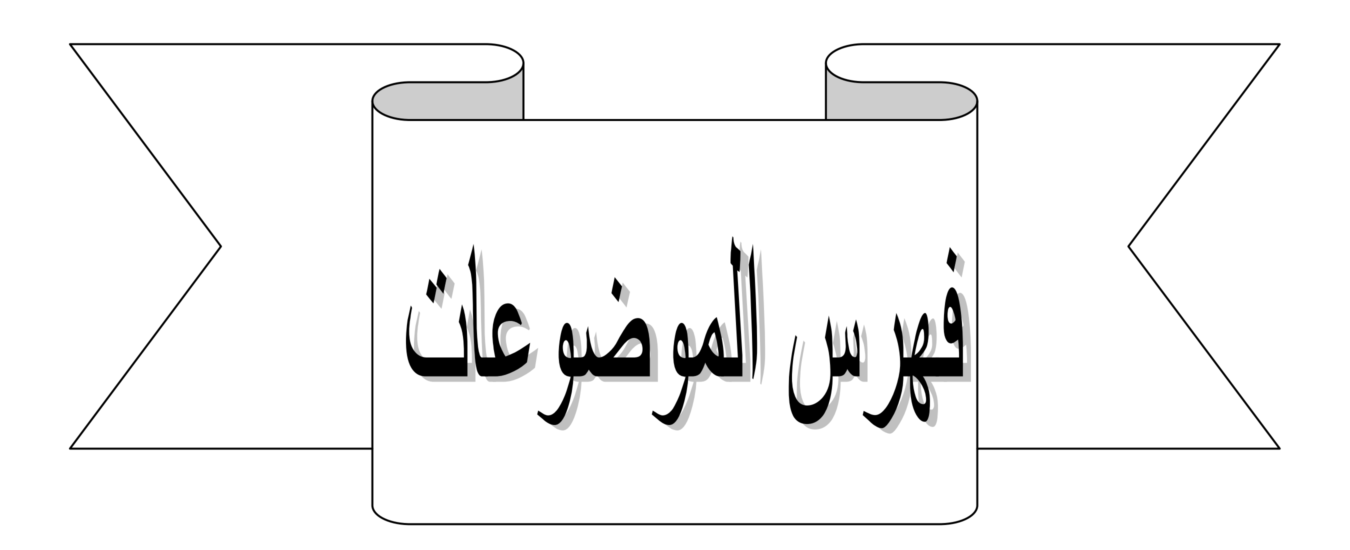
هاجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[الآية 125 من سورة النحل]



فهرس الموضوعات

المقدمة

المقدّمـة :

خلق الإنسـان و قد ميّزتـه ملكـة فرقته عـن سائر المخلوقات ، كانت ملكـة الكـلام و التّخاطب مـع أبناء جنسـه من البشر ، وكمـا يقـال : << اللّسـان آلـة البيـان >> ، و بـه نحـا الإنسـان مناحي شتى في كلامه و صفات تخاطبه وما هيّئت له من مواقف تناسبها .

و قـد تعـدّدت أوجـه التّخـاطب الإنسانـي بتنـوّعها بيـن الخطابـات الكتابيّـة و الشّـفويّة ، وكـان الخطـاب الحجـاجيّ في هـذه وتلـك ؛ إذ يعـدّ ركيـزة النّصـوص الموجّـهة المتضـمّنة للمقصـديّة و النّقـاش و النّـقد و الجدل ، و التي منها : النّصوص القرآنيّة ، و الفلسفيّة ، و الفقهيّة ، و الأدبيّة .

و لم تكن دراسة النّص الحجاجيّ حديثة و لا من مستجدّات العصر ، إنّما يوغل بها التّاريخ إلى اليونان و مـا جـاء في مؤلّفـات " أرسطـو " ، و لا سيمـا عـن الخطابـة ، ثـم مـا توارثـه العـرب عـن أصـول الخطابـة ومميّزات الخطيب ، انتهاء إلى الإرث الفكريّ الضّخم الذي أحاط بكلّ ما يمكن أن يطرأ على هذا النّص

من خلال تطبيقات كبار المفكّرين و الفلاسفة و الفقهاء على مختلف النّصوص : القرآنيّة ، و الفلسفيّة ، و الكـلاميّة ، ...

و من هنا جاءت فكرة البحث في مجال : الخطاب الحجاجيّ بمنظور حديث ، كميدان بكر لا سيما في الدّراسات العربيّة الحديثة ، يغري باستطلاع ماهيته ، و الوقوف على أهمّ أنواعه و خصائصه في الفكر العربيّ الحديث ، حيث أنه درس تحت عناوين مختلفة باختلاف توجّهات أصحابها ، وهذا الاختلاف بقي قيد مدوّنات معيّنة دون أن يطال المؤلّفات الأدبيّة – التي لا تتضمّن في نظر كثير من الدّراسين خطابا حجاجيّا صريحا – و كان هذا حافزا يبعث على محاولة البحث عن خطاب حجاجي شبه مكتمل المعالم – استنادا إلى بعض الدّراسات – في مدوّنة أدبيّة لعلم من أعلام الحجاج الأدبّي و الإصلاح الاجتماعيّ معا ، انطلاقا من إشكاليّة تتلخّص في :

- إن كان الحجاج فكرة أو تقنيّة متضمنة في الخطابات التّواصلية البلاغيّة و الفلسفيّة و التّداوليّة ؟
- مميّزات بنية هذا الحجاج تحت هذه العناوين ، و أهم خصائص تكوين هذه الخطابات الحجاجية ؟
- و هل يمكن لكلّ هذا أن يتوفّر في مدوّنة أدبيّة واحدة (مقاليّة التّأليف) ؟

و هذه الإشكالية بتفرّعها شكّلت هيكل البحث و خطّته ، التي ابتدأت بمقدمة ثمّ تمهيد تلاه فصلان اثنان ، و خاتمة .

– أمّا التّمهيد فقد كان محاولة للوقوف على إشكالية أساسية تعترض البحث ، و هي الفصل بين مصطلحي النّص و الخطاب ؛ و ذلك بعد ورود مصطلح الحجاج تحت كل منهما في مواضع مختلفة ، و لتعذّر تبنّي أحد المصطلحين لتعدّد النّظريات و الآراء حولهما ، ثم اللّجوء إلى حملهما على محمل واحد و بدلالة واحدة ،حيث يكون النّص هو الخطاب و الخطاب هو النّص اتّباعا لمنهج تحليل الخطاب في التعامل معهما .

تلا التّمهيد فصل أوّل نظري ضمّ مدخلا تمهيديّا عرّف فيه الحجاج معجميّا في الثّقافة العربيّة و الفرنسيّة و الإنجليزيّة ، و لابدّ للتّعريف المعجميّ من آخر اصطلاحيّ تمثّل في المبحث الأوّل الذي كان بحثا في ماهية الحجاج قديما و حديثا في الثّقافتين الغربية والعربية و الوقوف على أهمّ النّظريات و الدّراسات لدى أشهر مفكّري و دارسي العصور القديمة و الحديثة في الفكرين الغربيّ و العربّي معا . أمّا المبحث الثّاني فتناول أنواع الخطاب الحجاجي استنادا إلى التّقسيمات الحديثة – الغربية و العربية معا – و تمثّلت في أنواع ثلاثة: الخطاب الحجاجي البلاغيّ ، و الخطاب الحجاجي الفلسفيّ ، والخطاب الحجاجي التّداوليّ ، أمّا خصائص هذه الأنواع فقد كانت عنوانا للمبحث الثّالث و الأخير في هذا الفصل ، و تمثّلت في : الخصائص الأسلوبيّة للخطاب الحجاجي البلاغيّ ، و الخصائص المناظراتيّة للخطاب الحجاجي الفلسفيّ ، و الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي التّداوليّ .

أمّا الفصل الثّاني فهو تطبيقيّ ، يبحث في أنواع الخطاب الحجاجي وخصائصه في ((كتاب المساكين)) لـ : " الرّافعي " ، حيث يبتديء بتمهيد يستعرض تعريف الخطاب الأدبي كمدخل، ثم تبيين لسمات المقال عند " الرّافعي " و أنواعه ، يتلو هذا المدخل المبحث الأوّل الخاصّ بالخطاب الحجاجي البلاغي و خصائصه الأسلوبيّة في هذا الكتاب ، انطلاقا من البنية البلاغية للخطاب الحجاجي و المتمثّلة في الصّور البلاغية العامّة للحجاج وصولا إلى الخاصّيتين الأسلوبيّتين للخطاب الحجاجي البلاغي : الاستعارة بنوعيها ، والمثل بأنواعه المختلفة ، وخصّ المبحث الثاني بالخطاب الحجاجي الفلسفي ، بنيته وخصائصه المناظراتيّة : المناظرة (المحاورة القريبة) و التّناص (المحاورة البعيدة) .

وكان المبحث الثّالث للخطاب الحجاجيّ التّداولي ، بنيته وخصائصه : التّشخيص المقام .

و في الأخير خاتمة كانت خلاصة ما أفدناه من نتائج هذا البحث .

أما المنهج المعتمد في هذا البحث فهو منهج << تحليل الخطاب >> الذي تمت الاستعانة به في تحليل كل نوع من هذه الخطابات في المدّونة ، باستخراج مميّزاته و أهمّ خصائصه .

و البحث في هذا المجال استدعى الاعتماد على مجموع مصادر و مراجع أهمها :

((كتاب المساكين . للرّافعي)) ، ((كتاب الخطابة . لأرسطو))، كتابا : ((اللسان و الميزان أو التّكوثر العقلي ، و في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، لطه عبد الرحمن)) ، و كتاب :

((**Les Textes types et Prototypes – Jean Michel Adam**)) و مقال : الحجاج و الاستدلال الحجاجي ((عناصر استقصاء نظري)) – لـ : حبيب أعراب و مقال : مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " و تطوّره في البلاغة المعاصرة لـ : محمد سالم ولد محمد الأمين ، المنشورين في مجلّة عالم الفكر في عددين مختلفين و مقالا للأستاذ : الحوّاس مسعودي : ((البنية الحجاجيّة في

القرآن الكريم)) ، و ((النّصوص الحجاجية)) في مجلة اللّغة و الأدب ، في عددين مختلفين ، و غيرها .

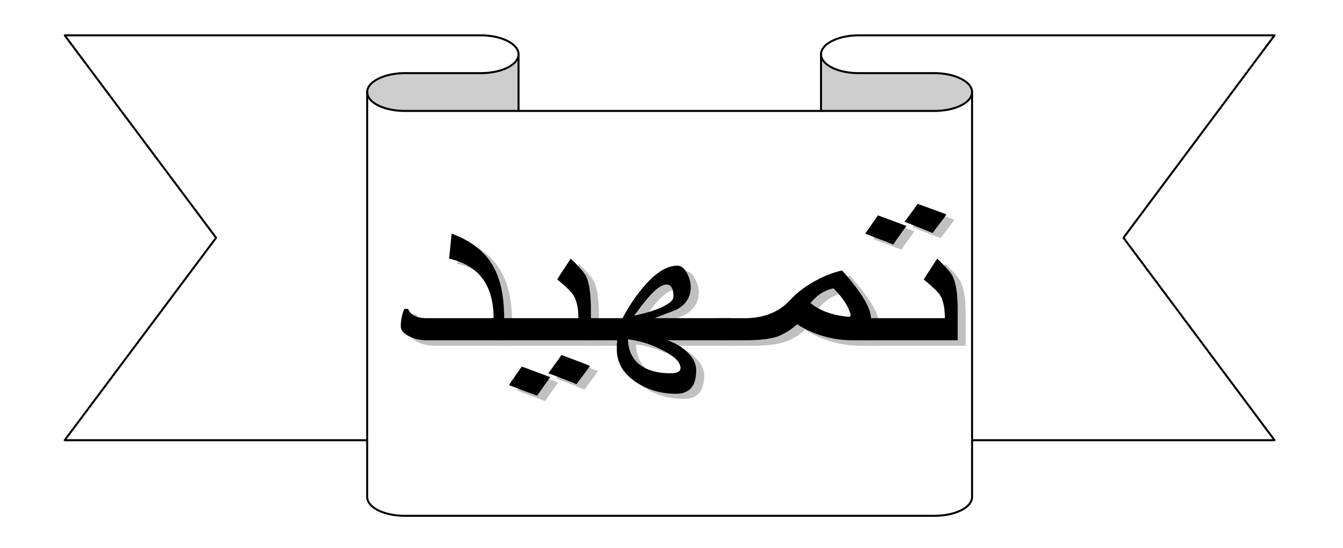
و تكمن الصعوبة في إنجاز عمل كهذا في قلّة المصادر و المراجع الحديثة المتخصّصة في هذا الموضوع ، وإن وجدت ففي صعوبة الطّرح و اختلافه من دارس إلى آخر ، و عدم الاتّفاق على منهج و احد أو نظرية واحدة تمكّن الدّارس المبتدئ من تناول الموضوع بوضوح خال من التّشويش و عدم الثّقة .

و لا بدّ بعد كلّ هذا من كلمة حقّ وشكر أخصّ بها المشرف على إنجاز هذا العمل الدّكتور : جمال كديك.

الذي يسّر علي بملاحظاته و توجيهاته الخوض في مثل هذا المجال المستعصي نوعا ما و الجديد على تجربتي في البحث .

و أخيرا ، أتمنى من الله أني قد و فقت في استيفاء هذا العمل و الإحاطة و لو بجزء من الصورة الكاملة له ، و أملي أني قد أفدت و استفدت ، و الله أسأل أن يلهمني السّداد في القول و الفكر و العمل ، و هو حسبي و نعم الوكيل .

هاجر في : 01 /09 / 2003



التمهيد: **النص والخطاب (إشكالية المصطلح)**

يستحوذ مصطلحا " النّص "و " الخطاب " على اهتمام أغلب الدّارسين والنّقاد باختلاف مدارسهم واتجاهاتهم ، ولكن لا يكاد المتتبع لهذه الدراسات أن يقف على تعريف شاف لأي منهما ، ولا سيما وأن أول ما سيواجهه هو إشكالية تتمثل في :

إن كان النص والخطاب مفهومين منفصلين ، أم أن كليهما واحد ؟ << فعندما نقرأ بعض الدراسات نجد كثيرا منها قد استعملت مصطلح النص (Texte) ؛ وهي تقصد الخطاب (Discours) ، ونجد كثيرا منها قد استعملت الخطاب وهي تقصد النص ، ولذلك نتساءل : ما الفرق بين النص والخطاب ؟ أين يلتقيان وأين يفترقان ؟ >> (1) .

I- النّص :

1- النّص لغة :

تتعدد معاني هذه المفردة في اللغة بتعدد استعمالاتها ونجدها مجملة في ((لسان العرب)) لـ : " ابن منظور " كالآتي :<< النص :رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصا :رفعه ، وكل ما أظهر فقد نص ، [...] ونص المتاع نصا : جعل بعضه على بعض ،وأصل النص أقصى الشيء وغايته ،ونص كل شيء منتهاه >> (2) . فهي – المعاني – بمعنى الإظهار والتبيين ، وكذا بمعنى السبك و الترتيب،وترد بمعنى نهاية الشيء وغايته الكلية كالكلام مثلا .

2 –النّص في الدراسات القرآنية :

أما عند الفقهاء : نص القرآن ونص السنة ؛ أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام (3) . ويعرفه " الشريف الجرجاني " : << النص ما لا يحتمل إلا معنى واحد أو ما لا يحتمل التأويل >>(4). بينما يرى " محمد مفتاح " أن أول المؤسسين لمفهوم النص في الثقافة العربية هو : " الشافعي " الذي عرف النص في ((رسالته)) ، وقرر أن النص هو : << المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل >> (5) وفي هذا التعريف ربط لمفهوم النص بالتأويل على غرار التعريفين السابقين ، لكنه ليس بمعنى المرادفة ، إنما بمعنى المفارقة ؛ أي برفض التأويل واستخراج المعاني المتعددة .

1– بشير إبرير ، في تعليمية الخطاب الأدبي ، مجلة التواصل ، جامعة عنابة ،الجزائر ، ع 8 ،جوان 2001 م ، ص: 75 .

2–ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ،لبنان ، دط ،1992 م ، مادة (ن ص ص) .

3–محمد الصغير بناني ، مفهوم النص عند المنظرين القدماء ، اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، ع12 ،ديسمبر 1997 م ، ص:41 .

4–نفسه ، ص: 43 .

5–الشيخ بوقربة ، المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث ، علامات في النقد ، جدة،، السعودية ،ح40 ،مج 10 ، يونيو 2001 م ،ص340 .

وهذا أمر معروف لدى كثير من المفسرين ، والمتصوفة ،والمؤرخين .

3 –النّص في الدراسات اللغوية الحديثة :

أما الدراسات الحديثة ، فقد انطلقت في تعريفها للنص << من المفهوم الغربي المأخوذ كما هو معلوم من اللاتينية (Textus) وتعني النسيج >> (1) ؛ أي أنه كما يعرفه " فاولر " : << بنية في أصلها متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها تشكل استمرارا ونسيجا على صعيد تلك المتوالية >>(2) . وفي لسانيات النص تشكل كل متتالية من الجمل نصا ؛ شريطة أن يكون بين هذه الجمل علاقات أو على الأصح بين بعض عناصر هذه الجمل علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو لاحقة :

س ←——— ص = علاقة قبلية

(3)

س ← ص = علاقة بعدية

ويزيد " جان ميشال آدام Jean Michel Adam " على هذا في كتابه : ((مبادئ في اللسانيات النصية

Elemants de Linguistique Textuelle))، بأن النص<< هو وحدة التبليغ والتبادل ، ويكتسب النص انسجامه وحصافته (pertinence) من خلال هذا التبادل والتفاعل >> (4) . أما" محمد مفتاح" فيورد لفظ " التنضيد " كضمان للانسجام في تعريفه للنص بأنه : << عبارة عن وحدات لغوية منضدة ومتسقة >>، لأن التنضيد يضمن انسجام العلاقة بين أجزاء النص، مثل : أدوات العطف ، وغيرها من أدوات الربط (5). فهذه التعريفات حصرت في معظمها ماهية النص في ظاهر الكلام ، أو في جانبه الفيزيقي من حيث مكوناته وتراكيبه .

II- الخطاب :

1-الخطاب لغة :

لم يخر ج " ابن منظور " في تعريفه لمصطلح " الخطاب " وتحديد مفهومه عن دلالة الكلام ومعاييره ، وهو ما ذهب إليه كثير من علماء اللغة قديما وحديثا، يقول" ابن منظور" :<< الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام

1- محمد الصغير بناني ، نفسه ، ص :42 .

2- سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، المركز التقافي العربي، الدار البيضاء ،د ط ، 1988 م ، ص :.12

3- محمد خطابي، لسانيات النص ، المركز النقافي العربي، الدار البيضاء،، بيروت ، ط1 ، 1991 م ، ص:.13

4-خولة طالب الإبراهيمي ، قراءة في اللسانيات النصية ، مبادئ في اللسانيات النصية جان ميشال آدام ، اللغة والأدب ، الجزائر، ع12 ديسمبر 1997 م ، ص: 116 .

5- الشيخ بوقربة ، نفسه ، ص: 340 .

وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا ، وهما يتخاطبان ، والخطبة مصدر الخطيب ، وخطب الخاطب على المنبر ، واختطب يخطب خطابة ، واسم الكلام الخطبة [...] وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ، ونحوه ، وفي التهذيب : الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر >> (1).

1- الخطاب في الدراسات القرآنية :

ورد الخطاب في القرآن الكريم بصيغة المصدر في ثلاث آيات وهي : قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه وآسيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ (سورة ص الآية 20) ، وقوله تعالى : ﴿ فقال أكفلتيها وعزني في الخطاب ﴾ (سورة ص الآية 23) وقوله عز وجل : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا تملكون منه خطابا ﴾ (سورة النبأ الآية 17) .

وورد بصيغة الفعل في آيات ثلاث أيضا و هي : قوله تعالى ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾

(الفرقان الآية 36) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في اللذين ظلموا ﴾ (هود الآية 37) ، وقوله عز وجل : ﴿ ولا تخاطبني في اللذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (المؤمنون الآية : 37).

تتفق كتب التفسير في ضبط مفهوم الخطاب كما ورد في هذه الآيات ، ومنها ما أورده " الزمخشري " في :

((كشافه)) في تفسير كلمة " الخطاب " :

ففي قوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في اللذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾. وردت بمعنى : لا تدعني في شأن قومك ...... (2) .وفي قوله تعالى : ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ ؛ أي لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص في العذاب أو زيادة في التواب (3) . وقوله عز وجل : ﴿ وشددنا ملكه و أتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ، فصل الخطاب هنا إما : البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به ولا يلبس عليه ،

أو الخطاب : القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل (4) . وفي قوله تعالى: ﴿ فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ فهذا التفسير شأنه شأن باقي الكتب والمعاجم ، قرن الخطاب بالكلام كفعالية فردية ونشاط ذاتي يعتمده المتكلم في تعبيره عن أغراضه .

---

1. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (خ ط ب) .
2. الزمخشري ، الكشاف ، المجلد 2 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ط ، ص: 268 .
3. الزمخشري ، نفسه ، مجلد 4 ، ص 210 .
4. نفسه ، المجلد 3 ، ص: 365 .
5. نفسه ، المجلد 3 ، ص: 369 .

2.الخطاب في الدراسات اللغوية الحديثة :

يورد " إبراهيم صحراوي " في كتابه : ((تحليل الخطاب الأدبي)) ، إحاطة شبه تامة بهذا المصطلح ؛ حيث يرجع ظهوره في حقل الدراسات اللغوية إلى الغرب ، أين نما وتطور في ظل التفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات ، ولا سيما بعد ظهور كتاب " فرديناند دي سو سير **Ferdinand de Saussure** " : ((محاضرات في اللسانيات العامة)) ؛ الذي تضمن المبادئ الأساسية التي جاء بها هذا الأخير ، وأهمها :تفريقه بين الدال و المدلول ؛ و اللغة كظاهرة اجتماعية ، و الكلام كظاهرة فردية ،و بلورته لمفهوم "نسق " أو "النظام " الذي تطور فيما بعد إلى بنية .

و قد خضع مفهوم هذا المصطلح للتعدد بناء على تعدد مدارس و اتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة ،وتضمن بهذا كل خصائص هذه الاتجاهات حتى استشكل تعريفه أو الوقوف على ميزات خاصة به لا تجمعه بالنص ، ولا تتيح فرصة تميزه عن لسانيات النص ، والجملة وتحليل الخطاب ، ولسانيات الخطاب كذلك " **Linguistique de discours** " ، لكن هذا التشتت سيمنح فرصة التعرف على شتى هذه

الاتجاهات بتعدد التعاريف ، والتي منها ما يشير إليه " دومينيك مانقينو **D . Mainguenea**u " في كتابه :

((الاتجاهات الجديدة في تحليل الخطاب)) ، حيت يعزو تعدد دلالات الخطاب إلى خروج تحليل الخطاب عن المجالات اللسانية أحيانا وينتهي إلى تعريفه كما يلي :

1. الخطاب مرادف للكلام عند " دي سوسير " ، وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية .

2. هو الوحدة اللسانية التي تتعدد الجملة فيها وتصبح مرسلة كلية أو ملفوظا .

3. الخطاب ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بوساطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض (2) .

وفي مقابل هذا التعريف الذي يحصر الخطاب كموضوع لساني في الجملة ، يأتي تصور " إميل بانفنيست **Emile Benveniste** " ، الذي حدد الخطاب كالآتي : << يجب النظر إلى الخطاب من حيث بعده الواسع ، أي من حيت هو الكلام / تلفظ ، يفترض وجود متكلم ومخاطب وأن للأول نية التأثير على الثاني بشكل من الأشكال >> (3) . والتلفظ " **Enonciation** ".في نظر "بانفنيست " دائما :هو الحدث (**Acte**) ، التكلم نفسه أو النشاط المتحقق بواسطة الكلام أو إنتاج الكلام / الملفوظ ، أما الملفوظ فهو نتاج

ابراهيم صحراوي ، تحليل الخطاب الأدبي – دراسة تطبيقية ،.دار الآفاق ، الجزائر ، ط 1 ، 1999 م ، ص 9 .

1. نور الدين الشد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، ج 2 ، دار هومة ، الجزائر ، د ط ، 1997 م ، ص 27 .

2. Emile Benveniste , Problemes de linguistique generale 1,2 Gallimard , paris ,, 1966 p :245 .

التمهيد: النص والخطاب (إشكالية المصطلح)

يستحوذ مصطلحا " النّص "و " الخطاب " على اهتمام أغلب الدّارسين والنّقاد باختلاف مدارسهم واتجاهاتهم ، ولكن لا يكاد المتتبع لهذه الدراسات أن يقف على تعريف شاف لأي منهما ، ولا سيما وأن أول ما سيواجهه هو إشكالية تتمثل في :

إن كان النص والخطاب مفهومين منفصلين ، أم أن كليهما واحد ؟ << فعندما نقرأ بعض الدراسات نجد كثيرا منها قد استعملت مصطلح النص (Texte) ؛ وهي تقصد الخطاب (Discours) ، ونجد كثيرا منها قد استعملت الخطاب وهي تقصد النص ، ولذلك نتساءل : ما الفرق بين النص والخطاب ؟ أين يلتقيان وأين يفترقان ؟ >> (1) .

أ–النّص :

1– النّص لغة :

تتعدد معاني هذه المفردة في اللغة بتعدد استعمالاتها ونجدها مجملة في ((لسان العرب)) لـ : " ابن منظور " كالآتي :<< النص :رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصا :رفعه ، وكل ما أظهر فقد نص ، [...]ونص المتاع نصا : جعل بعضه على بعض ،وأصل النص أقصى الشيء وغايته ،ونص كل شيء منتهاه >> (2) .

فهي – المعاني – بمعنى الإظهار والتبيين ، وكذا بمعنى السبك و الترتيب،وترد بمعنى نهاية الشيء وغايته الكلية كالكلام مثلا .

2 –النّص في الدراسات القرآنية :

أما عند الفقهاء : نص القرآن ونص السنة ؛ أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام (3) . ويعرفه " الشريف الجرجاني " : << النص ما لا يحتمل إلا معنى واحد أو ما لا يحتمل التأويل >>(4). بينما يرى " محمد مفتاح " أن أول المؤسسين لمفهوم النص في الثقافة العربية هو : " الشافعي " الذي عرف النص في ((رسالته)) ، وقرر أن النص هو : << المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل >> (5) وفي هذا التعريف ربط لمفهوم النص بالتأويل على غرار التعريفين السابقين ، لكنه ليس بمعنى المرادفة ، إنما بمعنى المفارقة ؛ أي برفض التأويل واستخراج المعاني المتعددة .

1– بشير إبرير ، **في تعليمية الخطاب الأدبي** ، مجلة التواصل ، جامعة عنابة ،الجزائر ، ع 8 ،جوان 2001 م ، ص: 75 .

2–ابن منظور ، **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ،لبنان ، دط ،1992 م ، مادة (ن ص ص) .

3–محمد الصغير بناني ، **مفهوم النص عند المنظرين القدماء** ، اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، ع12 ،ديسمبر 1997 م ، ص:41 .

4–**نفسه** ، ص: 43 .

5–الشيخ بوقربة ، **المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث** ، علامات في النقد ، جدة،، السعودية ،ح40 ،مج 10 ، يونيو 2001 م ،ص340 .

وهذا أمر معروف لدى كثير من المفسرين ، والمتصوفة ،والمؤرخين .

3 –النّص في الدراسات اللغوية الحديثة :

أما الدراسات الحديثة ، فقد انطلقت في تعريفها للنص << من المفهوم الغربي المأخوذ كما هو معلوم من اللاتينية (Textus) وتعني النسيج >> (1) ؛ أي أنه كما يعرفه " فاولر " : << بنية في أصلها متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها تشكل استمرارا ونسيجا على صعيد تلك المتوالية >>(2) . وفي لسانيات النص تشكل كل متتالية من الجمل نصا ؛ شريطة أن يكون بين هذه الجمل علاقات أو على الأصح بين بعض عناصر هذه الجمل علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو لاحقة :

س ⟵ ص = علاقة قبلية

(3)

س ⟶ ص = علاقة بعدية

ويزيد " جان ميشال آدام Jean Michel Adam " على هذا في كتابه : ((مبادئ في اللسانيات النصية Elemants de Linguistique Textuelle))، بأن النص<< هو وحدة التبليغ والتبادل ، ويكتسب النص انسجامه وحصافته (pertinence) من خلال هذا التبادل والتفاعل >> (4) . أما" محمد مفتاح" فيورد لفظ " التنضيد " كضمان للانسجام في تعريفه للنص بأنه : << عبارة عن وحدات لغوية منضدة ومتسقة >>، لأن التنضيد يضمن انسجام العلاقة بين أجزاء النص، مثل : أدوات العطف ، وغيرها من أدوات الربط (5). فهذه التعريفات حصرت في معظمها ماهية النص في ظاهر الكلام ، أو في جانبه الفيزيقي من حيث مكوناته وتراكيبه .

I- الخطاب :

1–الخطاب لغة :

لم يخر ج " ابن منظور " في تعريفه لمصطلح " الخطاب " وتحديد مفهومه عن دلالة الكلام ومعاييره ، وهو ما ذهب إليه كثير من علماء اللغة قديما وحديثا، يقول" ابن منظور" :<< الخطاب و المخاطبة مراجعة الكلام

1– محمد الصغير بناني ، **نفسه** ، ص :42 .

2– سعيد يقطين ، **انفتاح النص الروائي** ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ،د ط ، 1988 م ، ص :.12

3– محمد خطابي، **لسانيات النص** ، المركز النقافي العربي، الدار البيضاء،، بيروت ، ط1 ، 1991 م ، ص:.13

4–خولة طالب الإبراهيمي ، **قراءة في اللسانيات النصية** ، مبادئ في اللسانيات النصية جان ميشال آدام ، اللغة والأدب ، الجزائر، ع12 ديسمبر 1997 م ، ص: 116 .

5– الشيخ بوقربة ، **نفسه** ، ص: 340 .

وقد خاطبه بالكلام مخاطبة و خطابا ، وهما يتخاطبان ، والخطبة مصدر الخطيب ، وخطب الخاطب على المنبر ، واختطب يخطب خطابة ، واسم الكلام الخطبة [...] وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب : الكلام المنثور المسجع ، ونحوه ، وفي التهذيب : الخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر >> (1).

1- الخطاب في الدراسات القرآنية :

ورد الخطاب في القرآن الكريم بصيغة المصدر في ثلاث آيات وهي : قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ (سورة ص الآية 20) ، وقوله تعالى : ﴿ فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ (سورة ص الآية 23) وقوله عز وجل : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ﴾ (سورة النبأ الآية 37) .

وورد بصيغة الفعل في آيات ثلاث أيضا و هي : قوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (الفرقان الآية 63) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ (هود الآية 37) ، وقوله عز وجل : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (المؤمنون الآية : 27 .

تتفق كتب التفسير في ضبط مفهوم الخطاب كما ورد في هذه الآيات ، ومنها ما أورده " الزمخشري " في : ((كشافه)) في تفسير كلمة " الخطاب " :

ففي قوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾. وردت بمعنى : لا تدعني في شأن قومك ...... (2) .وفي قوله تعالى : ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ ؛ أي لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص في العذاب أو زيادة في الثواب (3) . وقوله عز وجل : ﴿ وشددنا ملكه و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ، فصل الخطاب هنا إما : البيّن من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به ولا يلبس عليه ، أو الخطاب : القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل (4) . وفي قوله تعالى: ﴿ فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ فهذا التفسير شأنه شأن باقي الكتب والمعاجم ، قرن الخطاب بالكلام كفعالية فردية ونشاط ذاتي يعتمده المتكلم في تعبيره عن أغراضه .

---

1. ابن منظور ، **لسان العرب** ، مادة (خ ط ب) .
2. الزمخشري ، **الكشاف** ، المجلد 2 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، د ت ط ، ص: 268 .
3. الزمخشري ، **نفسه** ، مجلد 4 ، ص 210 .
4. **نفسه** ، المجلد 3 ، ص: 365 .
5. **نفسه** ، المجلد 3 ، ص: 369 .

2- الخطاب في الدراسات اللغوية الحديثة :

يورد " إبراهيم صحراوي " في كتابه : ((تحليل الخطاب الأدبي)) ، إحاطة شبه تامة بهذا المصطلح ؛ حيث يرجع ظهوره في حقل الدراسات اللغوية إلى الغرب ، أين نما وتطور في ظل التفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات ، ولا سيما بعد ظهور كتاب " فرديناند دي سو سير Ferdinand de Saussure " : ((محاضرات في اللسانيات العامة)) ؛ الذي تضمن المبادئ الأساسية التي جاء بها هذا الأخير ، وأهمها :تفريقه بين الدال و المدلول ؛ و اللغة كظاهرة اجتماعية ، و الكلام كظاهرة فردية ،و بلورته لمفهوم "نسق " أو "النظام " الذي تطور فيما بعد إلى بنية .

و قد خضع مفهوم هذا المصطلح للتعدد بناء على تعدد مدارس و اتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة ،وتضمن بهذا كل خصائص هذه الاتجاهات حتى استشكل تعريفه أو الوقوف على ميزات خاصة به لا تجمعه بالنص ، ولا تتيح فرصة تميزه عن لسانيات النص ، والجملة وتحليل الخطاب ، ولسانيات الخطاب كذلك " Linguistique de discours " ، لكن هذا التشتت سيمنح فرصة التعرف على شتى هذه الاتجاهات بتعدد التعاريف ، والتي منها ما يشير إليه " دومينيك مانقينو D . Mainguenau " في كتابه : ((الاتجاهات الجديدة في تحليل الخطاب)) ، حيث يعزو تعدد دلالات الخطاب إلى خروج تحليل الخطاب عن المجالات اللسانية أحيانا وينتهي إلى تعريفه كما يلي :

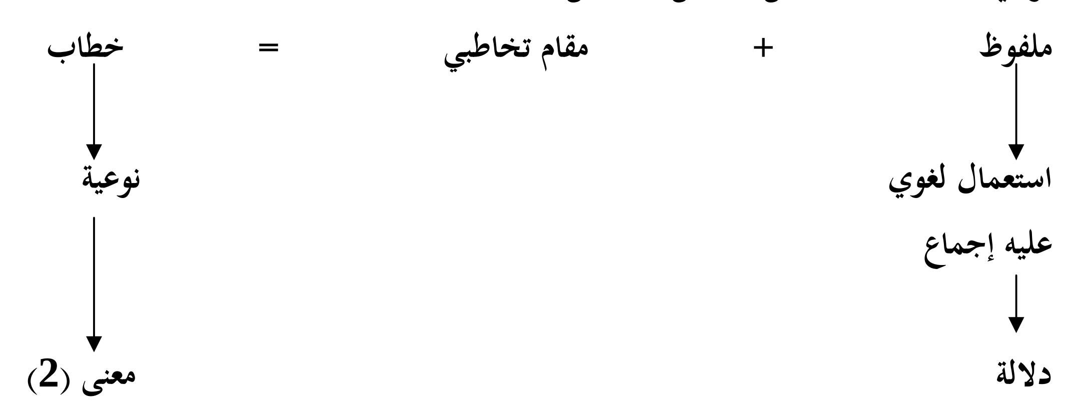
1. الخطاب مرادف للكلام عند " دي سوسير " ، وهو المعنى الجاري في اللسانيات البنيوية .
2. هو الوحدة اللسانية التي تتعدد الجملة فيها وتصبح مرسلة كلية أو ملفوظا .
3. الخطاب ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بوساطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض (2) .

وفي مقابل هذا التعريف الذي يحصر الخطاب كموضوع لساني في الجملة ، يأتي تصور " إميل بانفنيست Emile Benveniste " ، الذي حدد الخطاب كالآتي : << يجب النظر إلى الخطاب من حيث بعده الواسع ، أي من حيث هو الكلام / تلفظ ، يفترض وجود متكلم ومخاطب وأن للأول نية التأثير على الثاني بشكل من الأشكال >> (3) . والتلفظ " Enonciation ".في نظر "بانفنيست " دائما :هو الحدث (Acte) ، التكلم نفسه أو النشاط المتحقق بواسطة الكلام أو إنتاج الكلام / الملفوظ ، أما الملفوظ فهو نتاج

---

1. ابراهيم صحراوي ، **تحليل الخطاب الأدبي** – دراسة تطبيقية ،.دار الآفاق ، الجزائر ، ط 1 ، 1999 م ، ص 9 .
2. نور الدين الشد ، **الأسلوبية وتحليل الخطاب** ، ج 2 ، دار هومة ، الجزائر ، د ط ، 1997 م ، ص 27 .
3. Emile Benveniste , **Problemes de linguistique generale** 1,2 Gallimard , paris ,, 1966 p :245 .

التلفظ ، أي مجموع الأقوال المنجزة (1) . وهو نفسه مادل عليه تعريف الخطاب لدى " شارودو p . charaudeau " : << ما تكون من ملفوظ أو حديث في مقام تخاطبي ، وأن هذا الملفوظ أو الحديث ((Enoncé)) يستلزم استعمالا لغويا عليه إجماع ؛ أي قد تواضع عليه المستعملون للغة ، وأن هذا الاستعمال يؤدي دلالة معينة ، يمكن أن نبين ذلك من خلال الخطاطة التالية :



وفي المجال نفسه يعرف " بيار جيرو p . Guiraud " الخطاب ، فيقول : << الخطاب يفرز أنماطه الذاتية وسننه

العلامية والدلالية فيكون سياقه الداخلي هو المرجع ، ليقيم دلالاته حتى لكأن الخطاب هو معجم ذاته >> (3) .

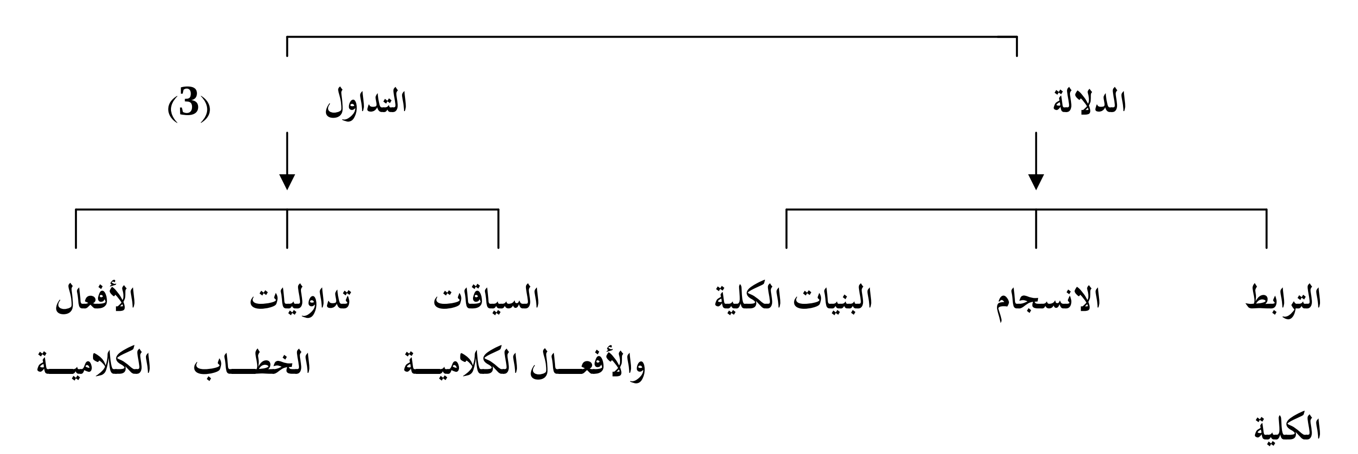
غير أن للنقد مفهومه الخاص الذي تجاوز به المفهوم الألسني البحت ، وهو ما تجلى في كتابات بعض المفكرين المعاصرين و في طليعتهم الفرنسي " ميشال فوكو M . Faucault " الذي استطاع أن يحفر لهذا المفهوم سياقا دلاليا اصطلاحيا مميزا عبر التنظير والاستعمال المكثف في العديد من الدراسات ، وفي هذه الأعمال يحدد

" فوكو " الخطاب بأنه : << شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه >> (4) . والخطاب في البحث النقدي هو << فعل النطق أو فاعلية تقول ، وتصوغ في نظام ما يريد المتحدث قوله ، .... هو كتلة نطقية لها طابع الفوضى ، وحرارة النفس ، ورغبة النطق بشيء ليس هو تماما الجملة ، ولا هو تماما النص بل هو يريد

---

1. محمد يحيا تن ، **الأصالة في نظر رضا مالك** ، تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديثة أو التلفظ ، اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، ع 14 ، ديسمبر 1999 م ، ص: 337 .
2. بشير إبرير ،**في تعليمية الخطاب العلمي** ، ص: 75 .
3. نور الدين الشد ، **الأسلوبية وتحليل الخطاب** ، ج 2 ، ص: 16 .
4. ميجان الرويلي وسعد البازعي ، **دليل الناقد الأدبي** ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، بيروت ، ط 2 ، 2000 م، ص: 89 .

أن يقول ، هو فاعلية يمارسها مخاطب يعيش في مكان ، وفي زمان تاريخي تسود فيه العلاقات الاجتماعية بين الناس >> (1) . فهذه التعريفات النقدية تحرر الخطاب من قيد التعريف الشكلي ، ليذوب في شبكة العلاقات الاجتماعية بأنواعها ، ويرتبط بالممارسة الفعلية المرتبطة بالتداول دائما لكن للخطاب تعريفا شاملا ووظيفيا أجمله " سعد مصلوح " في قوله إن الخطاب هو : << رسالة موجهة من المنشيء إلى المتلقي تستخدم فيها الشفرة اللغوية المشتركة بينهما ، ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكون نظام اللغة ؛ (أي الشفرة) المشتركة ، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية ، وتتشكل علاقاته من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والإجتماعي في حياتهم >> (2) . ولربما كان في هذا التعريف جمع بين قسمي الخطاب الذين أوردهما " فان دايك Van Dijk " في كتابه : ((النص والسياق)) ، وهذان القسمان هما : الدلالي والتداولي ، والذان يردان في كتاب " محمد خطابي " : ((لسانيات النص)) هكذا :



1. رابح بوحوش ، الخطاب والخطاب الأدبي وثورته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص ، اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، ع 12 ، ديسمبر 1997 م ، ص : 177 .

2. نور الدين السد ، نفسه ، ص : 74 .

3. محمد خطابي ، لسانيات النص ، ص : 27 .

ج – بين النص والخطاب :

إذا كان هناك من الدارسين من فصل بين النص والخطاب ؛ بأن أفرد لكل منهما مفهومه الخاص ، وحدّه الذي يميزه ، وعلاقة كل منهما بالآخر وفق ما يؤديه أولهما إلى الثاني أو العكس ، فإن منهم كذلك من لم يفصل بينهما وساقهما في تعريف موحد وعلى محمل واحد كذلك متجاوزا جهود الفصل التي يعانيها غيرهم ، وفريق آخر وضع حدا لهذه الإشكالية بأن ميز كلا منهما بما يحسمه وينهي الخلاف حوله ، ما يسمى بـ " الكرافية النصية " و " الأدائية الخطابية أو التواصلية " .

1 – التعريف الموحّد :

نجده في باديء الأمر عند " رومان جاكبسون R . Jakobson " الذي يمضي في تعريفه للخطاب الأدبي إلى أنه : << نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام ، وهو ما يفضي حتما إلى تحديد ماهية الأسلوب لكونه الوظيفة المركزية المنظمة >> ، ولذلك كان النص عنده خطابا تركب في ذاته ولذاته (1) . وهو عند " جوليا كريستيفا Julia Kristeva " كذلك ؛ إذ تجمع بينهما في كتابها : ((علم النص)) بقولها : << فالنص الأدبي خطاب يخترق حاليا وجه العلم والإيديولوجيا والسياسة ويتنطع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها . ومن حيث هو خطاب متعدد ومتعدد اللسان أحيانا ومتعدد الأصوات غالبا (من خلال تعدد أنماط الملفوظات التي يقوم بمفصلتها) ، يقوم النص باستحضار (Presentifie) كتابة (Graphique) ذلك البلور الذي هو محمل الدلالية ، المأخوذة في نقطة معينة من لا تناهيها ؛ أي كنقطة من التاريخ الحاضر حيث يلح هذا البعد اللامتناهي >> (2) . ثم تقوم بنوع من الفصل بينهما ، إذا فهمنا اللغة هاهنا على أنها نص ، حيث تشير قائلة : << هناك حقيقة معينة تحكم وتأسس كل ما هو ملفوظ ، وهي أن اللغة دائما علم والخطاب دائما معرفة بالنسبة لمن يتلفظ بالكلام أو ينصت له داخل السلسلة التواصلية >>.(3).ولـ"رولان بارث R.Barthe " الوجهة نفسها في جمع الخطاب و النص معا،و إن اختلفت مبررات كل منهم ؛إذ يرى أن النص<<يظل على كل الأحوال متلاحما مع الخطاب ،وليس النص إلا خطابا،ولا يستطيع أن يتواجد إلا عبر خطاب آخر >> ؛ أي التناص ، وهو يحاول تحديد الميادين المعرفية التي عرفت الخطاب وحاولت تحديده وفق المعطيات التالية :

---

1. نور الدين السد ، السابق ، ص : 11 .

2. جوليا كريستيفا ، علم النص ، ترجمة : فريد الزاهي ، مراجعة : عبد الجليل ناظم ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط 2 ، 1997 م ، ص ص : 13 ، 14 .

3. نفسه ، ص : 44 .

الأول : هو أن كل مظهر خطابي لبعد أقل من الجملة أو معادل لها ينضوي إلزاما تحت لواء اللسانيات

والثاني : هو أن كل ما وراء الجملة يلتحق (بالخطاب) الذي هو علم معياري قديم هو البلاغة (1)

وهناك تعريف يجمع بين النص والخطاب تحت لواء تدريسية النصوص مفاده أن : << النص خطاب ذو معنى مثبت بالكتابة ؛ أي مثبت بملفوظات مترابطة ومتراصة تتضمن رموزا دلالية على القاريء أن يتعرف عليها ويدرك معناها ، أو بتعبير آخر إن النص مجموعة من الملفوظات تشكل بصفة عامة خطابا مسترسلا

كما تشكل بنية قابلة للفهم والتحليل >>(2). أما " روجر فاولر " ، فبالرغم من تداخل مصطلحي النص والخطاب في تحديده لمعالجة ((الأدب بوصفه خطابا)) ، إلا أن هذا التعريف الوارد به يتضمن فصلا وظيفيا بسيطا بينهما يتجه نحو ما سيأتي . وهو يجمعهما في قوله :<< ....إن معالجة الأدب بوصفه خطابا معناها النظر إلى النص بوصفه علامات بين مستخدمي اللغة ، ليس فحسب علاقات الكلام ، بل أيضا علاقات الوعي و الإيديولوجيا والمساهمة ، والطبقة ؛ إذ لايعود النص شيئا ، بل يغدو فعلا أو عملية >> (3) .

3- المشافهة والتحرير أو الخطاب والنص :

يتبين لنا التقسيم جليا في هذا الرأي الذي ينطلق من ملاحظة مهمة تربط بين ما سلف من الآراء والتعاريف المتفرعة عن شتى المدارس والاتجاهات ، وبين ما استقر عليه أمر الخطاب والنص بعد كل هذا ؛ إذ يورده أصحابه كما يلي : << ربما كانت الحملة التي شنّت على الطريقة الشكلية الصرفة هي التي جعلت مصطلحي النص و الخطاب يتمظهران بشكليهما المتميزين و المختلفين ؛ إذ بعد أن كانا عند الشكليين بنفس المعنى ، أصبح بعد ذلك مفهوم النص هو الظاهر من خلال الكتابة ، هو الذي نقرأ ، هو تلك البنية السطحية الخطية ، أو ذاك المظهر الغرافي كما هو مسجل على الورق . أما الخطاب فهو صفة النص التي تميزه عندما يتعدى حدوده الشكلية ليقيم علاقة تواصلية مع خارجه....عندما يتم ربط النص ببنيات خارجية >>(4) .

و يأتي هذا التعريف موافقا لتعريف "فاولر" في كتابه: ((اللسانيات و الرواية)) ،حين عرف النص بأنه : << البنية السطحية النصية الأكثر إدراكا و معاينة ، ... و عند اللساني هذه البنية هي متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها ، تشكل استمرارا وانسجاما على صعيد تلك المتوالية >> ، وهو بهذا يجعل الجوانب الفيزيقية أو الشكلية ضمن تشكيل النص مثل التقسيم إلى فقرات و فصول و صفحات (5) .

1- نور الدين السد ، السابق ، ص ص : 31 ، 32 .

2- نخبة من الأساتذة ،تدريسية النصوص ، ج2 ،الدليل التربوي ، الرباط ، المغرب ، د ط ،1993 م ، ص:8.

3- ك.م.نيوتن ، نظرية الأدب في القرن العشرين ، ترجمة :عيسى علي الكاعوب ،عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الإجتماعية ، مصر ،ط1، 1996م ، ص : 132.

4- نخبة من الأساتذة ، تدريسية النصوص ، ج 2 ،ص : 85 .

5- سعيد يقطين ، إنفتاح النص الروائي ، ص : 12 .

أما " ليتش Leech "و "شورت Short " فيصنفان النص على المستوى الخطي " Graphique " ، و بذلك يأخذ معنى متوالية خطية ذات علاقة مرئية على الورق ،لأن تجسيده الخطي يمنحه إمكانية أن يحل على صعيد الشفرة لامتلاكه خصائص لسانية ضمنية إلى جانب ذلك الشكل الكتابي (الخطي) أو التركيبي .

فالنص عند " فاولر " و " ليتش " و " شورت " مسجل من خلال تجليه (الكتابي) ،فهو ما نقرأ ،وهو تلك البنية السطحية الخطية ، أو ذلك المظهر الكرافي (الخطي) كما هو متجل على الورق (1) .

أما " فان دايك " فيعمد إلى ملاقاة النص و الخطاب وظيفيا ، حيث يقول : << ... يبدو (النص) وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلي ، و هو كذلك مجموع ، البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب

وتستوعبه >> (2) .وهناك رأي آخر تشكل في نقاط تم التعريف فيها بين الخطاب والنص :

1. **يفترض الخطاب وجود السامع الذي يتلقى الخطاب ، بينما يتوجه النص إلى متلق غائب يتلقاه عن طريق عينيه قراءة ؛ أي أن الخطاب نشاط تواصلي يتأسس أولا وقبل كل شيء على اللغة المنطوقة ،بينما النص مدونة مكتوبة .**
2. **الخطاب لا يتجاوز سامعه إلى غيره ؛ أي أنه مرتبط بلحظة إنتاجه ، بينما النص له ديمومة الكتابة ، فهو يقرأ في كل زمان ومكان .**

الخطاب تنتجه اللغة الشفوية بينما النصوص تنتجها الكتابة ،أو كما قال "روبير إسكاربيت R.Escarpit" : << اللغة الشفوية تنتج خطابا (des discores) ؛ بينما الكتابة تنتج نصوصا (des textes) وكلا هما يحدد بالرجوع إلى القناة التي يستعملها >> (3) . الخطاب محدود بالقناة النطقية بين المتكلم والسامع ، وعليه فإن ديمومته مرتبطة بهما لا تتجاوزهما ، أما النص فإنه يستعمل نظاما خطيا ؛ وعليه فإن ديمومته رئيسية في الزمان .

---

1. سعيد يقطين ، السابق ، ص : 13 .
2. نفسه ص : 16 .
3. R .Escarpit , L'ecrit et la communication , paris : puf (coll que sais – je ?) 1978 , p : 29

بناءا على هذا يتعلق الخطاب بالمشافهة ، ويتعلق النص بالتحرير ؛ أي الكتابة (1) .

وهذا مفهوم يكاد يكون عاديا اتخذه " اسكاربيت Escarpit " للتفريق بين النص والخطاب لكن مع ذلك يبقى المشكل مطروحا ، و الاختلاف قائما ، وتبقى وجهات النظر والآراء متعددة ، وبتعددها تتعدد الأسئلة التي لابد من أن تطرح نفسها أمام كل دراسة : أي رأي من هذه الآراء هو الأجدى والأقرب إلى الصحة والموضوعية والدقة ؟ و في دراسة كهذه التي سنبدؤها ، و التي محورها ((الخطاب الحجاجي)) ، كيف يمكن التوفيق بين ورود تسميته وتصنيفه ((كخطاب حجاجي)) أو ((كنص حجاجي)) ؟ و لا سيما و أن دراسات حديثة تسمه بـ ((النص الحجاجي)) << اتباعا لتقسيمات (إ . ويرلايك) ؛ الذي صنف النصوص إلى نماذج وصفية وسردية وعرضية وحجاجية وأمرية >> (2) .

غير أنه يمكن لهذه المزاوجة وعدم التحديد أن تكون حلا يعفي الدارس من الالتزام الشكلي مادام يضع في ذهنه أن أي نوع من هذه النصوص يستقل بمميزاته وخصائصه سواء من ناحية الشكل أو من ناحية الموضوع (المضمون) .

---

1. بشير إبرير ، في تعليمية الخطاب العلمي ، ص : 77 .
2. الحواس مسعودي ، النصوص الحجاجية ، اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، ع14 ، ديسمبر 1999 م ، ص : 278 .

الفصل الأول:

الخطاب الحجاجي

الفصل الأول : الخطاب الحجاجي

تمهيد :

تراوحت الدراسات التي تناولت " الحجاج " بين قرنه بمصطلحي : " الخطاب " تارة و " النص " تارة أخرى ؛ تجاوزا لما بينهما من فروق تختلف باختلاف المدارس والاتجاهات المتعددة .

وسنعمد في هذا البحث إلى إيراد مصطلح " الخطاب " و " النص " بمعنى واحد مادمنا نتوخى منهج تحليل الخطاب الذي يجمعهما معا ويوردهما بالمعنى نفسه ، شأنه شأن " اللسانيات النصية " " Linguistiques textuelle " التي جهدت في دراسة النصوص وتصنيفها " Typologie " ، وإن كان هذا التصنيف لا يزال محل نقاش إلى الآن (1) . وكان النص الحجاجي أو النموذج الحجاجي بين هذه التصنيفات لا سيما عند"جان ميشال آدام Jean Michel Adam" (2) ؛ أي باعتباره صنفا مستقلا بميزاته وخصائصه في شكله ومضمونه .

والحجاج مفهوم متشعب ومتلبس على الدارسين لتشعب مجالاته << وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته : الخطابة ، الخطاب، القضاء ، الفلسفة ، [...] يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة ، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته [...] ولا غرابة والحالة هذه أن هناك حجاجا خطابيا (لسانيا) ، وحجاجا خطابيا (بلاغيا) ، وآخر قضائيا أو سياسيا أو فلسفيا ....إلخ >> (3) .

وقبل الخوض في هذا المجال واستجلائه ، لابد من العودة إلى معرفة تمهيدية للمعنى اللغوي لهذا المفهوم .

تجمع المعاجم اللغوية الأساسية في تعريفها للحجاج على ما جاء في : ((لسان العرب)) لـ " ابن منظور"

<< يقال حاججته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] ، والحجة : البرهان و قيل : الحجة ما دفع به الخصم،و قال الأزهري : الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة ، وهو رجل محجاج أي جدل ، وحجه يحجه حجا : غلبه على حجته ، وفي الحديث : فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة >> (4) .

ويقابل هذه اللفظة في الفرنسية لفظة " Argumentation " التي تدل على معاني متقاربة أبرزها حسب قاموس " روبير Petit Robert " :

- القيام باستعمال الحجج .

---

1. Jean Michel Adam , les textes : types et prototypes .nathan , paris , 1992
2. المرجع نفسه ، ينظر المقدمة .
3. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري) ، عالم الفكر ، مجلة دورية محكمة ، الكويت ، ع1 سبتمبر 2001 ، ص ص : 97 ،98 .

4. ابن منظور ، " **لسان العرب** "، مادة (حجج) ، ص : **570**

- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة (1) .

أما في الإنجليزية فيشير لفظ " **Argue**" إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره ؛ بتقديم الأسباب أو العلل " **Reasons** " التي تكون حجة " **Argument** " مع أو ضد فكرة أو رأي أو سلوك ما (2) . ومن خلال هذه التحديدات المعجمية نجد لفظ الحجاج أو المحاجة متضمنا لدلالة ومعنى مستمدين من طبيعة سياقة أو شرطه التخاطبي المتمثل في : (التخاصم ، والتنازع ، والجدل ، والغلبة ، **[...]**) ؛ أي بمعناه الفكري والتواصلي .

و هذا التتبع المعجمي لهذا اللفظ ، يدفعنا إلى محاولة تتبعه اصطلاحيا قديما وحديثا في الدراسات الغربية والعربية معا .

---

1. Petit Robert, Dictionnaire de la langue français, 1er redection , paris , 1990 , P : 99 .
2. Longman , Dictionary of contemporary English , Longman , 1989 .

المبحث الأول :

ماهية الحجاج قديما و حديثا :

أ- **الحجاج في الفكر الغربي و العربي قديما .**

ب- **الحجاج في الفكر الغربي و العربي حديثا .**

1- المبحث الأول: ماهية الحجاج قديما وحديثا :

اندرج الحجاج قديما في ما يسمى بالبلاغة ، والخطابة ، وفن الإقناع ، وكثيرا ما ورد في الثقافتين الغربية والعربية بمعنى الجدل ، و التناظر ، والإلقاء ، وما إلى ذلك ، انطلاقا من مؤلفات اليونان إلى أهم ما ورد عند العرب في هذا الشأن .

أ- الحجاج في الفكر الغربي و العربي قديما :

1- الحجاج في الفكر الغربي القديم :

- عند " أرسطو " :

كان اهتمام اليونانيين القدامى منصبا على فنون الكلام ، ولا سيما الخطابة والشعر منها ، ولذلك نجد منهم من نظر لهما ، و أرسى قواعد هما الفنية والعقلية التي صارت فيما بعد منهجا اتبعه من جاء بعدهم من العلماء يونانا كانوا أو عربا .

وكان " أرسطو " ممن نظر للفنّين معا ، وانطلق في تنظيره للخطابة مما وضعه " سقراط " ؛ حيث جعل لها خطتين : جدلية ونفسية . ورأى أنه لابد للخطابة الجدلية من أمرين : التركيب الذي يجمع به الخطيب نواحي الفكرة المتفرقة ليتمكن من تحديد الكلام ، والتحليل الذي يرد الفكرة إلى آراء جزئية ، وسمأصحاب القدرة على التركيب والتحليل (جدليين) ، فالخطابة عنده نوع من الجدل ، أو هي الجدل بعينه (1).

بينما ربط " أرسطو " بين خاصة الكلام و التعبير عند الإنسان وبين الإقناع : << فالإنسان لأنه متكلم معبر يبحث بطبعه عن الإقناع ، ويحاوله ، ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدة من التفكير الذي حوبي به من الطبيعة >> (2) .

ويجد أن الخطابة والجدل متصلان ببعضهما ، ويتحدان في موضوعا تهما << لأنها أمور يمارسها كل الناس و يعرفونها في صورها المتحدة في الأقل >> (3) ، وفي سبل اللجوء إليهما ؛ << إن كل الناس يلجئون للخطابة والجدل بدرجات متفاوتة ، وكل إنسان يحاول ما أمكنه الجهد أن يعارض حجة من الحجج أو يدعمها >>(4) ويميز منهجهما ومهمتهما " بالالتجاء إلى العكس (عكس القضايا) ، فهما

1- أرسططاليس ، كتاب الخطابة ، ترجمة : إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ط2 ، 1953 م،ص ص : 22 ،23 .

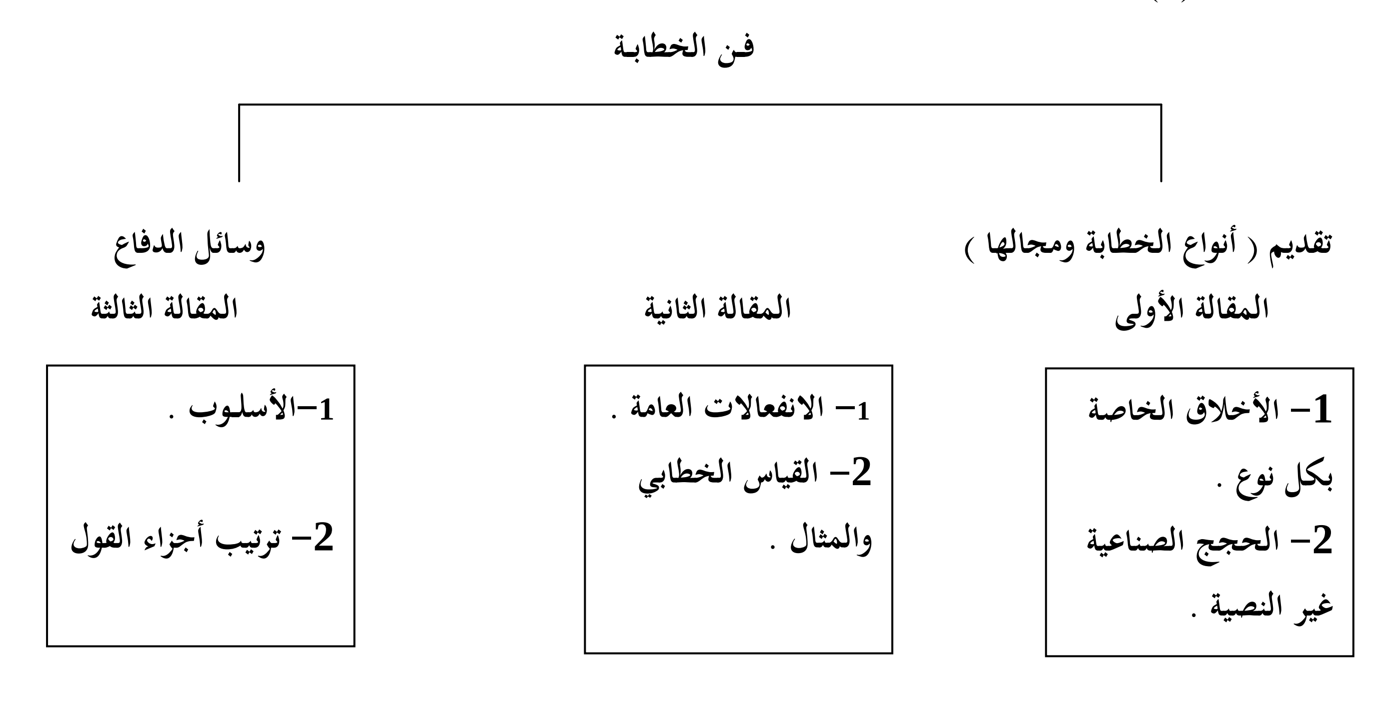
2- ا نفسه ، ص : 24 .

3- نفسه ، ص : 75 .

4- نفسه ، ص : 75 .

يفترضان وجود الأضداد ، [...] بمعونة القياس المنطقي ، [...] ، فمهمتهما ليست في الإقناع الضروري بقدر ما هي في كشف المقنعات >> (1) ، و في هذا تركيز على الحجج لذاتها كوسيلة للإقناع .

و قد أعطى "أر سطو " في درسه للخطابة اهتماما كبيرا لجانبها العقلي والنفسي ، محاولا الموازنة بين وسائل الإقناع ووسائل التأثير ، بجعل الأولى معينة للثانية ، فميز أول الأمر بين نوعين من الحجج (الأدلة) ، الأدلة غير المصنوعة << التي لا دخل لنا فيها لأنها سابقة على تصرفاتنا : مثل الشهود في القضية والتعذيب ، والاتفاقات المكتوبة ، وغير ذلك >> (2) . والأدلة المصنوعة : << وهي كل ما يمكننا جمعه بأنفسنا على هدى المنهج الموضوع >> (3) . وهذه الأدلة المصنوعة التي يسميها (التصديقات) هي جوهر الخطابة لديه ، وتقوم على ثلاثة أنواع << ... ما يتصل بأخلاق الخطيب نفسه ، وما يتصل باستعداد السامعين ، وما يتصل بالخطبة نفسها إذا كانت استدلالية في حقيقتها أو في ظاهرها >> (4) . فكان النوع الثالث ما يسمى بالاستدلال المنطقي ، و هو وثيق الصلة بالحجاج الآن ، كونه خاصا بالحجة نفسها ، وبتحقيق الاستمالة و التأثير بالقول (5) . وقد مثل " محمد العمري " لمكونات الخطابة عند " أر سطو " كخطاب إقناعي بهذه الخطاطة : (6)



---

1) أرسطاليس ، نفسه ، ص : 80 .
2) نفسه ، ص : 84 .
3) نفسه ، ص : 84 .
4) نفسه ، ص ص : 84 ، 85 .
5) جميل عبد المجيد ، البلاغة والاتصال ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، دط ، 2000 م ، ص : 109 .

6) محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وإمداداتها ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، دط ، 1999 م ، ص : 272 .

وكان " أرسطو " بهذا النموذج المثال الذي انبنت عليه فيما بعد أهم نتاجات العرب البلاغية والفلسفية التي نظرت للخطابة خاصة كميدان أمثل لتوافر عناصر الحجاج ومكونات الخطاب الإقناعي عموما .

2- الحجاج في الفكر العربي القديم :

أولى العرب قديما – ولا سيما بلاغيوهم – الكلام والتخاطب عناية كبيرة ، فعمدوا إلى تقسيم وجوه الكلام ومناسباته وصفته تناسبا مع متلقيه أيا كان ، ومهما كانت طبقته ، << فإذا كان موضوع الكلام على الإفهام [...] فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوقة والبدوي بكلام البدو [...] ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلا إلى مالا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام ، وتعدم منفعة الخطاب >> (1) . وصنف كل هذا ضمن البلاغة أو بلاغة الخطاب التي تضم الشعر و النثر معا .

و قد ورد الحجاج – بمعناه الحديث – قديما بتسميات اختلفت باختلاف مطلقيها وتوجهاتهم ، فنجده عند "الجاحظ " و هو من أكثر علماء العرب اهتماما ببلاغة الكلام والمخاطبات باسم : " البيان " الذي يلخصه في قوله : << مدار الأمر و الغاية التي إليها يجري القائل و السامع إنما هو الفهم و الإفهام . فبأي شيء بلغت الأفهام و أوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع >> (2) . فما خرج بقوله عن معنيين اثنين للبيان هما : الإفهام والإقناع .

أما الإفهام فإيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر ، و الإقناع ناتج عن مجموع مؤهلات وصفات انتقاها " محمد العمري " من كتاب " الجاحظ " : ((البيان والتبيين)) ، وصنفها في هذا الجدول :

---

1. أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1989 م ، ص : 39 .

2. الجاحظ ، **البيان والتبيين** ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1992 م ، ص : 82 .

المؤهلات والعوائق		صفات البيان وموضوعه		الغرض
المؤهلات	**العوائق**	**الصفات**	**الموضوع**	**التأثير**
المنطق	العي	الإبلاغ	الدعوة إلى مقالة	استمالة القلوب
الأحلام	الحصر	الإبانة	الدفاع عن نحلة	ثني الإقناع
العقول	ضيق الصدر	الإفصاح	إبلاغ الرسالة	التصديق
الدهاء	توقف اللسان	الفصاحة	الحجة	ميل الأعناق
المكر	اللثغ	الوضوح	الحاجة	فهم العقول
الألسنة		الصحة	المنازعة	إسراع النفوس
النكراء		البيان		الاستمالة
التمييز		حسن التفصيل		الاضطرار
السياسة		الإيضاح		التحريك
لباس التقوى		وضوح الدلالة		حل الحيرة
طابع النبوة		الإفهام		
		الفهم		
		الاحتجاج		
		الإبانة		(1)

1. محمد العمري ، **البلاغة العربية أصولها وإمداداتها** ، ص ص : 198 ، 199 .

ثم اختصر البيان بمعنييه الإفهام والإقناع في هذا المخطط : (1) .

البيان عند الجاحظ



وظيفة البيان وقيمته	طرفا العملية البيانية (الخطابية)	البيان العربي قيمته و تاريخه

طبيعة البيان	قيمة البيان
من خلال تعريفه (الفهم و الإفهام و التأثير) يمكن عزل مثال للتأثير بالرجوع إلى وظيفة الرموز و الإشارات (الأزياء مثلا) في كتاب العصا (في الجزء الثالث من البيان) .	هذا هو الموضوع الذي بدأ به المؤلف متناولا مساويء العي ، وذلك قبل أن يعرف البيان ، و يبين أنواع الدلالات على المعاني .يضاف إلى ذلك الدفاع عن الخطبة و كل ما يتصل بها من وسائل إشارية كما في باب العصا .

الدفاع عن البيان	التأريخ للبيان العربي
العربي و تقاليده في مواجهة قدح الشعوبية . 2-تبريء البيان من قيم المتزمتين .	1-أخبار الخطباء . 2-المتن الخطابي العربي ، أو ثقافة الخطيب . توفير المعاني و الحجج .

أنواع الأدلة على المعاني

المقام الخطابي (أحوال المخاطبين)

اللغة: النص و المشافهة	الإشارة (الإشارة القصدية)	النصبة (أو الاعتبار) (الإشارة غير القصدية)	الخط	العقد

الإشارة الملتبسة

(الإشارة البشرية غير صريحة القصد)

1. محمد العمري ، السابق ، ص : 193 .

أما " ابن وهب " فيجعل " الاحتجاج " نوعا من أنواع النثر على سبيل التصنيف : << فأما المنثور فليس يخلو أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا ، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه >> (1) ، وموضع الاحتجاج عنده في : << الاحتجاج على من زاغ من أهل الأطراف >> (2) ، ثم يضعه تحت اسم "الجدل " ، ويوظفه ضمن تعريفه إياه : << وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه من اعتقاد المتجادلين ، ويستعمل في المذاهب ، والديانات ، وفي الحقوق ، والخصومات ، والتسول في الاعتذارات ، ويدخل في الشعر وفي النثر >> (3) . ثم يشرع في تصنيفه وتقسيمه أخلاقيا – على غرار تقسيمات " أرسطو " الخطابية – إلى جدل محمود وأخر مذموم ، << فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق و يستعمل فيه الصدق ، وأما المذموم فما أريد به المماراة و والغلبة و طلب به الرياء و السمعة >> (4).

.وأضاف إلى هذا بيان قيمة الاحتجاج وإقامة الحجة عند ذوي الرأي العلماء ، << وقد أجمعت العلماء وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجته وبين عن حقه ، واستنقاص من عجز عن إيضاح حقه وقصر عن القيام بحجته >> (5) . وهذا لا يختلف كثيرا عن معنى البيان الذي قصد إليه " الجاحظ " .

ولا يختلف الأمر كثيرا عند " ابن خلدون " ، الذي كان دقيقا في تعريفه للجدل ، بل لقد عرفه وظيفيا ، وجعل الاحتجاج وجها من وجوهه في قوله : << وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا ، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ...>>. (6)

فعده القاعدة التي تتضمن أصول المناظرة و آدابها وأحوال المتناظرين و الأحكام التي يجب أن يراعوها في احتجاجا تهم و أخذهم وردهم ، وصاغ له تعريفا دقيقا أخيرا : << ولذلك قيل إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب ، في الاستدلال ، التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه ، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره >> (7) .

---

1. أبو الحسن إسحاق بن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تقديم وتحقيق : جفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة ، عابدين ، مصر ، د ط ، د ت ط ، ص : 150 .
2. نفسه ، ص : 150 .
3. نفسه ، ص : 176 .
4. نفسه ، ص : 177 .
6. ابن خلدون ، المقدمة ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1961 م ، ص : 820 .

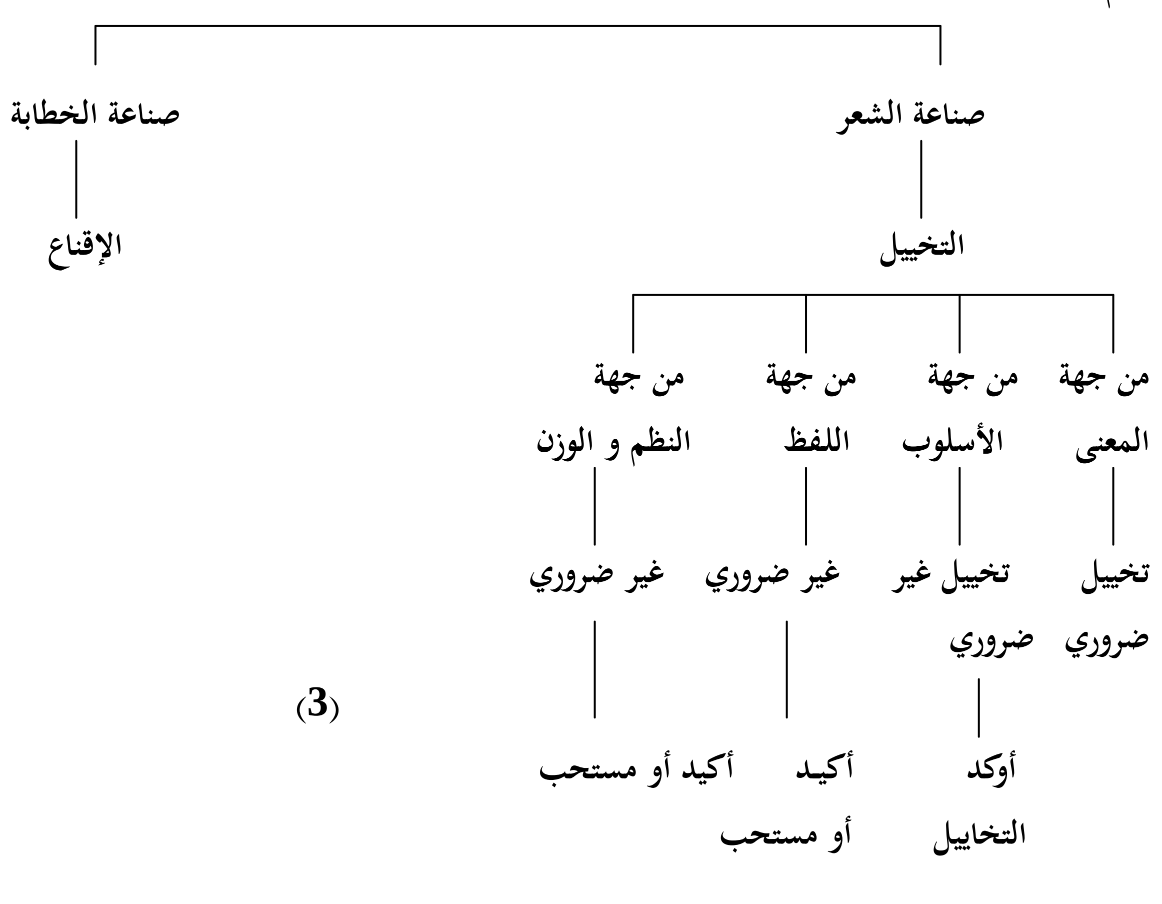
7 . ابن خلدون ، نفسه ، ص ص : 820 ، 821 .

كما جعل الحجاج كذلك من تقنيات علم الكلام << وهو يتضمن الحجاج عن العقائد والإيمانية بالأدلة العقلية >> (1) .

فنجد أن كلا من " ابن وهب " و " ابن خلدون " يجعلان الحجاج آلة من آلات الجدل ، وجزءا منه ، لكن آراءهم ليست بعيدة في دلالاتها عمن أوردوا الحجاج كوجه من أوجه الكلام وأجناسه ، كما يذهب إلى ذلك " حازم القرطاجني " في قوله : << لما كان كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب إما أن يرد على جهة الإخبار أو الاقتصاص ، و إما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال ... >> (2) .ومفردتا " الاحتجاج " و "الاستدلال" كمفردة "الإقناع " .

و " الإقناع " في مناهج الدراسة الأدابية عند "حازم القرطاجني " ركيزة للخطابة في مقابل التخييل في الشعر ، و يبين ذلك الشكل التالي :

علم البلاغة



---

1) ابن خلدون ، السابق ، ص : 821 .

2) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تونس ، دط ، 1966 م ، ص : 62 .

3) عمر أوكان ، اللغة والخطاب ، افريقيا الشرق ، المغرب ، دط ، 2001 م ص : 118

ويصنفه * أبو هلال العسكري * ضمن الأجناس الكلامية كذلك : << وهدا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين [....] ، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الإستشهاد على الأول والحجة على صحته >> (1) .

فالحجاج في الفكر العربي الإسلامي القديم انحصر في لونين خطابيين ، هما : << خطابة الجدل والمناظرة فيما بين زعماء الملل والنحل ، وفيما بين النحاة والمناطق ، وفيما بين الفلاسفة والمتكلمين . والخطابة التعليمية متمثلة في الدروس التي كان يلقيها العلماء في مختلف العلوم آنذاك >> (2) .

و تجسدت فاعليتها عموما في التأثير و الإقناع ، وعلى النصين (الخطبة و القصيدة) ، كما لم تتخطّ النص الثالث (القرآن الكريم) << الذي استقطب اهتمام البلاغيين العرب ، كان في كثير من آياته ذا طبيعة خطابية ، وخطابية جدلية على نحو خاص ، فما أكثر الوقائع الجدلية الواردة في القرآن الكريم ، وما أكثر الحجج المنطقية

أو المعقولة التي تقيمها لنفي ما تنفيه أو إثبات ما تثبته >> (3) . فقد << سلك القرآن الكريم في محاجة الكافرين و أهل الكتاب سبيل العقل والوجدان (...) ، متخذا المشاهد الكونية والشواهد التاريخية والوقائع المألوفة براهين متنوعة ، تقنع وتستهيل ، و تأخذ عليهم باب العناد و المكابرة ، (...) ومن ثم صاغ هذه البراهين في أساليب إخبارية وإنشائية ، وتقريرية وتصويرية ، فحاور وقطع بالرأي ، وأوحى وجهر بالحق ، ووعد وتوعد ، وربط بين الماضي البعيد والمستقبل البعيد ، وجعل الزمن كله حاضرا ، (...) ، الفطرة حجة ، والتقليد حجة ، المادة دليل و الروح دليل ، (...) ، النفس في سموها وانحطاطها برهان ، والعالم في سره وعلنه كتاب مفتوح ينطق بوحدانية الخالق سبحانه >> (4) .

وزاد " الشاطبي " في كتابه : ((الموافقات)) على ما سبق بأن تناول بعض الظواهر العامة لأسلوب القرآن في الاحتجاج ، منها : احتجاجه على الكفار بالعموميات العقلية والعموميات المتفق عليها ، كقوله تعالى :

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾

، فاحتج عليهم بإقرارهم بأن ذلك على العموم ،وجعلهم – إذ أقروا بالربوبية لله في الكل ، ثم دعواهم الخصوص – مسحورين ، لا عقلاء ، (...) ، وقوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللهَ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (5)

، (...) ، وأشباه ذلك مما ألزموا أنفسهم فيه بالإقرار بعمومه ، وجعل خلاف ظاهره على خلاف المعقول .

---

1. أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص : 470 .
2. جميل عبد المجيد ، البلاغة والإتصال ، ص : 126 .

3. نفسه ، ص : 128 .

4. كامل علي سعفان ، المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، دط ، 1918 ، ص : 357 .

5. الآية 61 من سورة العنكبوت.

و من أسلوب القرآن في الحجاج كذلك ، ما إذا أجرى الخصم المحتج نفسه مجرى السائل المستفيد حتى ينقطع الخصم بأقرب الطرق ، كما جاء في شأن محاجة إبراهيم عليه السلام قومه بالكوكب والقمر والشمس ، فإنه فرض نفسه بحضرتهم مسترشدا ، حتى يبين لهم من نفسه البرهان ، أنها ليست بآلهة ، وكذلك قوله في الآية الأخرى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) [1] **، فلما سأل عن المعبود سأل عن المعنى الخاص بالمعبود ، بقوله** (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟ ﴾[2]

فحادوا عن الجواب إلى الإقرار بمجرد الإتباع للآباء ، .... (3) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن قولنا : " البلاغة " ، أو " الخطابة " ، هو ترجمة لمصطلح : " Rhétorique " ، و قد امتد الاختلاف في ترجمته إلى أحد المصطلحين إلى الدراسات الحديثة ، << و هذا الانشطار في الترجمة ناتج عن الدلالة المزدوجة لمصطلح الـ " Rhétorique " ؛ إذ هي فن القول وأناقة التعبير من جهة ، كما أنها الكلام الهادف إلى الإقناع من جهد أخرى >> (4) . ومرد ترجمة هذا المصطلح بالخطابة ، هو اهتمامه بإيجاد الحجج ، و هي الوظيفة نفسها التي حددها " أرسطو " لهذا المصطلح ؛ حيث عرف الخطابة بأنها : << الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان >> (5) . وهذا التحديد أدى بالدارسين العرب القدامى إلى تبني مصطلح " الخطابة " كترجمة لـ : " Rhétorique " ، وتبني الإقناع كجانب تداولي فيها : عند " الشريف الجرجاني " : << الخطابة قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة ، من شخص معتقد فيه ، والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم >> ، و " ابن البناء المراكشي " : << الخطاب بأقوال مقبولة يحصل عنها الإقناع >> ، وعند " كمال الدين البحراني " : << صناعة يتكلف فيها الإقناع للجمهور فيما يراد أن يصدقوا به >> ، و يسوق " التهانوي " المعنى ذاته في قوله : << الإقناعي يطلق على الخطابي ، و هو الدليل المركب من المشهورات و المظنونات " ، و يعرف " المناوي " الخطابة بأنها : "قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه ، و الغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم معاشا ومعادا >> (6).

1و2 الآيات (70، 71 ،72 ،73) من سورة الشعراء.

3. كامل علي سعفان ،السابق ،ص:358.

4. عمر أوكان ، اللغة والخطاب ، ص : 10 .
5. أرسطاليس ، كتاب الخطابة ، ص : 74 .
6. عمر أوكان ، نفسه ، ص ص : 100 ، 101 .

كل الجهود العربية القديمة في حقل الدراسات البلاغية التي تدور حول قطب واحدد و هو القول أو الكلام بتنوع أحواله و مقاماته و أداءاته ، كلها اجتمعت على أن الحجاج كمصطلح قديم حديث ، هو الجدل و هو البرهان و الإقناع و التصديق ،... وما إلى ذلك من مصطلحات متعددة . وهو الأمر نفسه الذي ستنطلق منه نظرية البلاغة الجديدة مع "ببرلمان Perlman " و غيره .

ب–الحجاج في الفكر الغربي و العربي حديثا :

1- الحجاج في الفكر الغربي الحديث :

إذا كان الحجاج في الفكر القديم (الغربي و العربي) قد تموضع كآلية يتضمنها نوع معين من الخطابات ، أو خطابات كثيرة و مختلفة ، وإذا كان قد تجسد فيما نسميه بالإستمالة و الإقناع الخطابيين ، فإنه و في الأبحاث

و الكتابات الحديثة صار موضوعا خاصا قائما بذاته ، و يتفاعل مع مجالات خاصة كذلك ، كاللغويات ، والفلسفة ، ... ، << ففي منظور بعض هذه الكتابات نجد الحجاج أو التدليل يشيران إلى ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا ، مهما كان متلقي هذا الخطاب ، ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك >> (1) .

وكان ذلك بمثابة الركيزة التي قامت عليها نظرية الحجاج المعاصرة ، وعند أبرز منظريها :

" شاييم بيرلمان CH . Perelman " ، " ميشال ماير M . Meyer " ، " جان ميشال آدام Jean Michel Adam " ، " رولان بارت R . Barthes ".

أ – الحجاج عند " بيرلمان Perelman " :

جاء "بيرلمان" بما يسمى بـ : ((مدرسة البلاغة البرهانية)) ، التي شكلت المرحلة الأخيرة ، أو المنظور البلاغي المستحدث لتطور البحوث البلاغية في كل الثورة اللسانية الحديثة ، هذه البحوث التي << وحتى عهد قريب –كان ينظر إليها على أنها علم قديم مرتبط بالإفراط من جهة ، وبالكتب المدرسية من جهة أخرى – >> (2) ، وهذا عائد إلى سببين ، سياسي ؛ تمثل في ارتباط البلاغة بجمهور محدد ، الهدف إقناعه ببعض البرامج السياسية لا غير ، فتحولت من فن خطابي إلى فن للفصاحة ، ذي عمق لغوي يوائم بين الشكل والموضوع ، وسبب تربوي ؛ يرمي إلى تبسيط المادة البلاغية لتلائم الطرح المدرسي وأفهام التلاميذ ، وأدى بها

هذا إلى أن صارت جزءا من علوم تحسين الخط والنطق (3).ومنها تبينت الحاجة إلى إعادة قراءة جديدة للبلاغة الكلاسيكية ، لثرائها الفكري ، ولضرورة تدعيمها بمناهج جديدة ، لاسيما اللسانية منها .

---

1. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ((مناصر استقصاء نظري)) ، ص : 99 .

2. محمد سالم ولد محمد الأمين ، مفهوم الحجاج عند ((بيرلمان)) وتطوره في البلاغة المعاصرة ، عالم الفكر ، ع2 ، يناير / مارس ، 2000 م ، ص : 53 .

3. نفسه ، ص : 54 .

لذلك كان " بيرلمان " ، مستحدث مصطلح " البلاغة الجديدة " الذي جاء في عنوان أحد أشهر كتبه عام 1958 م تحت اسم : ((مقال في البرهان : البلاغة الجديدة)) ، ويعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع ،كتقنية خاصة ومتميزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد ، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر >> (1) ، والواضح أن هذا المنطق يرمي إلى الوظيفة التواصلية للغة ، ذات العلاقة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية كون الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان . ثم يصور بلاغة البرهان لديه بتوضيحه لنظرية المحاجة ، التي يرى أ نها << لا يمكن أن تنمو إذا تصورنا أن الدليل البرهاني إنما هو مجرد صيغة مبسطة بديهية ، ولذلك فإن هدف نظرية " البرهان Argumentation " لديه هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدم لهم ، أو تعزيز هذا التأييد على تنوع كثافته >> (2) ، وهو يوجه نظريته إلى العناية بالنصوص المكتوبة في المقام الأول ، مغفلا دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة (تقنيات الخطب الجماهيرية) ، التي تخص جهات أخرى (3) . كما يعنى بالفكرة المستنبطة من الخطاب كإرث بلاغي ، ويجد أن تحليل الحجج البرهانية ذات الطابع العقلي فلسفيا ضروري ، لأنها تتوجه إلى قراء لا يخضعون للإيحاءات والضغوط والمصالح والأهواء (4) ؛ إشارة إلى الكتابة أو التلقي قراءة بعيدا عن الأوضاع الخطابية التي تستوجب وجود المتكلم أو الخطيب عموما . ويتميز الحجاج عند " بيرلمان Pérleman " بخمسة ملامح رئيسية :

1)أن يتوجه إلى مستمع .

2)أن يعبر عنه بلغة طبيعية .

3)مسلماته لا تعد و أن تكون احتمالية .

4)لا يفتقر تقدمه – تناميه – إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة .

5) ليست نتائجه ملزمة (5) .

وبالتالي فالحجاج << عبارة عن تصور معين لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب >> (6) .

---

1) صلاح فصل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم ، المعرفة ، ع164 ، أغسطس ، / آب ، 1992 م ، ص : 73 .

2) المرجع ، نفسه ، ص : 74 .

3) نفسه ، ص : 76 .

4) نفسه ، ص : 76 .

5) محمد سالم ولد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بير لمان " ، ص : 61 .

6) محمد سالم ولد محمد الأمين ، نفسه ، ص : 61 .

ولا يغفل السامع أو المعني بالحجاج ، حيث يعده << السبب الفعلي الذي لولاه لما كان "حجاج " أصلا >>(1) ، وهذا لفاعليته في تشكيل معالم المادة الحجاجية الكبرى التي يقدمها الخطيب أو الكاتب ، وهو "بيرلمان " .باهتمامه بمظاهر التواصل و التجاوب (المكتوب و المنطوق و الإشاري) . يهدف إلى تأسيس بناء فكري عميق تندمج فيه أبعاد المتكلم والسامع و المقام معا بحيث يحمل المنتج الجديد الخصائص الجوهرية لهذه المكونات الثلاثة (2) . وإذا كان الإقناع هو مجال المبحث الحجاجي ، فإن الدفع إلى الفعل هو أهم وظيفة حجاجية في هذا المجال ، حيث تتطلب وعيا بآليات من شأنها تحريك المعنيين بالكلام صوب الفعل و تغييره بما ينسجم مع المقام ، << و تتطلبه مقاصد النص و طموحات الخطيب (المتكلم أو الكاتب) بوصفه مفكرا حاملا لرؤية معينة يسعى إلى إرسالها ، أو جعلها راجحة في مواجهة حجج أخرى مناوئة >> (3) و يتطلب هذا وضوح الأسلوب ، و احترام شخص المخاطب ، لأن ما عداهما ينفر المخاطبين ، و يعوق سبل نفاذ الخطاب ، و هنا يربط "بيرلمان " الحجاج بعوامل لغوية (الوضوح) ، و نفسية اجتماعية (الاحترام ، الوعي بظروف مختلف الأصعدة السياسية و الاجتماعية ،...) . فهذا الربط النفسي خاصة ناتج عن طبيعة الحجاج الذي ليس في النهاية " سوى دراسة لطبيعة العقول ، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها ، و الإصغاء إليها ، و محاولة حيازة انسجامها الإيجابي ، [...] >>(4) ، و عدم توفر هده الأمور سيفقد الحجاج غايته و تأثيره معا .

من هذا نجد أن نظرية الحجاج لدى " بيرلمان " ، ذات مظاهر فلسفية ، لأنها تنطلق من أرضية خطابية ، تتوفر على قواعد فلسفية عميقة صيغت ووضعت منذ أقدم العصور لنجاح عملية الخطابة و حصول التأثير و الإقناع (نظرية أرسطو) ، كما أن " بيرلمان " كذلك ، أولى عناصر الحجاج أهمية خاصة في إنشائه لنظرية الحجاج التي لا تكتفي بالأساليب اللغوية المنشئة فحسب ، بل تولي اهتماما للظروف الخارجية التي تتعلق بكل من المخاطب و المقام خاصة ، بما فيها النفسية و الإجتماعية .

1–محمد سالم ولد محمد الأمين ،مفهوم الحجاج عند ((بيرلمان)) ،ص:.61

2–نفسه ،ص:63 .

3–نفسه ،ص:.67

4–نفسه ،ص:68.

– ب– الحجاج عند " رولان بارث R.Barthes ":

لم يتبلور الحجاج عند "بارث Barthes" في كتابه : ((قراءة جديدة للبلاغة القديمة)) كموضوع قائم بذاته ، و إنما كآلية بلاغية رئيسية تتبعها تاريخيا ، و ركز على أصولها الأرسطية .وما تلا ذلك من دراسات و نظريات "شيشرون "و "كنتليان " ، و يشير إلى تراجع البلاغة و اختزالها في (نظرية الصياغة) ، التي حصرتها في : البحث في الصور ، و الوجوه ، و الزخارف ، أو الأسلوب عموما .و هذا الإختزال جنى على البلاغة ، أو على جانبها التداولي المرتبط بـ: (نظرية الإقناع) المعبر عنها بـ: (المحاججة) و (المخاصمة) و (المجادلة) ، و (المنازعة) ، و (المناقشة) ، و (المحاورة) ، و (المناظرة) ، وغيرها .

وبما أن قاعدة البلاغة هو الكلام ، شأنها في ذلك شأن فن الإقناع ، فهذا يجعلها لسانيات (ذهنية) عامة ، (تتعلق بكل اللغة) ، كما أنها (لغة الكل) ، أو هي صبغة تداولية منحها إياها " أرسطو " منذ أن فصل بين الشعرية و البلاغة ، و جعل الصياغة هامشية في مقابل الترتيب (أجزاء الخطاب) و الإبتكار (موضع الحجج).

و الوظيفة الإقناعية للبلاغة تجعل من التواصل معركة ، تستوجب لكسبها حيازة الإمكانات الفكرية للمتكلم : (الدليل ، الحجة ، العلامة ، الأمارة ، القياس ، المحتمل ، الاستدلال ، [...]) ، و العاطفية : (التحريك ، التهييج ، الإنفعال ، الأحاسيس ، العواطف ، الطبائع ، [...]) ، و اللغوية : (الوضوح ، الدقة ، السلامة ، الصور ، الأساليب ، الوجوه ، الزخارف ، [...]) ، و بالتالي فالبلاغة ليست جمالية للغة بقدر كونها فلسفة للتفكير و ثقافة المجتمع ، [...] ، أسلوبية الحوار ، و مثال العقل البشري عموما . لفظ البلاغة بهذا يمتلك دلالة مزدوجة : فهي أداة محاججة ، وسيلة تفكير ، تقنية للإقناع ، إضافة إلى كونها فن للقول ، جودة الحديث (و الكتابة فيما بعد) (1) .

الحجاج أو المحاججة في مصنف " بارث " المذكور ، ينطلق من التقسيمات القديمة للبلاغة ، ليصيغها فيما بعد بمصطلحات حديثة توافق النظريات اللغوية الحديثة كذلك ، و هو بهذا يعيد صياغة البلاغة القديمة فيما يسمى بالبلاغة الجديدة ، غير بعيد عن "بيرلمان" ، لكنه كان أقل دقة ، و لنقل أقل تركيزا على الحجاج كموضوع و إن لم يهمله كعملية أساسية ضمن مجموع عمليات بلاغية تطرق إليها .

يطلق "بارث" مصطلح (الإبتكار) على المحاججة ، أو ما يسميه (ابتكار الحجج) ، أو (طريق المحاججة) ؛

أي العثور الشيء الموجود مسبقا ، فهو مفهوم (استخلاصي) أكثر مما هو إبداعي ، و تحدد هذا الابتكار جهتان : الأولى : تعتمد التقنية الجيدة ، أو المنهج ، منهجة الحجاجية مع المادة لجلب محتوى خطاب رائع .

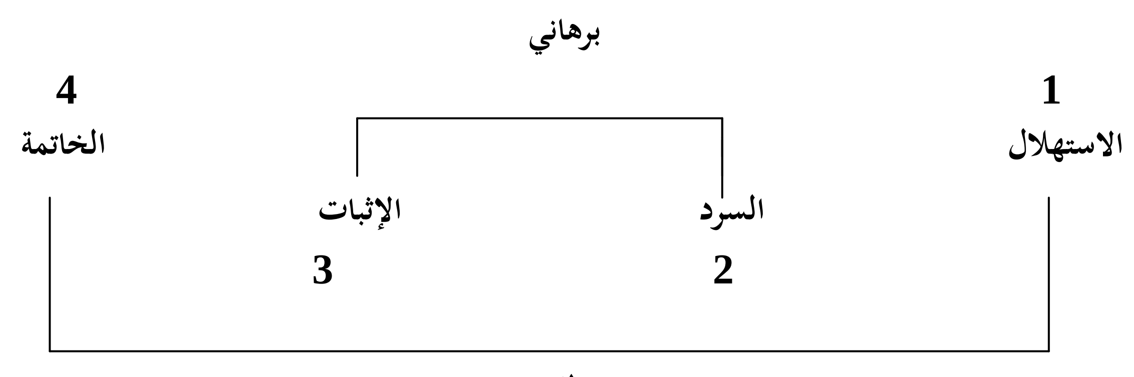
أما الثانية : غياب الابتكار كتقنية لتوليد اللغة (الكلام) ، أو اللامنهجية لا تجدي شيئا ، و هذا الإبتكار يتفرع عنه طريقان أساسان : الأول منطقي ، والآخر نفسي (الإقناع و التحريك) ، وهذا الإقناع يعتمد آلية منطقية أو شبه منطقية هي : التصديق (مجال (الأدلة)) ، لإحداث هزة أو ردة فعل تتناسب و ذهن المتلقي(2) .

1-رولان بارث ، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة : عمر أوكان ،إفريقيا الشرق ،المغرب ،ط1 ،1994م، ينظر المقدمة .

2-نفسه ، ص ص : 49 ، 50 .

و من الابتكار ينتقل إلى (الترتيب) ؛ أي الخطاب ذاته أو نظام أجزاء الخطاب ، ثم علاقته بالابتكار (المحاججة)،ويجد أن مواد الابتكار مسبقا (قطع لغوية) ، موضوعة في حالة معكوسة ، و يجب إدماجها في نظام غير معكوس ، الذي هو اتجاه الخطاب ، أو ترتيب بذور التصديقات (الأدلة) مسبقا في السرد (حصر المعنى)

ثم تأتي الحجج لاحقا . ثم يمثل لعملية الترتيب بعنصرين أو مصطلحين : (استدعاء الأحاسيس) : الاستهلال و الخاتمة كجزء ين خارجيين للخطاب ، أما المصطلح الثاني : (الدعوة إلى الحدث ، إلى الدليل) فيغطي السرد (علاقة الأحداث) و الإثبات (مؤسسة الأدلة أو طرق الإقناع) ، أو الجزء ين المتوسطين للخطاب :



حيث يحتوي الجزء العاطفي ، الجزء البرهاني (1)

و تأخذ هذه العناصر عند "بارث" معان محددة مصقولة مستقاة من البلاغة القديمة و مهذبة بفعل آليات المعارف الحديثة التي تشكل هذه العناصر جزءا أو مركبا من مركباتها :

1- الاستهلال :

أو الاستهواء برفق ، أو إغواء المتلقين ، و يتعلق بسرعة الاستمالة ، و هو من أكثر العناصر استقرارا ضمن النسق البلاغي ، دقيق النمط يتراوح حسب علاقة القضية أو الطرح بالاعتقاد الشائع .

2- الخاتمة :

أو هي ما يجب أن يدل على النهاية ، و هي تتضمن مستويين :

أ- مستوى الأشياء (وضع استرجاعي) ؛ أي التلخيص .

ب- مستوى الأحاسيس (وضع تأثري) ، أو الخلاصة المثيرة للعاطفة أيا كانت .

---

1. رولان بارث ، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ص ص : 70 ، 71 .

3- السرد :

و لا يقصد به القص ، و إنما هو تقديم حجاجي ، يستلزم الشفافية ، و الإحتمال ، و الإيجاز ، كما تتبدى وظيفته في أنه تهييء للمحاجة ، و يستحسن فيه خفاء المعنى ، و توزيع الأدلة على شكل (بذور التصديقات) ، كما يتضمن السرد نمطين في العناصر : الأحداث و الأوصاف .

4 - الإثبات :

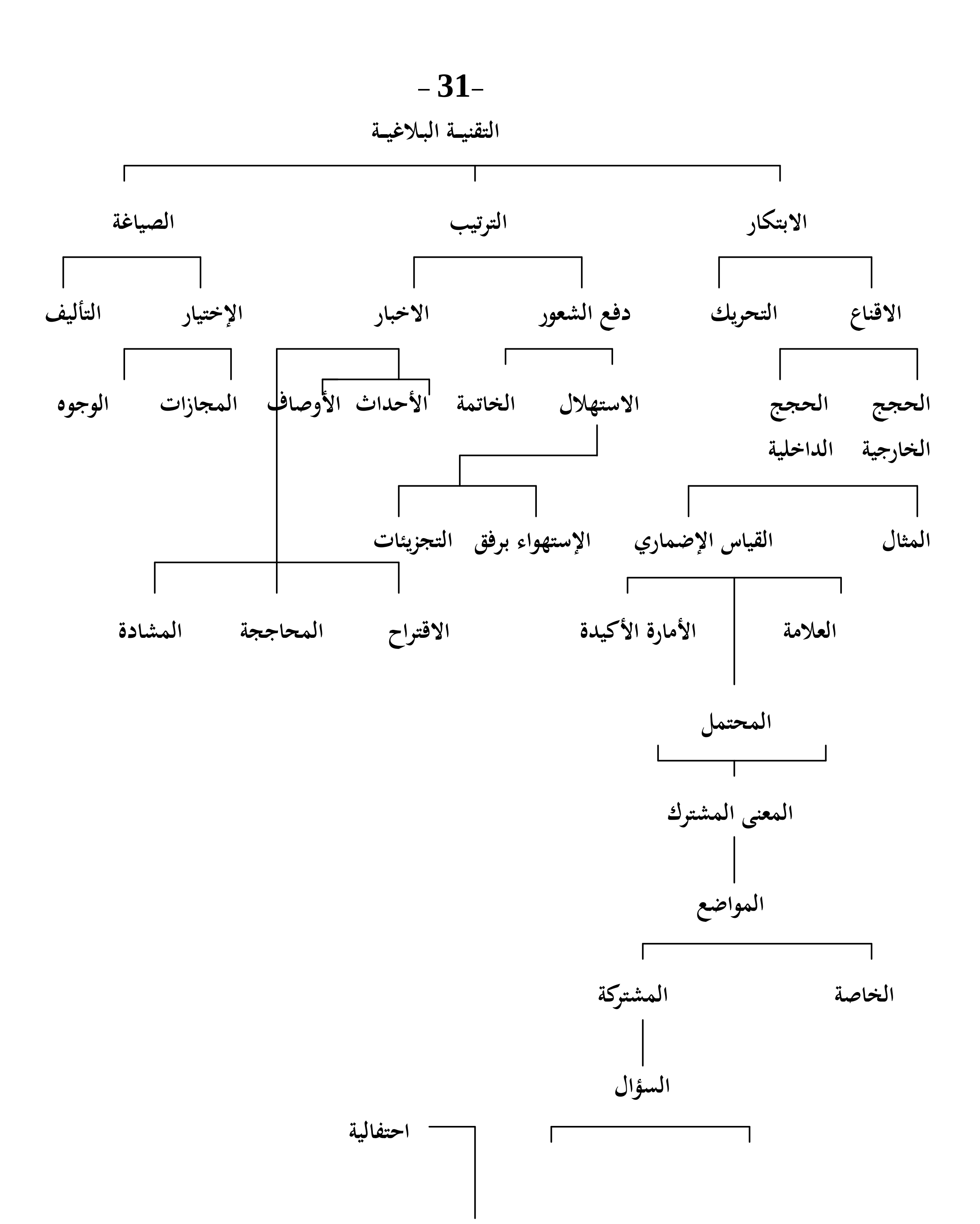
و هو عرض الحجج ، ويتضمن :

أ. الاقتراح (التصدير) : تحديد ملتقط من القضية بهدف المجادلة .

ب. المحاجة : وهي عرض الأدلة المحتملة ، وتتطلب : البدء بالأدلة القوية ، وإتباعها بالأدلة الضعيفة ، والانتهاء بالأدلة الأكثر قوة (1) .

وهو يجمع كل العناصر المذكورة مسبقا في مخطط (الشجرة البلاغية) :

1. ورلان بارث ، السابق ، ص ص : 73 ، 74 ، 75 ، 76 .



الأطروحة   الفرضية – القضية ——— قضائية ——— حالات القضايا ——— المجادلة (1)

——— استشارية

1- رولان بارث ، السابق ، ص ص : 85 .

ج– الحجاج عند "جان ميشال آدم Jean Michel Adem" :

يفـرق " آدام Adem " بيـن " الوحـدة الحجاجيـة " أو " المقطـع الحجاجـي La Séquence Argumentative " ، والحجاج عامة ، ويمضي في تعريف الحجاج (التعريف العام) سواء على مستوى الخطاب أو التفاعل الاجتماعي ، أو على مستوى البنية التداولية ، فهو يهدف إلى تغيير تصور المخاطب بقصد هدف خطابي معطى ، أو هو سعي لإعطاء آراء أو تصورات للمخاطب تتعلق بالموضوع المعطى ، وبعبارة أخرى : إننا نتكلم لكي نحاجج ، وهذه القصدية توضحت عن طريق وحدات أخرى إضافة إلى القيمة الوصفية – الإخبارية للغة (1) . ويعرفه أخيرا بقوله : << أن الخطاب الحجاجي موجه للتأثير على آراء
وسلوكات المخاطب أو المستمع وذلك بجعل أي قول مدعم صالحا أو مقبولا (النتيجة) و ذلك بمختلف الوسائل ، بالنظر لقول آخر (الحجة ، المعطاة ، الأسباب) . و على سبيل التعريف نقول أن المعطاة – الحجة تهدف إلى إثبات أو نقض قضية .>> (2)

و يمكن التمثيل للدفاع عن أطروحة (معطاة) بالحجج بهذا الشكل :

الأطروحة القديمة + مقدمة (المعطيات) ◄------ الحجج. ◄-------- النتيجة (الأطروحة الجديدة) (3)

Thèse Antérieure + Donnés Prémisses ⟶ Etayage des inférences ⟶ Donc probablement ⟶ Conclusion Nouvelle Thèse

↑

à moins que Restriction

---

1. J . M . Adam . les texte : types et prototypes . P : 103 .
2. نفسه ، ص : 104 .
3. نفسه ، ص : 118 .

د– الحجاج عند " ألان بواسينو Alain Boissinot " :

في كتابه : ((النصوص الحجاجية Les texte Argumentatifs)) ، يتبنى " بواسينو " آراء " بير لمان " ، خاصة في تعريفه للنص الحجاجي من وجهة نظر تعليمية وفق نظرة "بير لمان " :

– لا يختصر النص الحجاجي في نموذج البرهنة المنطقية رغم استعمالها لبعض وسائلها .

– يعتبر النص الحجاجي مركز حوار بين المتلقين (يركز على العلاقة مع الآخر) .

كما اعتمد في تصنيفه لأنواع النصوص على التمييز الذي قام به " إ . ويرلايك " بين خمسة أنواع : النص الوصفي ، والسردي ، والعرضي ، والحجاجي، والأمري ، وطورها فيما بعد مع " كومبيت Combettes " ، ويجد أن النص الحجاجي مثل النص السردي يمر من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية بواسطة مسار تحويلي ، يمر أيضا من مرحلة التفكير الأولى (الأطروحة ، المعطاة المرفوضة) إلى مرحلة التفكير النهائي (الأطروحة المقترحة) بواسطة مسار حجاجي . ويتميز النص الحجاجي عن النصين السردي و الوصفي بخاصيته الحوارية .

وخصوصية النص الحجاجي تتيح استخراج عدة نمادج نصية منه :

1. النصوص الحجاجية المختلطة : وهي نصوص متفجرة (المقال الصحافي) .
2. النصوص الحجاجية محكمة البناء : وهي عدة نماذج :

أ. نصوص ذات توجه برهاني : كثرة الروابط المنطقية – الاستقراء – الاستنتاج ، القياس .

ب. نصوص ذات توجه عرضي:نموذج قريب من النصوص العرضية ، ويركز على مدى سير الخبر في النص .

ج. نصوص ذات توجه حواري : طابع جدلي ، تتبع مختلف الأصوات والسمات القولية (Traits énonciatifs) .

	النص الحجاجي	النصوص الحجاجية الأكثر إحكاما		
	النموذج 1	النموذج 2	النموذج 3	النموذج 4

توجه حواري	توحه عرضي	توجه برهاني		
حوار حجاجي للأصوات الموجودة (دحض ، تنازل ، تهكم ....إلخ) .	حياد ظاهري الاعتماد على المعلومات (الخبر)	بناء و مسار منطقي	كتابة متفجرة استطراد انسجام سطحي	الخصائص الأساسية
دراسة النظام القولي **Systeme énonciatif**	مسار المعلومة (الموضوعات ، المحمولات)	إجراءات الإستدلال ، الروابط المنطقية	//	وسائل التحليل الأساسية

وهذه الخصائص العامة للنصوص تحدد لها شبكة قراءة خاصة بها ، تعتمد في الأساس على البحث عن القرائن النصية التي تقدم بتحليلها فرضيات التفسير الأولية ، وتصنف هذه القرائن في مجالات ثلاثة كبرى :

1–قرائن القول Les indices de l'enonciation : تظهر و ضعية المحاج بالنسبة للقول على مستوى اللغة ؛ أي مستوى السمات الذاتية ،كأسماء الإشارة ، نظام الزمن ، علامات التحديد الزمني (هنا) و (الآن) ... ، والسمات الدالة على مدى توافق صاحب القول (المتلفظ) بمضامين الأقوال .

2–قرائن التنظيم Les indices de l'organisation : تعين على معرفة الأطروحات ومدى تناسق الحجج ، من الناحية الخارجية تقديم النص : (العناوين الخط ....إلخ) ، أو تتبع السير الموضوعاتي في النصوص العرضية ، والترابط الحجاجية (أو المنطقية) في النموذج البرهاني وكل ما يدل على المناحي الحجاجية .

3–قرائن المعجم Les indices de lescique : تتمثل في مراعاة التقابل في وجهات النظر وما ينتج عنه من مفردات متضادة لكونها تعكس تضادا في الأطروحات . وبالنسبة للنص الحجاجي ، فهو ينسب مفردات التّمعن والملاحظة الصّارمة والأدلة الإحصائية للأطروحة المقترحة ، بينما يربط الأطروحة المرفوضة بكل ماله علاقة بالوهم والظن ، ... .

التنظيم Organisation	المعجم Lescique	القولية Enonciation	ملاحظة النص
ما هي العناصر التي تدل على تنظيم النص ؟	على أي حقول معجمية متناقضة يحيل النص ؟	ما هي الأقطاب القولية الحاضرة ؟	
التقديم الشكلي (الخط والعلامة والنقط) ، السير الموضوعاتي . *– الروابط الحجاجية .*	هل يمكن الوقوف في النص على شبكات دلالية متقابلة ؟	هل هناك تخصصات تبرز أولا وجهة نظر معينة ؟	

			– *الوسائل البلاغية .*
دينامية النص		كيف تتوزع مختلف القرائن؟ هل هناك تطورات تعلمنا عن سير النص ؟	
الدورة الحجاجية		– ماهي الأطروحات ؟ - هل هي مصوغة صراحة ؟ أين ؟ - ما هي مختلف الحجج ؟ – تنتمي لأي أطروحة ؟ – ما هي صفة تناسقها ؟	

وتتجلى أهمية هذه القرينة أو تلك حسب النموذج الحجاجي المهمين (1) .

2– الحجاج في الفكر العربي الحديث :

لم تطالعنا الدراسات العربية الحديثة بآراء مختلفة عن آراء الدارسين الغرب ، بل لم تتعد العرض والتفسير ، وإن اختلفت ؛ إنما تختلف في التطبيقات التي تتباين بتباين النصوص ، خاصة منها : القرآنية ، والتراثية ، ....

لكننا قد نواجه ونجد وجهات نظر تحددها زاوية المعالجة التي ينطلق منها الدرس ،كالفلسفة ؛ لا سيما عند " طه عبد الرحمن " ، أو البلاغة القديمة (الخطابة) عند " محمد العمري " وغيرهم من الدارسين .

أ–الحجاج عند " طه عبد الرّحمن " :

تمتاز نظرته للحجاج بطابعها الفلسفي ،كونه أستاذا للمنطق وفلسفة اللغة من جهة ، ولاتكائه على أصول تعتمد الفلسفة والمنطق كالمؤلفات العربية القديمة ، والغربية القديمة والحديثة من جهة أخرى ، ولأن هذا النّوع من الخطابات لابد وأن يكون فلسفيا قبل كل شيء مادام يتعلق بالكلام والخطاب عموما .

في كتابه ((اللسان والميزان أو التكوثر العقلي)) ، يضع " طه عبد الرحمن " نظرية للحجاج انطلاقا من كونه صفة للخطابة : << إن الأصل في تكوثر الخطابة هو صفته الحجاجيّة ، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج >> (2) ، ومن هنا ينطلق في تعريف الخطاب تعريفا خاصا ينبني على قصدين معرفيين هما : " قصد الادعاء " و " قصد الاعتراض " . أما قصد الادعاء فهو : << الاعتقاد الصريح للخطاب لما يقول من نفسه وتمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة ، إذن فالمدعي هو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله >> (3) . وقصد الاعتراض ، يكون من المخاطب أو المنطوق له ،<< وهو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي >> . ومن هنا يصح أن يكون المنطوق به خطابا حقا ؛ أي بتوفر الإدعاء والاعتراض ، أو الحجاج الذي يعرفه بقوله : << إذ حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها >> (4) ويسميه كذلك العلاقة الاستدلالية البانية لحقيقة الخطاب .

1. الحواس مسعودي ، **النصوص الحجاجية** ، مجلة اللغة و الأدب ، ع14 ، ديسمبر 1999 م ، ص ص : 275 ، 278 ، 279 283

طه عبد الرحمن ، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي** ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 1998 م ، ص : 213 .

التكوثر : كل تكوثر تكاثر وليس العكس ، والتكوثر فعل عقلي ؛ أي لا يتكوثر إلا العقل ، وهو فعل قصدي ، فلا يتكوثر إلا الفعل القاصد (الفاعلية القصدية) وثالثا فعل نفعي ، فلا يتكوثر إلا الفعل النافع ، وتتجلى القصدية في طلب المنفعة ، ينظر ، ص ص : 21 ، 22 .

3. المرجع نفسه ، ص : 225 .

4 نفسه ، ص : 226 .

ثم يصنف الحجاج إلى :

- **الحجاج التّجريدي : الذي ينبني على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون والمقام ، وهو من المراتب الدنيا للحجاج .**
- **الحجاج التّوجيهي : وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل ، والتوجيه هنا هو إيصال المستدل حجته إلى غيره ، وهذا النوع الحجاجي تدعمه النظرية اللسانية المعروفة باسم ((نظرية أفعال الكلام)) ، والتي ترد الأفعال إلى القصد والفعل ، وهما عماد التوجيه .**
- **الحجاج التّقويمي : هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعترض على دعواه ، أو ما يسمى بالتشخيص (في النظرية اللسانية) ؛ أي أنه ينبني أصلا على اعتبار فعل الإلقاء وفعل التّلقي معا على سبيل الجمع والاستلزام (1) .**

ويفرق " طه عبد الرّحمن " بين الحجاج و البرهان ، بقوله إن البرهان ينبني على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق والعمل بالمقاصد ؛ أي أن الحجاج يقوم على اعتبارين : (اعتبار الواقع) أو طلب معرفة الواقع ، و (اعتبار القيمة) أو معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته .

إضافة إلى تصنيفات الحجج المتعدّدة والمفصّلة ، ومراتب الحجاج بناء عليها .كما لم يغفل في كتابه الآخر : ((في أصول الحوار وتجديد علم الكلام)) خاصية من أهم خصائص الحجاج وهي " الحوارية " أو تحديدا " المحاورة " ، على اعتبار نقاط فاصلة بين هذا المصطلح ومصطلحات أخرى من الجذر والحقل الدّلالي نفسه خاضعة لمناهج استدلالية أخرى ، وهو ما يوضحه الجدول : (2)

	المنهج الاستدلالي	الآلية الخطابيّة	البنية المعرفيّة	النّموذج النّظري	الشّاهد النّصي
الحوار	البرهان	العرض	النّظر	نموذج البلاغ نموذج الصدق	الحوار الحقيقي (العلمي) الحوار الشّبيهي (الفلسفي)

المحاورة	الحجاج	الاعتراض	المناظرة	نموذج الإبلاغ نموذج القصد	المحاورة القريبة (المناظرة) المحاورة البعيدة (التّناص)
التّحاور	التّحاج	التّعارض	التّناظر	نموذج التّبليغ نموذج التّفاعل	التّناظر الرّأسي التّناظر الأفقي

1–طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص ص : 227 ، 228 .

2– طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط2 ، 2000 م ، ص : 57 .

– الحجاج عند " محمّد العمري ":

يسميه "الخطاب الإقناعي " ، في كتابه : ((في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربية)) . في هذه الدراسة محاولة لتتبع الخطاب الإقناعي (الحجاج) في المتن الخطابي العربي في القرن الهجري الأول ، ويعتمد كل الاعتماد على الأسس الأرسطية لبلاغة الخطاب ، أو الخطاب عموما ، ولاسيما الحجج والبراهين الخطابية . إلا أنه ركز على عنصرين اثنين من عناصر الإقناع في البلاغة العربية القديمة ، وهما : المقام ، وصور الحجاج : (القياس ، المثل ، الشاهد) .إضافة إلى عنصر الأسلوب .

صنف المقامات إلى أنواع :

1–مقامات الخطابة السياسية : تصنيف حسب العلاقة بين الخليفة ومحاوريه ، والحوار هنا قسمان : إما بين الأنداد ، وإما بين الراعي و الراعية . وتقل فيها الحجج ، وتسود فيها المواعظ ، الوعد ، الوعيد ، ....

2– مقامات الخطابة الاجتماعية :تتمثل إما في :التنظيم الاجتماعي ، ويضم خطب الإملاك ، والصلح و المخاصمات القضائية ، ويعتمد الحجّة المقنعة و التأثير الأسلوبي .

وإمّا الوجدانيّة ، فالاعتماد على الاستمالة أكثر من الحجّة غالبا .

وجعل الحجاج في صور ثلاث :

1 – القياس أو القياس الخطابي : وهو القياس المضمر القائم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور ، ومنها : التّعارض ، والتّضاد ، والمستقصي .

2 – المثل : هو استقراء بلاغي أو حجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتهما ، ويراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها ، ويعتبر دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير .

3 – الشاهد : وهو من الحجج الجاهزة أو غير الصّناعية كما يسميها " أرسطو " ، ويجمع : الأمثال والأبيات الشعرية والآيات القرآنية . وكان للشّواهد القرآنيّة ثلاثة استعمالات في الخطابة العربية القديمة ، تمثلت في :

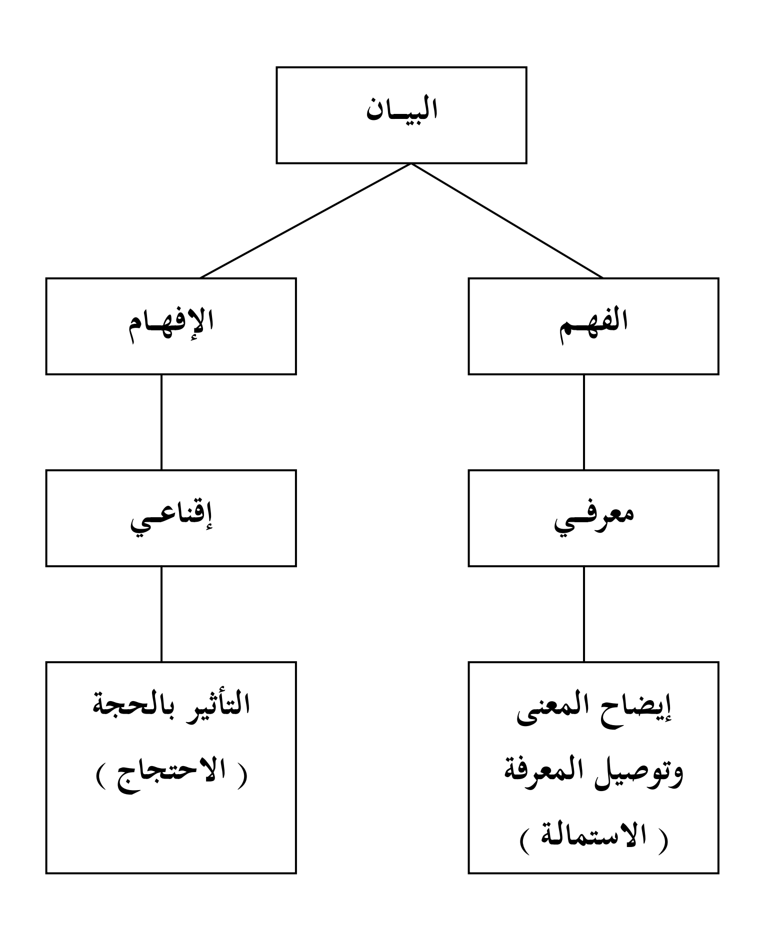
– الاحتجـــــــــاج لقضيـــــــــة مختلـــــــــف فيهـــــــــا .

– تمثيل حالة مشابهة .

–الاستئناس أو خلق الجوّ الدّيني في الخطبة ؛ لتحقيق الإثارة وحسن الموقع في النفس .

ينظر : محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، لبنان ، ط2 ، 2002 م .

وإذا كانت نظرته للحجاج أو الخطاب الإقناعي في هذا الكتاب من منظور أرسطي ، فإنه في كتابه : ((البلاغة العربية أصولها و امتداداتها)) يعمد إلى تسمية المصطلحات الحجاجية – إن صحّ القول – نسبة إلى أصولها – البلاغية العربية ، ولاسيما في قراءته لمفهوم البيان عند " االجاحظ " (الجدول السابق) .وللفهم والإفهام ببعديهما المعرفي والإقناعي :



ثم يحصر البيان بمفهومه في مصطلح " الاعتدال " بين ما سمّاه " الجاحظ " بالعي (القصور في النطق) ، والخطل
(التكلف) * .

وهذه الاستقلالية منحته تنوعا على صعيد الأنواع المعرفية ، وعلى صعيد الخصائص التي تنقسم عن هذه الأنواع ، والتي سنستجليها في المبحث الآتي
.

---

* محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص ص : 193 ، 204 .

وفي هذا تجلية لنظرية الحجاج عند " الجاحظ " بمنظور حديث ، وإعادة صياغة للمصطلحات وفق تناسبها مع المعاني المتضمنة في النظريات اللسانية المستحدثة . لنجد أن الفرق الوحيد بين القديم والحديث كامن في قطبين اثنين هما : العام و الخاص ؛ فالحجاج بمنظور قديم عبارة عن تقنية أو آلية مميزة في الخطابة خاصة ، وهو بالتالي عبارة عن خاص ضمن عام .
أما بالمنظور الحديث فهو في طور صياغته كموضوع عام مستقل تدور حوله الخطابات ، ذو خصائص وميزات يقوم عليها ، تتوسلها أنواع الخطابات الأخرى انطلاقا من موضوعاتها الخاصة بها كخطابات خاصة كذلك ، وصار بهذا عبارة عن عام مستقل يحوي خصوصيات الخطابات .

المبحث الثاني :

أنواع الخطاب الحجاجي:

أ- **الخطاب الحجاجي البلاغي .**

ب- **الخطاب الحجاجي الفلسفي .**

ت- **الخطاب الحجاجي التداولي .**

2- المبحث الثاني : أنواع الخطاب الحجاجي :

تقسم الدراسات الحديثة الخطاب الحجاجي إلى خطابات متنوعة أهمها خطابات ثلاثة تتمثل في : الخطاب الحجاجي البلاغي ، والفلسفي ، والتّداولي . وتختلف هذه الخطابات باختلاف أصولها وامتداداتها المعرفية والمنهجية ، لكن ذلك لا يمنع من تداخلها فيما بينها ، كما سيتضح من خلال عرض أنواعها ، ومن ثمة خصائصها في مبحث آخر .

أ – الخطاب الحجاجي البلاغي :

فرّقت الدّراسات العربية القديمة بين الخطابة والبلاغة ، فعدّت << الخطابة نوعا من القول والتّخاطب ، أما البلاغة فهي بعد أسلوبي في هذا القول ، لذلك جاز الحديث عن بلاغة الخطاب واستحال العكس >> (1) . وما دام مفهوم البلاغة منحصرا في بعدها الأسلوبي ؛ فهي تتخطّى الخطابة إلى أشكال عديدة من الكتابة : كالشّعر ، والفلسفة ، وغيرها . كما اشتمل على العلوم الثّلاثة : علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع .

فعلم المعاني يستهدف البحث عن كيفية تجنب الأخطاء والاستهجان في تأدية المعنى من خلال كلام معين . ويستهدف علم البيان البحث عن كيفية تجنب أوجه الغرابة والتعقيد في الكلام ، بينما ينصبّ علم البديع على تحسين الكلام وإضفاء جمالية التعبير عليه .

فالبلاغة بهذا ، طريقة ووسائل متّبعة في الكلام حتى تنفذ معانيه إلى عقل وقلب المتلقي (سامعا كان أو قارئا) ، وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسّنات وإبانة وإظهار وإقناع .

و يتّضح بعد قراءة للبلاغة العربية ، أنّ أقطابها وجّهوها هدفين اثنين ، هما : الوضوح (الارتجال) ، و التّأثير (النّفع) (2) ، أو حاجة الخطابة للبلاغة لإقناع الجمهور و التّأثير فيه ، و هذه الحاجة إلى البلاغة تعني بالضّرورة : الصّور البلاغية ، و الحجج و الحجاج ، لتطلّب التّأثير و الاستمالة للإبانة و الوضوح و أساليب الإقناع عموما . و بهذا يتجلّى ما يسمّى بـ "الحجاج البلاغي" ، و عناصره المتوفرة في النّظرية البلاغية القديمة للعرب ، مثل : الشّاهد عند "الجاحظ " ، و الذي يعدّه عنصرا من عناصر الحجاج لأنه مرادف للحجّة و الدّليل و البرهان ، و الحجاج القائم على الشّاهد عند "الجاحظ " دعامة لإرساء الحقائق و صرح العلم :<< مدار العلم على الشّاهد و المثل ...>> (3) .

1.حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص:.108

2.نفسه ، ص: .109

3. الجاحظ ، البيان و التبيين ، ج1 ، ص : 171.

و على الرّغم من تجاوز الحجاج البلاغي الخطابة إلى الكتابة و باقي العلوم ، << فإنه لم يزل محتفظا بخصائصه الأصلية : كسب تأييد المتلقّي في شأن قضيّة أو فعل مرغوب فيه من جهة ، ثم إقناع ذلك المتلقّي عن طريق إشباع مشاعره و فكره معا حتى يتقبّل و يوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب >>. و هاتان الخاصّيتان تخوّلان بناء مفهوم خاص للحجاج البلاغي ، فيكون حجاجا موجّها إلى العقل و القلب معا ، و ذلك لجمعه بين مضمون الحجّة العقلي إلى جانب صورها البيانية ، أو ضمّه للتّبرير العقلي إضافة إلى المحسّنات البيانية .

و ليست البلاغة العربية القديمة وحدها التي أضفت طابع الأدبيّة على الحجاج البلاغي فحسب ، بل حتى صاحب النّظريّة البلاغيّة الجديدة "بيرلمان" الذي ذهب إلى القول << بأنه لا يوجد أدب بدون بلاغة >> ، لكن على اعتبار هذا المصطلح –أي البلاغة – فنّا للتعبير ، لحيازته أدوات تفقد فعاليتها بقدر تلقيها ، كونها مجرد إجراءات بلاغية تمنح القيمة البرهانية حصانة من الهدر ، كما تمنح منتج الخطاب الإيحاء القوي عن نفسه و عن الأشياء ، و يقدم لهما بذلك صورة لا تحمل المستمع على الفصل بين الإجراء و الواقع (2).

و ما دامت البلاغة هنا إجراء يضاف إلى الحجّة ليتشكّل بذلك (الحجاج البلاغي) ، فهذا لا ينحصر على النّصّ الأدبي وحده فحسب ، بل ينسحب على جل أنشطة اللّغة و القول ، إلى الخطابات اليومية العادية ، الكلام المتعدّد الموضوعات : الصّداقة ، الاقتصاد ، السّياسة ،.... و في هذا المعنى يقول "ماييرMayer" : << إن كل شيء قد أضحى ((تواصلا)) ، من الصداقة إلى الحب ، و من السياسة إلى الاقتصاد . حيث نجد العلاقة تقام وتفسخ بناء على فشل أو جاح البلاغة >> . و إذا كان كل خطاب تواصل ، و كل تواصل يقوم على البلاغة ، فإن وراء كل حجاج بلاغة ، و وراء كل بلاغة حجاج ، ما دام هنالك استمالة يقصد بها الإقناع .

و هكذا، فالبلاغة قد تحقّق التّأثير و الاستمالة ، لكنّها لن تصل إلى الإقناع و ربما حتى الإفحام إلا بمعية الحجج و المحاجّة ، و هذا ما يعوز رأي "ج.روس J.Russ " التي تعتقد أن << الصّور البلاغية هي عملية أسلوبية تنشط الخطاب ، و لها وظيفة إقناعية >>(3) ، لأن الصور و الأساليب البلاغية هي تقنيات تستدعيها جمالية الإيصال و التّلقّي ، ولا يمكنها الصمود أمام نفاذ العقل و توقّد الشّكو ك ما لم تدعّم بحجج عقليّة قوية تعمل على عكس المعتقد وإزالة الشّك و تحقيق الإقناع .

---

1. حبيب أعراب ، السابق ، ص : 110.
2. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، ص: 80.
3. حبيب أعراب ، نفسه ، ص: 110.

لكن تتبع التّسلسل الحجاجي في خطاب أو نصّ ما ، و لا سيما النّص المكتوب ، ليس بالإجراء اليسير ، و لا المتمكّن منه دوما ، و مردّ هذه الصّعوبة إلى تداخل أبعاد كثيرة في منتوج لفظي واحد ، كالأبعاد : التّداولية و اللّسانية و البلاغية و الأسلوبية و السّيميوطيقية ، ما ينتج عنه تشابك معقّد لأوضاع الحجج و وظائفها ، و خاصّة إذا تراوحت هذه الحجج بين الظهور و الإضمار ، أو بين الإخفاء و البروز . و لكن تتبّعها في الخطاب المكتوب سيكون أيسر لكشفها ، على الأقل سيتشكّل هنالك مجموع (قراءات) أو فرضيات للقراءة نابعة عن عقول و حدوس واعية و ثاقبة (1) .

1.حبيب أعراب ، **الحجاج و الاستدلال الحجاجي** ، ص ص : **110** ، **111**.

ب- الخطاب الحجاجي الفلسفي :

يتناول الباحث "حبيب أعراب" هذا النّوع من الخطابات أو هذا النّوع من الحجاج بعبارة أدق فيما يسميه بـ "حجاج الفلسفة" ، فيرى أن الحجاج بعد جوهري في الفلسفة معرفة كانت أو تفكيرا ، إضافة إلى فعالياته الأخرى : الخطابيّة و التّداولية و البلاغية ، و بذلك يستبعد خلوّ مذهب أو تحليل فلسفي من الحجاج ، بغضّ النّظر عن أساليب هذا الحجاج و قيمته ، فالتّفكير الفلسفيّ تفكير حجاجي بامتياز .

وينطلق من مجموع تساؤلات يطرحها ، وعلى أساسها يستجلي وضعية الحجاج في الفلسفة لأهداف نظريّة وأخرى تطبيقيّة أو تعليميّة :

- أيّ حجاج يتمّ اتّباعه واعتماده في الفلسفة ؟
- هل يجوز الحديث عن الحجج في قول الفلسفة وإنتاجها ، أم عن الدّلائل والبراهين ؟
- هل توجد طريقة خاصّة بالفلسفة في استعمال الحجاج ومتطلّباته ؟
- ما الذي يضطرّ الفيلسوف أو المتفلسف إلى الاستدلال حجاجيّا ؟

و يذهب قبل الخوض في الإجابة عن هذه الطّروحات إلى تحديد فضاء الحجاج الفلسفي –كأشكال قوليّة فلسفيّة – في نصوص قد تطول (مطوّلة) ، أو تقصر (مقطعيّة) .

ثم يؤكد على أنّ الممارسة الحجاجيّة والاستدلالية في ميدان الفلسفة ليست مقصودة لذاتها ، و من ثمة فهي ليست معزولة كلّيّا عن الإجراءات والأبعاد الأخرى في هذا النّمط من القول (1) . ونفهم من هذا آلية الحجاج في الفلسفة ، ولنقل إجرائيته ؛ أي جزء من خدمة الكلّ على عكس ما تمّ استخلاصه من النّوع الحجاجي البلاغي ؛ الذي عدّ بدوره إجراء وآلية ، لكن في خدمة الحجاج .

و في إطار الإجابة عن الطّرح الذي يبحث في نوع الحجاج المتّبع والمعتمد في الفلسفة ، يشير إلى لزوم اعتبار الحجاج الفلسفي شرطا حاسما لها بعدّها خطابا للعقل والمعقولية وهذا الوصف يجرّ عددا من الاستشهادات التي تقضي بأنّ هذا الخطاب إذن هو خطاب الدّليل والبرهان لاخطاب الحجّة والبيّنة ؛ تحقيقا لغاية مناصري العقلانية من الفلاسفة ، وإرساء للحقيقة ، وتفكير الحقيقة بذلك هو تفكير الدّليل والبرهان لا تفكير الحجاج والتّعليل ، وفي هذا الرّأي تفريق حاسم بين (البرهان) و (الحجاج) ؛ وهو في أبسط صوره الحسم والإثبات بالنّسبة للبرهان في مقابل السّطحية والثّانويّة كرؤية للحجاج من منظور خاص .

---

1. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص ص : 115 ، 116 .

ويعرّفان في الفلسفة :

- البرهنة : إثبات أمر بواسطة أمور أخرى بحسب قواعد المنطق الصّوري التي تقوم على عدد معّين من المباديء البديهيّة التي لا تفتقر إلى برهان .

- المحاجّة : نشاط ذهني يتداوله السّائل والمعلّل ؛ أي النّافي والمثبت حول معان هي في آن واحد معطيات نفسية اجتماعية ، أي تبادل الحجج بغرض إثبات الرّأي الشّخصي ، أو ردّ رأي الخصم ، وغرض كلّ ذلك الإقناع ، وحصول الاقتناع (1) .

ونجد تفصيلا أشمل وأدقّ لهذين المصطلحين ، حيث يفرّق بينهما " طه عبد الرحمن " بهذا الشكل :

- الحجّة : تتميز بخاصّيتين :

أ-إفادة الرّجوع أو القصد : مشتقة من الفعل حج الذي من معانيه الرجوع ، وبذلك الحجة هي أمر نرجع إليه و نقصده ، ولا نفعل ذلك إلاّ لحاجتنا إلى العمل به ، فهي الدّليل الذي يجب الرجوع إليه للعمل به .

ب-إفادة الغلبة : يدلّ الفعل (حجّ) على معنى (غلب) ، فيكون مدلوله هو إلزام الغير بالحجّة ، فيصير بذلك مغلوبا .

فالحجّة بهذا دليل يقصد للعمل به ولتحصيل الغلبة على الخصم (2) .

- البرهان : يتّصف بأربع خصائص :

أ-التّواطؤ : تكون ألفاظ صاحب البرهان التي يستعملها وقواعده التي يصوغها خالية من اللّبس الدّلالي ، لتدلّ الألفاظ على معانيها بوجه واحد لا ثاني له ، وهو ما يصطلح عليه بلفظ " التّواطؤ " .

ب-الصورية : لا يستقيم الدّليل على أصول البرهان إلاّ إذا كان بالإمكان ردّه إلى جملة من الصّيغ والتّراكيب أو قل جملة من الصّور التي تستغني بشكلها وترتيبها عن اعتبار المضمون الدّلالي للألفاظ والعبارات التي استبدلت بها هذه الصّيغ والتّراكيب .

ج-القطعيّة : لمّا انبنى البرهان على التّواطؤ والصّورية ، فقد ارتفع التّردّد والاحتمال عن النّتائج التي يتوصّل به إليها ، بمعنى أنّ البرهان يفيد القطع .

---

1. محمود يعقوبي ، أصول الخطاب الفلسفي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 م ، ص ص : 09 ، 10 .

2. طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، ص ص : 137 .

د-الاستقلال : يستقلّ البرهان عن صاحبه ما إن ينتهي من صنعه كما يستقلّ عن المخاطب به حتى ولو كان حاضرا في تصوّره وبناء قواعده ، وبالتّالي يتّضح أن لا تعلّق للبرهان بالمجال الذي يستعمل فيه ، وإن كان هذا المجال هو الأصل في النّهوض به (1) .

لكّن الرّأي السّابق الذي يخصّ الفلسفة بالبرهان انطلاقا من طبيعتها العقلية أو العقلانية ، يتجاهل انبناءه على أساس اللّغة الطّبيعية ذات الحمولة المجازية وخاصّة الاستعاريّة بالتباساتها : << يتعيّن عند الكلام عن بعض المفاهيم والمقولات سواء داخل الممارسة الفلسفية أو خارجها ، عدم نسيان حمولتها الاستعارية خاصة . إنّ الفلسفة على الرّغم من معقوليتها وعقلانيتها البادية ، فهي مدينة بالكثير للّغة الطّبيعية ، وما تموج به هذه الأخيرة من استعارات والتباسات >> . وبهذا تصبح برهانية الخطاب الفلسفي مجازية أو شبيهة للبرهان لا بالمعنى الحرفي والدقيق .

ولم يفرّق الفلاسفة المناصرين للبرهان بين افتتانهم به بمعناه المنطقي والرياضي والاهتداء ببعض ملامحه في غير سياقه الأصلي ، وبين البرهان كعمليات يريد التّخلّص من غنى اللّغة و تعابيرها ، ومن تعدّد الرؤى التّحليليّة والتّأويلية ، وهذا يبين نوعين من الاستدلالات ، استدلال بالبرهان ، واستدلال بالحجّة ، والفلسفة بوصفها نصوصا ومتونا ، تستدل بالحجّة لا بالبرهان ، لاختلاف معاييرهما ، باحتمال البرهان للصّحة والخطأ ، كما أنه لا يقاس برأي أو موقف الآخر منه وتقييمه له ، بل قيمته مباطنة له ، وهذه الخصائص تجعله أنسب لفضاء المنطق والرياضيات دون غيرهما، بينما تقاس صلاحية الحجاج الفلسفي بمعايير خارجيّة ؛ أي قوته وضعفه ، كفايته وعدمها ، نجاحه أو فشله في الإقناع ، فليست غاية الحجاج الصّواب أو الصّحّة ، بل التّأثير والّتقبّل (2) .

---

1. طه عبد الحمن ، السابق ، ص ص : 137 ، 138 .
2. حبيب أعراب ، السابق ، ص : 117 .

د-الخطاب الحجاجي التّداولي :

يحيلنا لفظ " التّداولية " إحالة مباشرة إلى نظريّة أفعال الكلام ، ولنقل أفعال الكلام بمعانيها المتراوحة بين من تصدّوا لهذا المجال من مجالات اللّسانيات التّداولية الحديثة . وقبل أن نفصّل في الحجاج التّداولي لابدّ وأن نعرّج على نقاط توضيحيّة لهذه النّظريّة ، وعلاقتها بما سنصل إليه لاحقا .

ترتبط نظريّة الأفعال الكلاميّة بقطبين اثنين : " أوستن Austin " و " سيرل Searle " الذين قعّدا لها عن طريق محاولتهما لتقسيم الجمل ، أو بتقسيم " أوستن Austin " للجملة الخبريّة إلى : وصفيّة (constative) ، وإنشائيّة (performative) ، ثم عدوله عن هذا التّقسيم انطلاقا من تساؤله : <<كم معنى هناك على أساسه يكون قول شيء هو نفسه فعل شيء ، أو يكون متضمّنا في قولنا شيئا ، فعلنا لشيء معين ، أو يكون بواسطة قولنا شيئا فعلنا لشيء ما >> (1) ، ومنه ميّز " أوستن Austin " أفعالا ثلاثة ترتبط بالقول (locution) .

أ – فعل القول LOCUTIONARY ACT : وهو << إطلاق الألفاظ على صورة جملة مفيدة ذات بناء نحوي سليم مع تحديد مالها من معنى (Sense) ومشار إليه (Reference) >> ، وهذا الفعل يقع دائما مع كل قول ، ومع إعطائه معنى ، يبقى غير كاف لإدراكنا أبعاده ، كقولنا :

– إنها ستمطر .

مع فهمنا الكلّي لمعناها ، فلا ندري إن كانت خبرا أو تحذيرا من عاقبة الخروج ، أو أمرا بحمل المظلّة ؛ إلخ .

لذا وجد " أوستن " ضرورة إرفاق فعل القول بـ :

ب – فعل متضمّن في القول ILLOCUTIONARY ACT : هذا الفعل يشتمل على أمر زائد هو (القوة Force) التي للقول ، فيقال للجملة السابقة في موضع أنّ لها قوّة الخبر ، و أخرى أنّ لها قوّة التّحذير ، وقوة الأمر في ثالث ، و هكذا . لذا اقترح " أوستن " تسمية النّظرية القائلة بتنوّع وظائف اللّغة نظرية ((القوى المتضمّنة في القول ILLOCUTIONARY FORCE))و مع القيام بالفعل (أ) و (ب) ، ينشأ فعل ثالث هو التّسبب في نشوء آثار في مشاعر أو أفكار أو أفعال المخاطب ، أو المتكلم ، أو غيرهما ، على نحو كان الفاعل؛ أي المتكلم قد عمد إلى إيجاده ، من أمثلته : الإقناع ، التّضليل ، التّثبيط ،... ، و يسمّى هذا الفعل :

ج– الفعل الناتج عن القول أو الفعل بواسطة القول perlocutionary act (2) .

---

1. طالب سيد هاشم الطبطباتي ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1994 م ،ص : 07 .
2. المرجع نفسه ، ص ص : 08 ، 09 .

وهذا التّحديد لمعاني أفعال الكلام ومقاصدها ، يجعله " فان دايك Van Dijk " غرضا رئيسيّا للتّداوليّة في كتابه: ((النّص والسّياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتّداولي)) :<< التّحليل السّليم لأفعال الكلام هو الغرض الرّئيسي للتّداوليّة ، لأنّه لا يمكن أن يتمّ بغير فهم مسبق لمعنى الفعل أو التّصرّف >> (1). وهو يلحّ على ما يسمّى بإنجازيّة الفعل أو إعطائه تأويلا تداوليّا كمهمّة رئيسة أخرى ، إضافة إلى وضعه في سياق معّين أو موقف من المواقف : << المهمّة الرئيسية للتّداولية هي تحويل ضروب الخطاب (الجمل) إلى أفعال منجزة ، وعملية تحويل الخطاب إلى أفعال منجزة يمكن أن تسمى أيضا تأويلا تداوليّا للعبارات ، والمهمّة الثّانية هي تنزيل هذه الأفعال في موقف معين ، وصياغة الشّروط التي تنصّ على نجاح هذه العبارات في أي موقف من المواقف >> (2) .وقد يرتبط هذا بالتقسيم الابتدائي لـ " أوستن " للأفعال إلى خمسة تقسيمات :

<u>1- الحكمّيات Verdictives</u> : إطلاق أحكام على الواقع : برأ ، قيّم ، وصف ، حلّل ، صنّف ، أرّخ ، فسّر ، ... .

<u>2-الإنفاذيّات Exercitives</u> : تقوم على استعمال الحقّ أو القوّة وما إلى ذلك : عيّن ، سّمى ، أعلن ، صوّت ، ... .

<u>3-الوعديّات Commissives</u> : قد تلزم المتكلّم بأداء فعل ما ، أو تكون إفصاحات عن نواياه : وعد ، أنذر ، أقسم ، ... .

<u>4-السّلوكيات Behabitives</u> : ترتبط بالإفصاح عن حالات نفسيّة اتّجاه الآخرين ، أو بالسّلوك الاجتماعي : اعتبر ، شكر ، مدح ، هجا ، ... .

<u>5-التّبيينات Expositives</u> : توضّح علاقة القول بالمحادثة أو المحاجّة : أثبت ، أنكر ، اعترض ، شرح ، وصف ، ... (3).

ويقابل هذا ، تقسيم " سيرل Searle " ، الذي يختلف حسب رأيه عن تقسيم "أوستن " في أنه تقسيم للأفعال لا للقوى المتضمّنة في القول :

<u>1- الّتقريريّات Assertives</u> : غرضها تحمّل المتكلم لمسؤولية صدق القضية المعّبر عنها ، يقول : << إنّ أبسط اختبار للتّقريرات هو ....هل يمكنك وصفها بالصّادقة والكاذبة أم لا >> .

<u>2-الوعديّات Commissives</u> : غرضها إلزام المتكلّم بأداء فعل معّين في المستقبل .

---

1. فان دايك ، النص والسياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، لبنان ، دط ، 2000 م ، ص : 227 .
2. نفسه ، ص ص : 256 ، 257 .
3. هاشم طبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية ... ، ص ص : 10،11 .

3- الأمريّات Directives : تحاول حمل المخاطب على أداء فعل معيّن في المستقبل .

4- الإيقاعيّات Declaratives : تعريفها أنّ " الأداء النّاجح لأحد أعضائها يوقع مطابقة بين القضايا التي يحتويها الواقع " .

5- البوحيّات Expressives : غرضها التّعبير عن الحالة النّفسية المحدّدة بشرط الصّراحة اتّجاه الواقع (1).

و في كلا التّقسيمين محاولة لحلّ مشكلات تفسير الفرق بين أقسام الجمل المفيدة المكوّنة للكلام ، بالرّجوع إلى الأغراض التي وضعت هذه الجمل لأجل تحقيقها ، كما تزيد محاولة "سيرل " بكونها دراسة للأفعال الكلاميّة بتحليلها إلى عناصرها المقوّمة لها ، عوض دراسة صيغ الجمل المفيدة و الرّجوع إلى معانيها اللّغويّة . ويحاول "حبيب أعراب " في مقاله : ((الحجاج و الاستدلال الحجاجي)) الفصل في هذا التّداخل انطلاقا من عدّ الحجاج ظاهرة متجسّدة في الخطاب ، و به يتحقّق ، و هذا يجعله متلبسا بألبسة لسانيّة و أسلوبيّة ، و مقاربته لسانيا مسألة طبيعية إن لم تكن ضرورية ، و هذه العلاقة تبعث على تساؤلات كبرى ، أهمّها :

هل مقاربة الحجاج هي مهمّة ملقاة على اللّسانيات العامّة أم على التّداولية ، أم على الأسلوبيّة ، أم على البلاغة ؟

و إذا كان النّص الحجاجيّ هو – لسانيّا – نصّ متميّز عن باقي الأنماط النّصية الأخرى ، فهل نولي اهتماما لبنيته الحجاجية وعلاقتها الدّاخلية ، أم لقيمته و فعاليته الحجاجية من خلال تفاعل ذاته أو ذواته مع محيطها الخطابي ؟

و هذا يحيل على صعوبة اختزال الظّاهرة الحجاجيّة في النّطاق اللّساني المحض أو في النّطاق العقلي والفكري المحض ، و هذه الصّعوبة تجعل من التّناول اللّساني لها هو نفسه ملتقى تقاطع مقاربات متباينة أشدّ التّباين .

لقد اعتاد اللّسانيون النّظر إلى الخطاب اللّفظي الحجاجي كخطاب يتوفّر على خاصّيّات بنائية و براغماتية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات : السّردية ، الحكائية ، الإخبارية ، ... وهذه التّصنيفات تقوم على أساس السّمات الغالبة على كل خطاب متجسد في نصّ ما (بالمعنى العامّ للنّصّ) ، و ليس بحدود فاصلة فصلا مطلقا بين أجناس الخطاب النّصّي ، وهو ما نجده عند "ج.ب.برونكار Jean Paul Bronkart" ، الذي حدّد الخطاب في أنماط أربعة : النّمط السّردي ، الحكائي ، التّفاعلي –الحواري ، النّظري ، و تصنيفه مبني على أسس لسانية داخلية و مع أن النصوص التّفاعلية –الحوارية ، وكذا النّظرية هي الأكثر احتضانا للحجاج ، فإن أشكال النصوص الأخرى لا تخلو تماما من خصائص حجاجية ، و بالمثل ،فإن النّصوص الحجاجيّة بدورها لا تنعدم فيها كلّية بعض عناصر الإخبار أو السّرد ... (2) .

---

1. سهاشم طبطبائي ، السابق ، ص ص : 33 ، 34 .
2. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي (الهامش) ، ص : 134 .

و مع ذلك ، ستسعى المقاربة اللسانية وحتى الأدبيّة إلى الّتعامل مع نوع خاص من التّخاطب والتكلم . وإذا كان هذا التّخاطب محدّدا ببعده الحجاجي المتميّز ، فهو خاضع لفظيّا لمثلثات سيميولوجيّة لسانية :

– المرسل – – – – – الرسالة– – – – –المستقبل " جاكبسون **Jakobson** " .

– التعبير – – – – – المعنى – –– – – –الإقناع والانفعال " بوهلر **Buhler** " .

– المخاطب – – – – الخطاب – – – –المخاطب " أوستن **Austin** ".

ويترتب على هذا أوّلية رصد أفعال كلاميّة أو تكلّمية لها مرجعية أو سياق مشترك بين المتكلّم والمستمع ، أو بين المخاطب والمخاطب لتجنّب أزمة المرتكزات والمعايير التّواصلية والتّأويلية ، وسيكون هذا الرصد حتى في مقدمة رصدنا للصّور الأسلوبيّة في الخطاب الحجاجي أو صوره البنائية الاستدلاليّة .

إن دراسة الحجاج في الخطاب اللّفظي هو من شؤون التّداولية " **Pragmatique** " لخضوع الخطاب الحجاجي في ظاهره وباطنه لقواعد شروط القول والتّلقّي ، وتبرز فيه مكانة القصديّة والتّأثير والفعاليّة ، ومنه قيمة ومكانة أفعال الذّوات المتخاطبة (1) . و هي الأفعال أو الملفوظات التي يجعلها " أسوالدديكرو **Oswald Ducrot** " في خدمة التوجيه الحجاجي ، حيث يصنّف الحجاج ضمن حقل (التّداوليّة المنسجمة) في كتابه :

((**Les mots du dis cours**)) ، ويركّز على كلمات وعبارات أمثال : " أجد أن ، لكن ، حتما ، زد ، على ... " ويجد أنه رغم تمظهر وظيفتها الأولى في خدمة التّوجيه الحجاجي ، إلا أنهّا ليست ضرورية للحديث عن الحجاج ، لأنّ << التّوجيه الحجاجي لازم لمعظم – على الأقل – الجمل التي تحتوي دلالتها على توجيه مثل : بتلفّظنا لهذه الجملة نحن نحاجج في صالح استنتاج معين >>(2). فهذا الجنوح من التخصيص إلى التعميم يجعل لتداولية الأفعال و المفردات طابعا حجاجيا ، أو يجعل الحجاج أو النّص الحجاجي منتميا إلى مجال التّداوليّات .

غير أنّ هذا الانتماء يخلّف تشعّبا على صعيد الاختصاصات (تداوليّة البلاغيين ، و تداوليّة اللّسانيين ، و تداوليّة الفلاسفة ، ...) ، و توضّحه " فرانسواز أرمينكو **Françoise Armingaud** " في قولها : << فالتداولية كبحث في قمة ازدهاره ، لم يتحدّد بعد في الحقيقة ، و لم يتمّ بعد الاتّفاق بين الباحثين فيما يخصّ تحديد افتراضها و اصطلاحاتها . و نكاد نرى جيّدا على العكس من ذلك ، إلى أي حد تكون التّداولية مفترق طرق غنيّة ، لتداخل اختصاصات اللّسانيّين ، و المناطقة ، و السّيميائيين ، و الفلاسفة ، و السّيكولوجيين

1.حبيب أعراب ، السابق ، ص : 101.

.جون سرفوني ، اللسانيات و التداولية ، ترجمة : حمو الحاج ذهبية ، مجلة التبيين تصدر عن الجاحظية ، الجزائر ، ع 19 ، 2002م ، ص : 76.

و السيكولوجيين ، فنظام التّقاطعات هو نظام للإلتقاءات و الإفتراقات >> (1) .و هذا التداخل لا يعيق اهتمام التّداولية بمختلف الأسئلة المهمّة ، و الإشكاليّات الجوهرية ، كالإحاطة بأسئلة من قبيل :

- **من يتكلم و إلى من يتكلم ؟**
- **ماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟**
- **ما هو مصدر التشويش و الإيضاح ؟**
- **كيف نتكلم بشيء ، ونريد قول شيء آخر ؟ (2)**

و الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي استحضار مقاصد التّكلّم و أفعال اللّغة و بعدها التّداولي و السّياقي ، ... . وهي – الأسئلة – تنطبق على كل أنواع الخطاب و التّكلّم ، بما فيها الخطاب الحجاجي الذي يحوي بعدا تداوليّا متعدّد المستويات :

أ–مستوى أفعال اللّغة : المتداولة في الحجاج ، المتضمّن للأفعال " العرضيّة " و " الحكميّة " و " التّمرسية " و " التّكليفية " ، ....، التي صنّفها " أوستن Austin“ .

ب– مستوى السّياق :الذي يضفي السّمة الحجاجيّة على تخاطب ما بأدوات و تعابير و صيغ تجعله إما ضمنيا أو صريحا ، << نجد تعابير إنجازية موجهة إلى ربط قول ما ، بباقي الخطاب ، و بكل السياق المحيط .من هنا نعثر على " أجيب " و " أستنبط " و " أعترض " .و تأتي هذه التّعابير لتربط القول بالأقوال السّابقة ، و أحيانا بالأقوال اللاّحقة >> (3) و هناك :

ج–المستوى الحواري : الذي يعدّ أهم خاصّية في الحجاج التّداولي الذي سنستعرضه في المبحث الموالي .

---

1. فرانسواز أرمينكو ، المقاربة التداولية ، ترجمة : سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ، د م ط ، د ط ، 1986م ، ص : 11.
2. نفسه ، ص : 5.
3. نفسه ، ص : 64.

المبحث الثالث :

أ. الخصائص الأسلوبية للخطاب الحجاجي البلاغي .

ب. لخصائص المناظراتية للخطاب الحجاجي الفلسفي .

ت. الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي التداولي .

1- المبحث الثالث : خصائص الخطاب الحجاجي :

لكل نوع من أنواع الخطابات الحجاجية السالفة الذّكر (الخطاب الحجاجي البلاغي ، والفلسفي ، والتّداولي) ، مجموع خصائص محورية وفاعلة في تكوّنه واتخاذ شكله الخطابي الذي يتّسم به وينبني عليه من وجهة نظر البلاغة الجديدة :

أ – الخصائص الأسلوبية للخطاب الحجاجي البلاغي :

ونعني بالأسلوبية ، الخصائص والصّور المحورية التي يتبنّاها الخطاب الحجاجي ولا سيما الأدبي منه . لكون هذه الصّور البلاغية << عملية أسلوبية تنشط الخطاب ، ولها وظيفة إقناعية >> (1) . إلا أنه يمكن توسيع هذه الدّائرة إلى الخصائص التالية :

– اندماج الحجاج البلاغي عضويا بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق .

– اشتراطه لرغبتين هما إرادة المتكلم (المؤثر والمقنع) ، وإرادة المتلقي (المتأثر والمقتنع) .

– خضوع حججه للتّراتيبية والتنظيم : القوة ، الضعف ، البدء ، الختم ، الإبطال ، الإثبات ، إلخ .

– اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعي أو الجمع بين البيان والبديع .

وهذه الخصائص تحيل بالضرورة إلى مجموع أهداف منطقية تترتب عنها ، منها :

– التأثير في المتلقي (السامع أو القاريء) وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده واقتناعه الخاص ؛ أي التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي طلبه ويريده المخاطب .

– استمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهنا وعاطفة (عقلا وقلبا) لكسب تأييده وتوافقه الضمني أو الصريح .

إن هذه الخصائص والأهداف تجعل من الحجاج في نوعه البلاغي محتفظا دائما بقدر معين من البلاغة والخطابة ؛ لاستقائه ذلك من اللّغة الطّبيعية ومن هاجس الإقناع والتأثير معا (2) .

إلا أن " بيرلمان " يحذّر في هذا الصّدد من الإسراف في استغلال الأشكال البلاغيّة الجاهزة ، << هذا الإسراف كان يوما ما عاملا من عوامل انحطاط البلاغة والنّظر إليها بوصفها آلية اقناعية عابرة **Ephémere** ، وذلك مما جعل تلك الأشكال البلاغية هدفا في حد ذاتها ، وهو ما أفقد اللّغة قدرتها على نقل الواقع ورسم المستقبل وإحداث الإثارة الفنية الكفيلة بخلق ثنائية : الاقناع والفعل >> (3) .

1. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص ص : 110 ، 111 .
2. نفسه ، ص ص : 110 ، 111 .
3. محمد سالم ولد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص : 85 .س

إن لفت انتباه المخاطبين يقتضي من المخاطب التّوسّل بمحسّنات أسلوبية تكمن في البلاغة ، بشرط عدم الإسراف في هذا الاعتماد ؛ << إن البلاغة فن قوامه الاعتدال مع توفر أكبر مستويات الإبانة والإفصاح . وقديما تم تحديد أجود المبدعات بأنه : الجزل المسبوك الذي يهجم على باطنه من ظاهره ، ويسحرك بيانه مع قرب مأخذه . ومن هنا حدّدوه بالسّهل الممتنع >> (1) . وعلى هذا الوضوح والتمكن يبني " بيرلمان " حجاجية الشكل البلاغي : << يعتبر الشكل البلاغي برهانيّا كلّما استطاع أن يولّد تغّيرا في المنظور ، وكان استخدامه طبيعيا بالنسبة للموقف الجديد الموحي به >> (2) .وإذا كان نجاح هذا الشكل البلاغي متوقف على مدى برهانيته وبالتالي إحداث الأثر المطلوب في المتلقي بتغيير المنظور الأول ، واستحداث المنظور الجديد ، فإنّه بالمقابل سينحصر في زاوية جمالية فحسب ، عند فشله في إثارة تأييد المتلقي ، و لا تتجاوز جماليته الزّينة أو الحيلة الأسلوبية على حد تعبيره (3) .

من خلال هذا القول يتّضح أن هذه الأشكال البلاغية على درجة كبيرة من الحساسية ، تتوقف جدواها على مدى تأديتها لدورها الحجاجي أو البرهاني كما يسميه " بيرلمان " والأشكال البلاغية متنوعة وتتجسد في أفانين خطابية كبيرة ، منها الحجاجية ، وعلى رأسها " الاستعارة " التي تأتي أهميتها من انحدارها مما يسميه بـ " القياس L'analogie " ودوره في الأبنية البرهانية ، وهو يقع في جذر أهم الأشكال البيانية من تشبيه واستعارة (4) .

ولابد قبل الخوض في هذا مفصّلا ، من إعطاء شرعية للاستعارة تمتد عكسيا إلى (أرسطو) ، الذي نظّر لها وصنّفها تحت تسمية " الاستعارة الحجاجيّة " ، وقبل هذا يصنف الاستعارة ضمن الأقاويل الشعرية والخطابية معا حصرا ، رغم امتدادها في نظر الدراسات البلاغية والخطابية الحديثة إلى الكلام اليومي البسيط ، وبشكل عام تداولها في مختلف السلوكيات القولية للإنسان وأمام المشكل الكبير الذي تطرحه الاستعارة أمام البلاغتين القديمة والجديدة ؛ وذلك من خلال محاولة تيمييزها عن الوجوه البلاغية الأخرى ، فإن " أرسطو " قد جعلها وتحت عناوين كثيرة * ، تفتح أحضانها لتشمل عددا من الوجوه البلاغيّة مثل : الكناية ، والمجاز المرسل ،

---

1. محمد سالم ولد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص : 85 .
2. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص : 146 .
3. نفسه ، ص : 146 .
4. نفسه ، ص ص : 80 ، 81 .

* عناوين مثل : التخييل : يجعل لها الفضل في إخراج الخطاب من عالم المألوف إلى عالم غير مألوف . والنقل : أو التغيير ، بنقل اسم شيء إلى شيء آخر . والزخرف : حيت تصير الصور جميلة بواسطة الاستعارة .

و التشبيه ، و المبالغة ، و التمثيل ، و التعريض ، و السخرية ، و الطباقات ، و الألغاز ، و الرموز ، والأمثال ، و غيرها من الوجوه البلاغية إلى درجة جعلته يرجع جميع الصّور إلى الإستعارة (1) .

و تحت عنوان ((حجاجية الإستعارة)) ، يورد " عمر أوكان " تقسيمات " أر سطو " الثلاثة للإستعارة ، و هي: الاستعارة الجمهورية ، و الاستعارة الشعرية ، و الاستعارة الحجاجية ، و يقول في ذلك : << وقد أقمنا هذا التّمييز انطلاقا من مقام التّواصل اليوميّ للخطاب ؛ فإذا كان الخطاب يهدف إلى الإقناع يكون حجاجيا ، وحين يهدف إلى المتعة يكون شعريا ، وحين يهدف إلى الإبلاغ يكون عاديّا (متداولا) ، ومن هنا ، فالاستعارة الجمهورية تهدف إلى الإبلاغ ، والإستعارة الحجاجية تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف العاطفي أو الفكري للمتلقّي ، في حين أن الاستعارة الشّعرية لا تهدف إلّا إلى ذاتها >> (2).

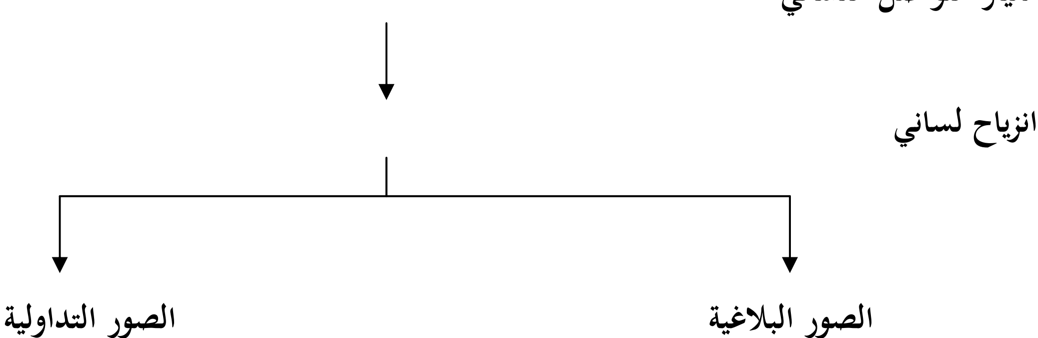
وبمعنى أكثر وظيفيّة ؛ " الاستعارة الحجاجيّة " : استعارة تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقّي ، فهي عند " أرسطو " مظهر خارجي يجتذب السّامع و يبهجه . و هو ينصح الخطيب بالاعتناء بها جيّدا لأن موارد النثر أقل من موارد الشعر و أضيق ، و لهذا يصرّ على استعمال الاستعارات البسيطة و القريبة ، و الواضحة وضوحا تاما ، و الغريبة بشكل يستر غرابتها حتى لا تظهر بمظهر التّكلّف ؛ كيلا يرتاب فيها المتلقي ، لأن ما هو متكلف يلغي الإقناع ، و إنما يؤدي إليه ما هو طبيعي ، كما ينصحه بعدم الإكثار منها لأن الإفراط فيها يخرج بها من الاستعارة الحجاجية إلى الاستعارة الشعرية ، و يخرج بالخطاب أيضا ن جنس الخطابة إلى جنس الشعر (3).

و هذا يطابق إلى حد ما الذي عناه "بيرلمان" من عدم الإسراف في توظيف الأشكال البلاغية في عملية الحجاج ، و ركّز على ما أشرنا إليه سلفا ؛ " القياس Analogie" ، و دوره في الأبنية البرهانية ، و عدّه نقلا للبنية و القيمة معا . على أساس أن التّفاعل الذي ينجم عن الرّبط بين المقيس والمقيس عليه ، وإن كان يؤثّر بشكل أوضح على المقيس ، فإنه يؤثر أيضا على المقيس عليه من خلال البنية ، وعبر انتقال القيمة المترتبة عليها ، فهنا يتجلى دور هذه الأقييسة في عملية الابتكار وعمليات البرهان معا ، خاصة لما يتبعها من نمو وامتداد (4) . وانطلاقا من كون الاستعارة عمل فكرتين لشيئين مختلفين معا (المشبّه والمشبّه به) ، أو (المحمول والحامل) ، فهما يشكّلان تفاعلا ينتج المعنى من خلال سياق معين ، وفكرة السياق تجعل الاستعارة عند " ريتشاردز Richards " ، ليست فقط تحويلا أو نقلا لفظيا لكلمات معينة ، إنما هي كذلك تفاعل بين السياقات المختلفة ،

---

1. عمر أوكان ، اللغة والخطاب ، ص : 131 .
2. نفسه ، ص : 133 .
3. نفسه ، ص 134 .
4. صلاح فضل ، السابق ، ص : 81 .

و يمثّل لقوله بالنّغمة الواحدة في أية قطعة موسيقية ، والتي لا تستمد شخصيتها إلا من النغمات المجاورة لها ، وقد يتوافق هذا مع عبارة " ليتش Leech " ، بأن النّصّ اللّغوي إجمالا هو (نصّ في موقف) ، انطلاقا من اعتبار الأشكال البلاغية بنى لغوية وتصوّرية تصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد ، أو بأنها ممارسة للاتصال بين المتكلم والسامع ، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما . وجعل من هذا التّوظيف اللّغوي المعتمد لممارسة الفعل على المتلقي نقطة التقاء واتفاق بين البلاغة والتداولية البراغماتية (1) ، ويترجم هذا نمط الإنزياحات التي يصنّفها " هنريش بليث " في كتابه : ((البلاغة والأسلوبية)) في : الصّور البلاغية والصّور التّداولية ، وتعتبر كلّ واحدة منها انزياحا أو نسقا من الانزياحات اللسانية ، أو انزياح بالقياس إلى معيار التواصل اللساني (2) :



وبهذا يكون للاستعارة بوصفها انزياحا وجهان : بلاغي وتداولي .

والسّياق الذي سبقت الإشارة إليه ، هو الذي يمنح الاستعارة تداوليتها من خلال التأثير الذي تحدثه في المتلقي . وصدورها عن موقف الملقي وموقعه ووضعه الاجتماعي وانتمائه الإيديولوجي << يفضي بالمتلقي إلى الوعي والحصول على التّجربة المعدلة للسّلوك ، والمحولة من الإنفعال إلى الفعل ، ومواصلة السيرورة التطورية >> (3)

فهذا الاستحداث المتميز والمبتكر للاستعارات بأساليبها وأنواعها يسهم في تطور اللغة ودلالاتها التّداولية ، << وتطور اللّغة علامة على تطوّر الحياة ، والتّطور مبدأ من مباديء التّداولية >> .

---

1. صلاح فضل ، السابق ، ص ص : 97 ، 98 .
2. عمر أوكان ، السابق ، ، ص : 173 .
3. محمد سويرتي ، اللغة ودلالاتها : تقريب تداولي للمصطلح البلاغي ، عالم الفكر ، الكويت ، ع3 ، يناير / مارس 2000 م ، ص : 42 .

و تتضح تداولية الإستعارة في قول " جورج لايكوف Georges Lakoff " و " مارك جو نسن Mark Johnson " : << انتبهنا إلى أن الاستعارة حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية .إنها ليست مقتصرة على اللغة ، بل توجد في تفكيرنا ، وفي الأعمال التي نقوم بها أيضا . إن النّسق التصوري العادي الذي يسير تفكيرنا وسلوكنا (لذو) طبيعة استعارية بالأساس >> وهنا يبدو أن التداولية هي تفاعل النّظر الإستعاري بالممارسة الفعلية ، كما تظهر كذلك في أهمية السياق في فهم دلالاتها الاستعارية .

ويأتي " المثل " كامتداد للاستعارة التمثيلية ، وكصيغة لا تتغير أبدا رغم تغير السياقات التي يرد فيها باعتباره حجّة ودليلا وبرهانا . و على صعيد التداولية ، المثل أضيق مجالا عند وروده في صورة أطروحة لا نقيض لها ، لأن النقيض تداولي بتحقيقه للجدلية ، لذا فالجدلية تداولية و التداولية جدلية ؛ << فالمثل السّائر " **إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب** " يتيح تحقيق تداو ليته بالقلب فنقول : " إذا كان الصمت من فضة فالكلام من ذهب " . و تتجلى تداولية المثل " الصمت حكمة " أولا في كون قائله نفسه لم يلتزم الصمت . فلو التزم به لما عرفت هذه الحكمة ذاتها . و بالتغير النسبي لهذا المثل ، يصير متضمنا للتركيب الجدلي ، و هكذا يبدو على النحو التالي : " إن في الكلام و الصمت لحكمة " . فالعلاقة جدليّة بين الكلام و الصّمت >> .

كما أن الكلام يوجد على حدود الصمت ، و يقع الصمت على تخوم الكلام . و كلاهما يتضمّن نقيضه . و بناء على ذلك ، فكلما كان المثل جدليا ؛ أي تركيبا جدليا للأطروحة و النّقيض ، كلّما كانت تداو ليّته أرحب . بهذا تترتّب البرهنة و الحجاجية و الاستدلال على جدلية المثل ، التي تكون أقنع للمتلقي و أوقع في نفسه ، و أشفى لغليله ، و يتمظهر التّمثيل في صور عدّة :

– المثل الجدلي و غير الجدلي .

– التمثيل البلاغي الذي يأتي على شكل نص سردي ، أو سرد حواري .

– الأمثولة التي تتخذ شكل أسطورة أو حكاية أو قصة أو رواية حوارية .(1)

فمن هنا نقف على أن الاستعارة بما يتفرع عنها ، كشكل من أهم الأشكال البلاغية القياسية (التمثيلية) ، وجه أسلوبي حجاجي فاعل في رسم معالم الخطاب الحجاجي البلاغي ، كما يتوفر على بعد تداولي يعمل بتضامنه مع البعد البلاغي على تطورية اللغة باعتبارهما – البعدين البلاغي و التداولي – انزياحات تخرق و تنتهك اللغة الطبيعية ، لكنها في الوقت ذاته ابتداع و ابتكار جمالي و وظيفي بتحقيقه البعد التواصلي لهذا النوع من الخطابات .

---

1. محمد سويرتي ، اللغة و دلالاتها ، ص : 42.

ب– الخصائص المناظراتية للخطاب الحجاجي الفلسفي :

تتفق الدراسات المتطرقة للحجاج في الخطابات و المتون الفلسفية على تداول مصطلحات تدور في امدار الأكبر (الحوار) ، و تختلف من درس إلى آخر وفق وجهات نظر لا تتباين حتى تتفق في الأخير على الوظيفة الواحدة لهذه المصطلحات .

و نعني من هذه المصطلحات خاصة : " الجدل " ، " احوار " ، " التّناظر " أو " المناظرة " ، " المحاورة " ، [...] فالجدل هو أصل في الفلسفة قبل أن تصبح أنساقا و متونا و مذاهب ، << و على الرغم من أن عددا من الفلاسفة اليونان قد حاولوا أن يرسموا الحدود الفاصلة بينهم و بين الجدل – خاصة الجدل السفسطائي – فإنهم في أعمالهم الفلسفية لم يمارسوا سوى الجدل و المحاجة >> (1) .

و في هذا تأصيل للجدل في الفلسفة ، و إعطاء صلاحية حجاجية بقرنه مع المحاجة في آن معا ، و ما دام الأمر كذلك ، فإن الجدل و الحوار في الحجاج الفلسفي يتأصلان كآلية معرفية في إطار تداولي مرتبط بخلفية لسانية علمية حديثة لا بخلفية مذهبية أو ديماغوجية :<< البعد الجدلي والحواري في الأعمال الفلسفية هو بعد لا أحد يستطيع إنكاره ، و يمكن القول ، و الحالة هذه ، إن الحجاج الفلسفي لا ينجلي و ينقشع إلا مع ممارسة الجدل العقلي و الفكري بمعناه التداولي لا بمعناه المذهبي أو الديماغوجي >> (2) .فالاستدلال الحجاجي لم يرتبط بالبراهين و الحسابات الصورية ، لارتباطه بالجدل و المناقشة و المواجهة بين الأفكار و الأطروحات ، و هذا النوع من الممارسة قائم منذ " أفلاطون " و "أرسطو" ، (أي منذ أعمالهم نفسها) ، حيث كان الاستدلال الحجاجي ضرورة في الفلسفة تضفي التصديق على أطروحة ما ، بحشد التعليلات والمسوغات والحجج المدفعة عن أطروحة أصحابها ، أو الداحضة والمصححة لأطروحة الخصم ، أو المسوغة والمكملة لأطروحة النّصير .

إن الموقف أو الأطروحة المراد بسطها وعرضها على الطرف الآخر ، تكون في إطار مشهد فكري حواري جدلي (تناصي) صراحة أو ضمنيا ، وهذا استجابة للاعتبارات التي تعنى بمختلف التجاوبات العقلية لها (الانعكسات) وافقتها أم لم توافقها .

وهذا يجعل من الأرضية الحوارية الجدلية بمعناها التداولي والتواصلي مستندا للاستدلال الحجاجي في الفلسفة لا تقف بدونه .

1 و 2 . حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص : 119 .

والحوارية والجدل كمتطلبات فلسفية يتمان بطريقة خلاقة وابتكارية ، تفرضها خصائص الفضاء الثقافي الذي يفكر فيه الفيلسوف ، وكذا الاختيارات الخطابية و الأسلوبية لديه . وعندما يتجسم التفكير الفلسفي الحواري والجدلي في خطاب عقلي متماسك ، يصبح من الصعب الإفصاح عن كل المضمرات والمقتضيات الحجاجية التي يوجّهها المجادل أو المحاور سواء للآخرين أو لذاته ، لأنه في مجال الفلسفة تكون أمام نسق من الأفكار والمعاني المترابطة والمتداخلة فيما بينها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، و ما من قاريء لنصوص الفلاسفة إلا ويتملكه شعور قوي إزاء الإرادة العميقة لهذه النصوص في إشراك الآخر بخصوصيته أو كونيته كمنصت متفق أو كمحاور مخالف . وإذا لم يكن الأمر كذلك فلأجل من يستدل ويحاجج الفيلسوف ؟ و لمن يضرب الأمثال ويتساءل ؟ ولماذا يثبت و ينفي ، وينتقد ويرجّح ؟ ولماذا يستشهد ويلمّح ، ويحلّل ويفسّر ؟

من هنا تتضح القيمة الخاصة للحجاج الفلسفي في توخيه إفحام كل عقل مهيء للتفكير العقلاني ، ومن ثم فالطريقة تهدف لمنح الأفكار قوتها الإفحامية وذلك عن طريق الجدل والحوار (1) .

ومن جهة أخرى يسمي " طه عبد الرحمن " الخاصية الجدلية والحوارية للحجاج الفلسفي بـ " المناظرة " ، وآلتها الخطابية " الاعتراض " من منطلق << أن الحجاج الفلسفي التداولي هو فعالية استدلالية خطابية مبناها على عرض رأي أو الاعتراض عليه ، ومرماها إقناع الغير بصواب الرأي المعروض أو ببطلان الرأي المعترض عليه ، استنادا إلى مواضعات "البحث عن الحقيقة الفلسفية " >> (2).

والمناظرة عنده هي بنية معرفية لإحدى المراتب الحوارية ألا وهي " المحاورة " ، والمحاورة منهج حجاجي يستند إلى نماذج تنتمي إلى المجال التداولي ، وهذا يتيح له سلوك أوسع وأغنى سبل الاستدلال ، وذلك باعتماد الحاورة في بناء نصه على :

1)–الصور الاستدلالية مجتمعة إلى مضامينها أوثق اجتماع .

2)–أن يطوي الكثير من المقدمات والنتائج ، ويفهم من قوله أمورا غير تلك التي نطق بها .

3)–يذكر دليلا صحيحا على قوله من غير أن يقصد التّدليل به .

4)–يسوق الدليل على قضية بديهية أو مشهورة هي في غنى عن دليل للتسليم بها .

كل ذلك لأنه يأخذ بمقتضيات الحال من معارف مشتركة ومعتقدات موجهة ومطالب إخبارية وأغرض عملية .

1. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص ص : 119 ، 120 .

2. طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص : 66 .

وكلّ سبيل استدلالي يكون هذا وصفه هو سبيل حجاجي ، يقيد فيه المقام التراكيب ، ويرجع فيه العمل على النظر .

وتعد " المناظرة " من أبلغ النّصوص في إظهار كيفية اشتغال آلية الاعتراض والمناظرة هي لفظ الأقدمين مقابل التناص في السيميائيات الأدبية ، لذا يسمي " طه عبد الحمن " المناظرة بلفظ " المحاورة القريبة " ، والتناص بـ " المحاورة البعيدة " (1) .

أ- **المناظرة " المحاورة القريبة " :**

هي << النظر من جانبين في مسألة من مسائل قصد إظهار الصواب فيها >> ، فالمناظر هو من كان (عارضا) أو (معترضا) ، وكان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف ومشروع في اعتقادات من يحاوره سعيا وراء الاقناع والاقتناع برأي سواء ظهر صوابه على يد هذا أو على يد محاوره ، وتمتاز (المناظرة) عن (الحوار) بإقامة تقابل يتواجه فيه (العارض) و (المعترض) . ولا يمنع اختصاص كل منهما فيه بحقوق وواجبات معينة من حضورهما معا في إنشاء نص (المناظرة) منطوقا ومفهوما .

ب- **التّناص " المحاورة البعيدة " :**

يتم على طريقتين :

1) **الطريقة الظاهرة :**

يعرض فيها (المحاور) شواهد من أقوال الغير مثل : " النقل " و " التّضمين " و " الحكاية " و " العنعنة " و " الشرح " و " الاقتباس " و " التعليق " ... .

2) **الطريقة الباطنة :**

ينشيء بها (المحاور) نصه عبر نصوص سابقة مماثلة أو مباينة ، ويفتح بها آفاق نصوص أخرى مكّملة أو مبدّلة ، فيصطبغ عندها النّص بصبغة المغايرة الصّميمة (2) .

ونلاحظ أن المحاورة أو المناظرة بهذين الاصطلاحين يهدفان إلى إحداث نوع من الاشتراك ، أو إشراك الغير بصورة المعترض في إنشاء النص وفي توسيع آفاقه بطريقة الحجاج ، إلا أنها لا تبلغ بهذا الاشتراك درجة التفاعل بين المحاور ونظيره لتوقفها عند الإبلاغ والقصد فحسب .

---

1. طه عبد الرحمن ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص : 46 .

2. نفسه ، ص : 47 .

ج- الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي التّداولي :

يعد المستوى الحواري أو التّحاوري من أهم مستويات تجلي البعد التداولي للخطاب الحجاجي انطلاقا من تجذر هذه الظّاهرة التّخاطبية الحوارية في صميم كل خطاب على الإطلاق ، وهذا ما وحي به "فرانسواز أرمينكو " في قولها : << تعد الحوارية مكونا لكل كلام ، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين توجدان في علاقة حالية ، ويقدّم المبدأ الحواري من خلال الحدود التالية : "كل تلفّظ يوضع في مجتمع معني ، لابدّ أن ينتج بطريقة ثنائية ، تتوزع بين المتلفظين الذين يتمرّسون على ثنائية الإصاتة وثنائية العرض >> (1) . على حدّ قول " فرانسيس جاك F.Jacpues "، والحوارية وحجاجها من نتائج العملية التواصلية وهذا يصعّب حصر كل اتجاهات المناقشة والتخاطب الحجاجي ، حتى مع محاولة وضع قواعد ومسلمات لذلك ، كالتي سمّاها "كرايس Grice " مباديء المناقشة القائمة على التّعاون ، وتتلخص هذه المباديء في :

1) مبدأ الكم : اشتمال مساهمة المناقش على كمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان.

2) مبدأ الكيف : المساهمة في النقاش تكون حقيقية لا تؤكد ما يعتمد صاحبها أنه خطأ ولا تؤكد ما هو في حاجة إلى الحجج .

3) مبدأ العلاقة : التكلّم في صميم الموضوع ، وعند الضّرورة .

4) مبدأ الطريقة : الوضوح في الكلام ، وتجنب الالتباس في الحديث ، وكذا تجنب الكلام الغامض ، مع توخي الاختصار والمنهجية .

وهذه المباديء لا تكتسب تداولينتها أو حجاجيتها إلا في نطاق النشاط الخطابي باعتباره نشاطا عقليا . وهذا النشاط بدوره ليس معزولا عن مضمونه السوسيو – أخلاقي والتّواضعي (العرفي) ، ودليل ذلك أن كل مناقشة أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر وتواصل معه (2) .

ومادامت الحوارية هي العلاقة التخاطبية بين مخاطب ومخاطب ، فإنه يمكن أن تتنوع الأداءات هنا ، وتتغأير العلاقات التخاطبية ، ولا سيما في الخطابات التداولية ، و من بين هذه التباينات أو الظواهر :

---

1. حبيب أعراب ، السابق ، ص ص : 102 ، 103 .

2. فرانسواز أرمينكو ، المقاربة التداولية ، ص : 85 .

التكوثر **1– التشخيص Personnification :**

وهو خاصية تلفّظيّة كما يسميها " بانفنيست " ، حيث إن التّلفظ يتميز بحدّة العلاقة الخطابية مع الشريك سواء أكان شريكا حقيقيا أو متخيّلا ، فرديا أو جماعيا ، وهذه الخاصّيّة تطرح ما يسمّى بـ : " الإطار التّشخيصي للتّلفظ " ، وهذا التّلفظ كبنية حوارية يتخذ صورتين ضروريتين : مصدر التّلفظ وهدف التّلفظ (1).

بينما يدرج " طه عبد الرحمن " هذه الظاهرة كنوع من أنواع الحجاج ، سماه : " الحجاج التقويمي " ؛ وهو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرّد من نفسه ذاتا ثانية ينزّلها منزلة المعترض على دعواه ؛ فها هنا لا يكتفي المستدلّ بالنّظر في فعل إلقاء الحجّة إلى المخاطب واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط ، بل يتعدى ذلك إلى النّظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي ، فيبني أدلّته أيضا على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به ، مستبقا استفساراته واعتراضاته ومستحضرا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفا إمكانات تقبّلها واقتناع المخاطب بها . وهكذا ، فإن المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه ، ومراعيا فيه كل مستلزماته التّخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعامليّة ، حتى كأنه عيّن المستدلّ له في الاعتراض على نفسه (2) .

أمّا " بيرلمان " ، فينطلق من فكرة أن الحجاج ليس في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول ، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها ، والإصغاء إليها ، ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي " L ‘adhision Positive " والتحامها مع الطّرح المقدّم ، فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلا غاية ولا تأثير ، والنقاش أو الحوار من مقتضيات هذا التأثير أو الإقناع ، وهو يكون – الحوار أو النّقاش – إما :

1 صريحا :

عند اتّخاذ مواقف علنية معيّنة .

2 ضمنيّا :

عندما يجرد المتكلّم (خطيبا أو كاتبا) من نفسه محاججا (محاورا) خاصّا يتناول معه هموم المخاطبين ، ويساعده على تبيّن هفوات الطّرح ، وأماكن الضّعف فيه ، كي لا يقع في بعض العيوب الخطابيّة أو الكتابيّة التي تدخل التّناقض والتّفكّك إلى النّصوص .

1. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي ، ص : 104 .

2. طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو العقلي ، ص : 228 .

فالمخاطب المتخيّل هو دائما بالنّسبة لمن يحاجج عبارة عن " بنية ممنهجة " نوعا ما ؛ أي أنه يؤطّر القول ، ويجعله ملائما لظروفه الوارد فيها . فهذا المحاور المتوهّم الذي على الخطيب تجريده من نفسه ، أو من المقام ، يعد خطّة منهجية ضرورية من صنع الخطيب ذاته ، وبالتالي ممكن لنا القول إنه داخل في إطار العلاقة بين الجوانب النّفسية البحتة بالأطر الحجاجيّة .

والمتكلّم (خطيبا أو كاتبا) لا يستطيع تخيّل هذا المخاطب ما لم يكن على دراية عميقة بأحوال المخاطبين الرّاهنة ، وبموروثهم الثّقافي والحضاري ، وبهموم مستقبلهم .

ثم إنّ على المتكلّم الحذر في تخيّل هذا المخاطب ، لأن الخطأ في التّقدير قد تنجم عنه ردّة فعل عكسية تودي بمسار البناء الحجاجي بكامله .

فهذا المخاطب هو الحامل للخصائص الجماعية الكبرى التي يتقاطع فيها السّواد الأعظم ، إنّه بعبارة أخرى : الثقافة والحضارة والمجتمع والنصوص الخلفية الثّاوية في اللّاوعي الجماعي الموجّهة للوعي وللفهم وللتعامل داخل الزّمرة الاجتماعية الخاصّة ، وبالتالي يكون الخطأ في رسم صورته الفعلية مؤديا حتما إلى نتائج عكسية تماما (1) .

وفكرة المخاطب المتخيل أو ما يسمى بـ (الخلق) ، أخذت تجليات عدة عند " بيرلمان " :

1- المخاطب الكوني (من دون خصائص أو معالم محددة أي عاما شاملا) .

2- المخاطب المحدد النّابع من مكونات مقام القول وإمكاناته التي على المتكلم – أيا كان – الإجادة في استغلالها والاعتدال في توظيفها .

3- المخاطب النابع من " الفاعل " أي المرسل للقول ذاته ، وجزءا من تجريداته وطموحاته (2) .

---

1. محمد سالم ولد محمد الأمين ، مفهوم الحجاج عند ((بيرلمان)) ، ص ص : 68 ، 69 .

2. نفسه ، ص : 79 .

2- لمقام Situation :

يقرن " صلاح فضل " مصطلح المقام بالسياق في التداولية ، وذلك لأن التداولية << تستخدم مفهوما تجريديا يدّل على الموقف التّواصلي هو " السياق " . فالتداولية إذن تعنى بالشروط والقواعد اللازمة للملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به ؛ أي للعلاقة بين النص و السياق >>(1). و لا يشمل السياق من الموقف إلا العناصر التي تحدد بنية النص و تؤدي إلى تفسيره ، و هذا يجعل من التّداولية علما يعنى بالعلاقة بين النص و عناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم ، أو ما يطلق عليه : سياق النّص . و هذا المفهوم التداولي يحيل على ما كان يشار إليه في البلاغة القديمة بعبارة : "مقتضى الحال " ، و هي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية : " لكلّ مقام مقال " (2) .

و قد قسم "جميل عبد المجيد " تصور البلاغيين العرب للمقام قسمان :

أ–مرحلة النشأة و التأصيل :

كانت معالجة (مقام المتلقي) فيها انعكاس و توطيد لواقع الفارق الطبقي الحاد بين السيد الحاكم و العبد المحكوم في المجتمع العربي القديم ، و هو واقع وجبت مراعاته بغية استرضاء الطبقة العالية ؛ لجلب خيرها و دفع شرّها فكان في هذه المعالجة ترسيخ للوظيفة الإفهامية للبلاغة العربية ، و هي وظيفة مقرونة بمخاطبة العامّة و من ليسوا من ذوي الأفهام ، و تنحصر وسائلها في استخدام اللفظ القريب المفهوم و الإطناب ، و هي وظيفة لا غنى عنها في الحجاج ؛ إذ تهدف نحو تحقيق الغاية الإقناعية .

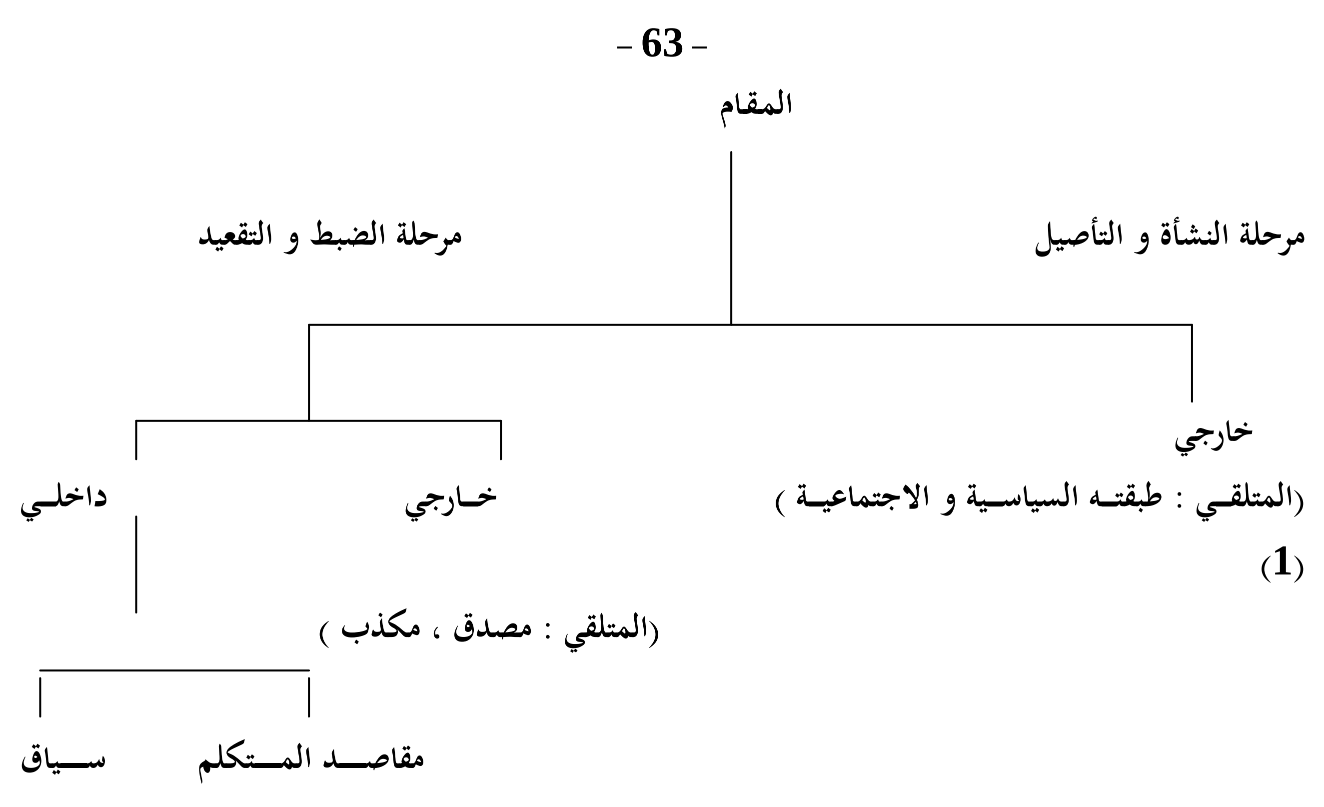
ب– مرحلة الضبط و التقعيد :

كانت فكرة (المقام) فيها ؛ فكرة افتراضية تمت معالجتها على نحو تقعيدي تعليمي (إذا كان المقام كذا فالمقتضى كذا) ، و ركزت هذه المعالجة على افتراض المتلقي الشّاك المنكر ؛ مما يجعل غاية البلاغة (إيقاع التصديق) ، و هي غاية تستوجب – فيما رأوا – الحسم و المصادرة من قبل المرسل ؛ و بهذا يبدو التّوكيد اللغوي حجة الخطاب العربي في إيقاع التصديق (3) . و يمكن تلخيص هذين القسمين في الشكل التالي :

1- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، ص : 25.

2- نفسه ، ص : 20.

3- جميل عبد المجيد ، البلاغة و الاتصال ، ص ص : 131 ، 132.



المقال

أما (المقام) في التصور "البيرلماني" ، فقد حظي باهتمام كبير باعتباره البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية و حقائق علمية و قرائن بلاغية و قيم بشتى أقسامها و علاقة هذه القيم بمراتب الكائنات و الأشخاص المعنيين بخطاب ما . و ذلك بوصف هذه العناصر المذكورة أسسا حجاجيّة لا بدّ من طرحها بصيغ مختلفة في " المقام " نظرا إلى أن المخاطبين يشتركون في الإقرار بأبرز معالمها ، و إن ظل ذلك الإقرار متباينا بحسب طبيعة الشخص و تكوينه .

كما أنه على المتكلم التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بالعلاقة مع المقام و الموضوع معا . و يدخل في هذه المقدمات ما يرد ذكره من حقائق فعلية و أحداث معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية ، لكن ذكرها في الخطاب أو النص لا بد أن يكون له طابع حجاجي ، و لن يكون كذلك إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعا جدليا مع أحداث أخرى كان المخاطب يتوقع ذكرها ، لكن المتكلم رغب عنها لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها ، وذلك لتصير فعلا هي الملائمة للمقام (2) .

1- جميل عبد المجيد ، البلاغة و الإتصال ، ص : 131 .

2- محمد سالم ولد محمد الأمين ، السابق ، ص : 83.

و يقدم "بيرلمان " تصورين أساسين للمقام :

1- فهو تارة يعتبره الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية ، ولكل المشاركين فيها

2- و تارة ثانية يعتبره تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج و ترتيب القيم .

و المقام في التصور الأخير (الثاني) ، تجريدي أساسه المجاز و التلميح ، لذا يمكن اعتباره << قيمة بلاغية ذات وظائف أسلوبية مساهمة في خلق الإنسجام التّام بين الشكل و المحتوى >> (1) .

و قيمة المقام بهذه الصورة (البلاغية التداولية) ، نتيجة للتحول البلاغي المكتسب للتواصلية الفكرية ، و الذي شكل ما يسمى بـ (البراغماتية المقامية) ، و هو مفهوم ينظر إلى الظروف الاجتماعية والمذهبية والحضارية و مختلف السياقات الحافة بعملية التواصل (قراءة / كتابة – سماعا / رؤية) (2) .

و بهذا يكون المقام شرطا تداوليا و بلاغيا في آن معا ، لعنايته بشرط موافقة أفعال القول لمقتضى الحال و الموقف الخاص به .

1- محمد سالم ولد محمد الأمين ، السابق ، ص ص : 85 ، 86 .

2- نفسه ، ص : 91 .

و حاصل القول في نهاية هذا الفصل الأول، أنّ الدّراسات المتعلّقة بالحجاج انطلاقا من أسسها المعجمية . و في مختلف اللّغات – و انتهاء إلى التّنظير و التّقعيد ، لم تختلف اختلافا جذريا فيما بينها ، و لا سيما و أنّها تعتمد مصدرا واحدا في انطلاقتها ، و هو (التّنظيرات الأرسطية) التي اجتمعت عليها الدّراسات القديمة – الغربيّة و العربيّة – باتّخاذ الخطاب ميدانا لها ، و كانت انطلاقة بالنسبة للدّراسات الحديثة ، و إن اتّخذت مناحي مختلفة نوعا ما ، لا سيما عند " بيرلمان " الذي وسّع مجال الحجاج كتقنية خطابية من ميدان الخطبة و الشّفويّة إلى النّصوص المكتوبة في المقام الأوّل ، وذلك بإغفاله لطرق الأداء
و تقنيات الحركة و الإشارة و غير ذلك من الأفكار التي شكّلت نظريّة حجاجية (برهانية) حديثة سارت على خطاها الدّراسات التّالية المتعلّقة بهذا المجال ، وإن تفرّعت و تنوّعت بها أنواع الخطابات الحجاجية التي وقفنا منها على ثلاثة أنواع بخصائصها في :

1. الخطاب الحجاجي البلاغي و خصائصه الأسلوبيّة : الاستعارة والتّمثيل .
2. الخطاب الحجاجي الفلسفي و خصائصه المناظراتيّة : المناظرة (المحاورة القريبة) و التّناص (المحاورة البعيدة) .
3. الخطاب الحجاجي التّداولي وخصائصه الحواريّة : التّشخيص و المقام .

وهذه الأنواع بخصائصها أفسحت مجالا واسعا لاستنباط تنوّع هذه الخطابات باختلاف أصولها و امتداداتها المعرفيّة و المنهجيّة ، و الوقوف على أهمّ مواضع تداخلها و اتّفاقها لا سيما الإفهام و الإقناع بآلية الاحتجاج الخطابيّة ، و التي سيتيح الفصل الثّاني التّطبيقي فرصة توضيحها و إجلاء عمليّتها في النّصوص الأدبيّة خاصّة .

الفصل الثاني :

أنواع الخطاب الحجاجي و خصائصه

في ((كتاب المساكين)) ل :

" الرافعـي " .

– أنواع الخطاب الحجاجي وخصائصه في (كتاب المساكين) للرافعي :

تمهيد :

يعرّف الخطاب الأدبيّ بأنه : << خلق لغة من لغة >> ؛ أي أن صانع الأدب ينطلق من لغة موجودة ، فيبعث فيها لغة وليدة وهي لغة الخطاب الأدبي (1) ، وهذه عمليّة تحوّل لغة عن لغة سابقة ، وتعفيها من حدود الاستعمال السّابق ، وتسبغ عليها صبغة الأسلوبية كوظيفة مركزية منظّمة ، أو ما يسمى بالوظيفة الشّعرية عند " جاكبسون Jackobson " التي تجعل من النّص خطابا أدبيّا ، وبذلك يمكن لهذا الخطاب أن << يفرز أنماطه الذّاتية وسننه العلامية والدّلالية ، فيكون سياقه الدّاخلي هو المرجع ، ليقيم دلالاته حتى لكأنّ الخطاب هو معجم ذاته >> (2) حسب رأي " بيارجيرو " ، وهو بالإضافة إلى ذلك ذو لغة تمتاز بمعطى جوهري ، لارتباطه بأصل نشأة الحدث اللّساني في كلتا الحالتين : نشأة الكلام العادي عن مجموعة انعكسات مكتسبة بالمران والملكة ، ونشأة الخطاب الأدبي بصوغ اللّغة عن وعي وإدراك حسب رأي " فاغنر " ، وهذه الصّياغة أو عملية الخلق الواعية تميّز طبيعة الخطاب الأدبي التي تتطلّب استعدادا معيّنا ييسّر عملية الإستيعاب والتّفاعل ، ويتجسّد هذا الاستعداد في أنّ امتلاك عدّة الدّخول إلى حضرة الخطاب وتحليله هي التّمكن من كثير من المعارف التي يستعملها الدّارس أدوات لتحليل الخطاب ، وفكّ مغاليقه ، وتحديد دلالاته ورؤاه ، وهذا يجعل من الخطاب امتدادا للقاريء ، يحرّره من الوضع الأول (المكتوب) ، ليرتبط بما يمليه على القاريء في عمليّة تلقّيه . كما أنّ الخطاب الأدبي ليس إلاّ صورة من داخل خطابات أخرى سابقة عليه تمنحه خصوبته وتمكّنه من تواصله مع قارئه ، فهو إذن ، شحنة من الخصائص اللّغوية والنّفسية والثّقافية والحضارية (3) . وقد لخّص " عبد الرحمن الحاج صالح " إجرائية تحليل الخطاب في الكشف عن طرق الأداء التي اختارها صاحب الخطاب ليعّبر عن أغراضه (4) . وهذا مغاير لتحليل المضمون " L'analyse de Contenu " الذي يسعى إلى << الوصول إلى الأغراض الحقيقية التي من أجلها حرّر صاحب الخطاب خطابه ، مع البحث من خلال النّص وحده عن الأدلة التي تدل بالدليل القاطع

---

1 – 2 . نور الدين السد ، الأسلوبية و تحليل الخطاب ، ج2 ، ص : 11 .

3. نفسه ، ص : 12 .

4. عبد الرحمن الحاج صالح ، التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة العربية ، المبرز ، ع6 ، الجزائر ، 1995 م
ص : 09 .

على وجود هذه الأغراض >> (1) .

ولرّبما كان في تحليل الخطاب الحجاجي انطلاقا من مدوّنة أدبيّة كمدوّنة <<كتاب المساكين >> " للرّافعي " جمع بين إجرائيّة تحليل الخطاب في كشف طرق الأداء مع الاحتياج إلى تحليل المضمون كفكرة تفرض بتنوّعها تنوّع أساليب الحجاج وأداءاته . ويتحدّد كلّ هذا بالتّدقيق في السّمات المقاليّة التي جاءت في هذا الكتاب كونه مجموعة من المقالات ، تحدّدت فيها أساليب وإجراءات الطّرح الحجاجيّ لدى " الرّافعي " .

1- سمات المقال عند " الرّافعي " :

تباينت صور المقال وأنواعه وموضوعاته عند " الرّافعي " من مؤلّف إلى آخر ، لكنّها في عمومها لم تختلف عمّا تمّ الإجماع عليه من سمات المقالة الأدبيّة بصفة كلّية ، مثل :

– الإهتمام بوضوح الفكرة ، وإبراز عناصرها الأساسية ، وتقديم الحجج والبراهين المنطقية والإنسانية التي تؤدّي إلى التّأثير والإقناع .

– الاهتمام بالجانب الوجداني ، ؛ بحيث تظهر أصالة الكاتب ورؤيته الخاصة ويتّضح طابعه المتميّز في التّفكير والتّعبير ، مثلما تبتديء عاطفته الصّادقة .

– توظيف مؤهّلات الكاتب الفنّية في التّشويق والإمتاع ؛ بحيث يشدّ قارئه ويؤثر فيه ، وينقل له تجربته في الحياة ، ووعيه بقضاياها بأسلوب جميل خال من الغموض والتّعقيد ، بعيد عن الرّكاكة والابتذال ، مجاف للتّكلّف والصّناعة المستهجنة .

– تجمع المقالة بين ذاتية الكاتب المتمثّلة في التّعبير عن فكره ، وموضوعيّة التّجربة التي يكتب فيها سواء أكانت أدبيّة أم اجتماعيّة أم دينيّة أم سياسيّة ، ولهذا تتجلّى فيها مدى أصالته ، وسعة ثقافته ، وعمق خبرته بالحياة .

– مجال المقال مفتوح لكل الموضوعات الإنسانية والأدبية والاجتماعية ، وبذلك تستوعب التّجارب التي تجيش في صدر الإنسان ، وينفعل بها مجتمعه وترقى بها إنسانيته ، ومعنى هذا أنه يشترط أن يتوافر في المقالة الأدبية : صدق الإحساس ، وأصالة الكاتب في التعبير عن ذاته ، ووجهة نظر بارزة يتبنّاها ويتحمّس لها ويدافع عنها ، وتوظيف المهارات الفنّية لصياغة أسلوب يجمع بين جمال التّعبير وقوّة الإثارة والإقناع .

و ممّا يلحّ عليه نقّاد المقالة والباحثون في فنّها وأصول كتابتها :

– وضوح الفكرة أو الحجّة التي تبنى عليها المقالة ، مع شواهد جليّة وحاضرة ، تعين على تقديم الفكرة وإن كانت في جوهرها غاية في التّعقيد ، مع بساطة عرضها وتلقائيّة حركتها ونموّها في المقالة (2) .

1. عبد الرحمن الحاج صالح ، المرجع السابق ، ص : 10 .

2. إبراهيم السعافين وآخرون ، أساليب التعبير الأدبي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، دط ، 2000 م ، ص ص : 258 ، 259 .

– وإضافة إلى توافر هذه السّمات في عموم مقالات " الرّافعي " ، فقد اختصّ بسمات أسلوبيّة طبعت فنه المقالي، وفرقته عن غيره من الكتّاب ، من بينها :

أ– الاهتمام بجمال الصّياغة ، وروعة البيان الذي يعتمد على توليد المعاني ، واعتصار الأفكار ، ومزج الخواطر ، بحيث يضحي الأسلوب عميقا ومركّبا يحتاج إلى معاناة وجهد في إدراك مراميه .

ب– استخدام المجازات المركّبة ، و الاستعارات الغريبة ، و التّشبيهات البعيدة ، و الكنايات الخفيّة ، فيتكون أسلوب متماسك يجمع سعة الخيال و عمق العاطفة ، و طرافة الفكرة ، و جدّة الخاطرة ، فأسلوبه كما يقول أحد الباحثين المعاصرين : << أشبه بعملية تقطير لألوان من الزّهور المعروفة ، و الورود المألوفة ، و الرّياحين الشّائعة لاستخلاص عطر مركّب غريب ، فيه جمال ، و لكن ليس فيه بساطة ، و فيه متعة ، و لكن ليس فيه جلاء ، و فيه فنّ ، و لكنّه فن المهارة التي تسيطر على الفطرة >> .

ج– الاتكّاء على التّراث الإسلامي و العربيّ ، خاصّة مقالاته التي جمعها و نشرها في كتابه : ((وحي القلم)) ، فهو يقتبس من القرآن و الحديث الشّريف ، و يضمّنها أبياتا من الأشعار السّائرة و الأمثال النّادرة ، لأنّ مقالاته كانت تضمّ مواقف إسلامية ، و خواطر نفسية ، و مشاعر إنسانية ، و نظرات إصلاحية .

د– توظيف المحسّنات البديعية في تحقيق جماليّات الصّياغة اللّغوية ، فقد استخدم المحسنات اللّفظية كالجناس و السّجع في إكساب الكلمات و الجمل تناسبا صوتيا و انسجاما موسيقيا ، مثال ذلك قوله : << و مادام فوق الإنسانية من السّماء قوّة لا تحدّ ، و تحت الإنسانية من السّماء هوّة لا تسدّ >> .

كذلك استخدم المحسنات المعنوية كالطّباق و المقابلة و التّورية ؛ لجذب الفكر ، و إثارة الانتباه ، و توليد المعنى ، من ذلك قوله : << فلن تجري أبدا على ناموس بقاء الأصلح في ظاهرها لإيجاد الأفسد في باطنها >> ، و قوله : << فقيّد أشياء في قيودها ، و أطلق أشياء من قيودها >> .

هـ –الميل إلى تفصيل المعاني وتفريعها وتشقيقها وترتيبها على نحو منطقيّ ، من ذلك : << فإذا هو يزيّن الشّهوات ، وإذا الشّهوات تطوّع المغامرة ، وإذا المغامرة تجلب المنازعة ، وتدفع إلى الحرص ، وإذا الحرص ينصرف بالحيلة ، وإذا الحيلة تهلك التّقوى >> (1) .

وتنوّع استعمال أغلب هذه الأدوات و الأساليب يمليه نمط المقالات أو النّصوص على اختلافها .

---

1. مصطفى الجوزو ، مصطفى صادق الرافعي ، رائد الرمزية العربية المطلة على السوريالية ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1985 م ، ص : 67 .

2- أنواع المقال في ((كتاب المساكين)) :

((كتاب المساكين)) مجموع مقالات تربطها فكرة واحدة تتمثّل في الألم الإنساني الذي يبعث عليه المرض والعشق والفقر ، وهو كما يقول فيه " مصطفى الجوزو " : << ليس عملا تأليفيا بل تجميع >> (1)، ويقول " الرافعي " في عرضه لغرض هذا الكتاب : << فإني وضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر وما هو من الفقر ، لا لمحوه ولكن للصّبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه ، ثم كتبت عن الغنى و ما إليه ، لا رغبة في إفساده على أهله ، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله (2) . ويبرّر عنونة هذا الكتاب بـ " المساكين " بما كتبه تحت عنوان : ((من كمال النّبوّة وأخلاق سيّد الخلق)) . في دعاء " رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " : << اللّهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين >> ، هؤلاء المساكين الذين قال عنهم : << إنّ رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين >> ، و يبرّر "الرّافعي" قوله الأخير<< بأنهم مادة الأخلاق و العواطف ، فهم في الإنسانية كالجيش يقذف به في الممالك لأنه وحده مادّة النّصر ، و على هذا فمن رحمة الله بالنّاس أنّهم في النّاس >> (3) .

و تراوحت موضوعات مقالات الكتاب بين أنواع ثلاثة :

أ– حوارات فلسفية : بحتة تجري بين "الرّافعي" و "الشّيخ علي" ، تجلّت في موضوعات :

1–الفقر و الفقير : الذي يتضمّن موضوع الطّمع و الفقر ، و الحياة و الموت و البخل ، والنّظام الاجتماعي و المسؤولية الفرديّة ، و الفضيلة ، و ما إلى ذلك من تفاصيل و فلسفات تكاد تكون مثاليّة في معالجتها.

2–لؤم المال و وهم التّعاسة : تناول البخلاء و المتكبّرين و الأغنياء و الطّامعين ، الذين سخّرهم الله و جعل لوجودهم مسوّغا كما يمضي في ذلك "الشّيخ علي" .

3– وهم الحياة و السّعادة .

4–الحظّ .

5–الجمال والحبّ .

ب– قصص أخلاقيّة : تضمّنت المواعظ و العبر ، منها :

1–قصة : مسكينة ، مسكينة : تروى مأساة فتاة فقيرة تستجدي امرأة غنية ، فتهزأ من فقرها ، ومن قدرها

---

1. مصطفى الجوزو ، المرجع السابق ، ص :67 .
2. مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، لبنان ، ط ، 2000 م ، ص : 37 .
3. نفسه ،ص: 13 .

الذي وضعها في طريقها ، لكن ما تفتأ الغنيّة أتعس حالا من تلك الفقيرة ، إذ تصاب في ابنتها ، فتفقدها وتغدو مسكينة ذليلة ، زاهدة في دنياها التي كانت تزهو بها .

2- قصّة : سحق اللّؤلؤة : قصّة مترجمة عن رواية << فيكتور ولويز >> على ما يوحي المؤلف ،وهي تحكي قصّة رجل في السبعين تزوّج ابنة عشرين ؛ ليفرح بشبابها ، ولتشقى بهرمه وبخله ، تنتظر موته ، ليطول أجله ، وتطول مأساتها ، ويستغرقها ذلك عشر سنين تسرق جمالها ونضارتها ....

ج- خواطر وتأمّلات : في الحياة والموت ، والفرح والحزن ، والنّقص والكمال ،والحرب ، والحب ، منها :

1-في وحي الرّوح : بمثابة مرثية لأخيه " محمّد الكامل " ، يتأمّل فيها بفلسفة عميقة الموت في الحياة ، و حياة الموت ، و موت الموت ، وما إلى ذلك ....

2-الشّيخ علي : هذا الشّيخ الذي نقله من عالم العوامّ إلى عالم الفلاسفة والحكماء ، وصاغ على لسانه فلسفة من حياته الأرضيّة الحقيقيّة ، ومن الحياة التي سبحت في خيال " الرّافعي " لترقى إلى عالم الملائكيّة والمثل .

وبين هذه الأنواع المقالية الثّلاثة تفرّقت أنواع الخطابات الحجاجية التي سنأتي على دراستها في المباحث الآتية ، وتوزعت أنواع الخصائص الحجاجية التي عملت على تجلية الصّبغة الحجاجية التي أضفاها (الرّافعي) على هذا الكتاب شأنه في ذلك شأن معظم مؤلفاته .

وسيكون علينا في هذا الفصل التّطبيقي الجمع في المبحث الواحد بين نوع الخطاب الحجاجي ، والخصائص المتعلّقة به ، كمنعرج منهجي يحيد عمّا سبق وكان عليه في الفصل الأول ، الذي خصّص فيه مبحث كامل لمجموع الأنواع الخطابية للحجاج ، ومبحث آخر لخصائص هذه الأنواع .

وسيعمل هذا الجمع على تحقيق الاستغراق التّطبيقي على المدوّنة ، وتفادي الفصل بين النّوع الخطابي للحجاج وخصائصه ، لما يترتّب على ذلك من تكرار وتشويش ، ولعله الخروج عن المنهجيّة الصّحيحة للبحث .

المبحث الأول :

الخطاب الحجاجي البلاغي وخصائصه الأسلوبية في ((كتاب المساكين)) :

1. **بنية الخطاب الحجاجي البلاغي في ((كتاب المساكين)) .**
2. **الخصائص الأسلوبية للخطاب الحجاجي البلاغي في ((كتاب المساكين)) :**

أ- الاستعارة .

ب- التمثيل .

المبحث الأول :

– الخطاب الحجاجي البلاغي وخصائصه الأسلوبيّة في ((كتاب المساكين)):

بالتّمعّن في سمات المقال عند "الرّافعي " ، نجد استحواذ الصّيغ والأساليب البلاغية على القسم الأكبر منها ، بحكم تمرّسه باللّغة ،وسعيه إلى ترقيتها ، وبلوغ المستويات العليا في الإنشاء الأدبي خاصّة ، وبالتّالي التميّز بنمط أو منهج أسلوبي خاصّ في الخلق والتّعبير اللّغوي لديه .ولابد لكلّ هذا من صنع ما يسمّى بـ " الخطاب الحجاجي البلاغي " في كتابه ((المساكين)) ، وبأهم خصائصه الأسلوبية ، ولاسيما وأنّ كتابه قائم على طرح مثالي ، ويحمل بذرة إصلاحيّة تهدف إلى التّغيير الذي يصنعه الإقناع قبلا .

1– بنية الخطاب الحجاجي البلاغي في ((كتاب المساكين)) :

الحجاج خطابة ، أو العصب الأساس لعملية الخطابة كوسيلة إفهامية إقناعية ،لا كلون أو جنس من أجناس التّعبير والخطاب ،والبلاغة بعد أسلوبي في الخطابة ، أو لنقل بلاغة الخطاب ، وهذا البعد الأسلوبيّ يحقّق ما يسمّى بالتّأليف الهادف ، باعتباره آلية من آليّات الإبانة والإقناع .

وبما أن تنوّع علوم البلاغة من (معاني ، وبيان ، وبديع) وسيلة لنفاذ معاني الكلام إلى عقل وقلب المتلقّي (سامعا كان أو قارئا) ، وما يقتضيه ذلك من وضوح ومحسنات وأساليب لاسيما الحجاجية منها ، فإن هذا كله أتاح تجلية ما ندعوه بـ : " الحجاج البلاغيّ " .

والخطاب الحجاجي البلاغي المراد تحليله هاهنا مكتوب ، أو جاء في أصله كتابة، والكتابة لم تكن لتفقد الحجاج البلاغي يوما خصائصه الأصليّة :

1– كسب تأييد المتلقّي (القاريء) في شأن قضيّة أو فعل مرغوب فيه .

2– تحقيق إقناع ذلك المتلقّي (القاريء) بإشباع مشاعره وفكره معا ، ليتقبّل القضية ويوافق على الفعل موضوع الخطاب .

وهذا يجعل من الحجاج البلاغي حجاجا موجّها إلى القلب والعقل معا ، بجمعه بين مضمون الحجّة العقلي إلى جانب صورها البيانيّة ، أو ضمّه للتبرير العقلي إضافة إلى المحسنات البيانية ، لأن البلاغة لا تصل إلى الإقناع وحتى الإفهام بتحقيق التّأثير والاستمالة إلا بمعيّة الحجج والمحاجّة ،كون هذه الصّور والأساليب البلاغية تقنيات تستدعيها جمالية الإيصال والتّلقّي ، لكنها غير قادرة على الصّمود والتّماسك أمام نفاذ العقل وتوقّد الشّك إن لم تعزّز بحجج عقليّة قويّة تعكس المعتقد وتمحو الرّيبة وتحقّق الإقناع .

وقبل التّطرّق إلى تفاصيل ومميّزات البنية البلاغية للحجاج البلاغي في ((كتاب المساكين)) . لابدّ من استعراض البنية العامّة للحجاج في هذا الكتاب ، لأنّها بنية واحدة لمختلف هذه الخطابات .

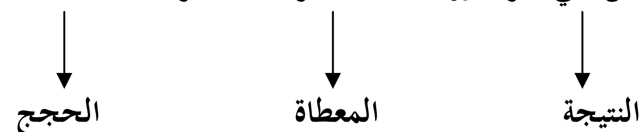
أ– البنية العامّة للحجاج في ((كتاب المساكين)) :

اتّخذ الحجاج عند " الرّافعي " بنية واحدة – في الأغلب – ؛ إذ يبدأ بالنّتيجة أوّلا ثم يدرج بعدها المعطيات والحجج ، << وهذا ما يسمّى بالنظام العكسي (التّنازلي) (Ordre Régressif) >> (1) .

النّتيجة ⟵ المعطيات (الحجج)

مثلا :

من يهرب من شيء تركه وراءه ، إلا القبر ، فما يهرب أحد منه إلا وجده أمامه ، ....(2) .



فالبنية الحجاجية عنده لا تبدأ كما هو معتاد بالمعطاة " donnée " ، إنما بالنتيجة ، وفي هذا انعكاس كبير للتأثر بالأسلوب القرآني ، أو الحجاج في القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

قد أفلح المؤمنون الذّين هم في صلاتهم خاشعون ، والذّين هم عن اللّغو معرضون (3) .



كما تظهر الحجج في هذا الكتاب على صورتين :

1–صورة مباشرة (حجج مباشرة) :

وهي الحجج الصريحة ، وتكون بمثابة مناقشة الفكرة أو الأطروحة الجديدة .

مثلا :

الأطروحة : لذّة المال لا تتجاوز الحواس الظّاهرة .

الحجّة : فهو يبتاع لها كل شيء مما تشهى ، ولكنه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئا إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة (4) .

فالحجّة هنا << فهو يبتاع ....الفضيلة >> ، هي حجّة مباشرة وصريحة تناقش الطّرح الجديد << لذة المال لا تتجاوز الحواس الظّاهرة >> ، بصيغة موجزة وتّامة ، على خلاف النوع الآخر :

---

1. الحواس مسعودي ، البنية الحجاجية في القرآن الكريم ، مجلة اللغة والأدب ، الجزائر ، ع12 ، ديسمبر 1997 م ، ص : 334 .
2. الرافعي ، كتاب المساكين ، ص : 63 .
3. الآيات : (1 ، 2 ، 3) من سورة المؤمنون .
4. الرافعي ، نفسه ، ص ص : 84 ، 85 .

2-صورة غير مباشرة (التّمثيل) :

وتكون الحجة هاهنا إمّا مثالا أو أكثر مضروبا ، يغني عن الشّرح ، والتّفسير . وإمّا تكون بمثابة حجّة ثانية أو (حجّة الحجّة) ؛ إذ تلي التّفسير الأوليّ للأطروحة الجديدة.

مثال الحالة الأولى :

الأطروحة : وهذا " الشّيخ علي " رجل غامض متلفّف بحقيقته العجيبة .

الحجّة : كدهاة السّياسة في شباكهم التي يأخذون بها الأمم والشّعوب ، فلا تبرح ترتبك فيها ارتباك الصّيد في الحبالة (1) .

فهنا يسوق " الرّافعي " هذا المثال أو التّشبيه مباشرة بعد طرحه للرّأي الأوّل أو الفكرة ، كحجّة مشروحة مكتملة عليه تغني في صورتها واكتمال جوانبها عن المراجعة أو الاعتراض ، وبالتّالي تكوّن فكرة شاملة ومقنعة عن هذا الطّرح .

مثال الحالة الثانية :

الأطروحة : ولكنّ الحبّ يا بنيّ لا يكون عجيبا بلا شيء يعجب منه .

الحجّة 1 : فكثيرا ما يتملأ الرّجل بغضا ليحبّ بعد ذلك بمقدار ما أبغض .

الحجّة 2 : فمثله كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي لا تؤدّي إليه ، فمتى أصابه كانت قوةّ البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشدّ منها في البرهان نفسه (2) .

ففي هذا المثال لا يكتفي "الرّافعي" بالمحاجّة عن الطّرح أو الفكرة الجديدة ؛ بتفسير أو حجّة واحدة فحسب ، بل يعمد إلى الاحتجاج للحجّة ذاتها بمثال يضربه تعزيزا لها . و يشكّل بهذا بدل الحجّة الواحدة حجّتين ، أو ما نستطيع تسميته (حجّة الحجّة) التي تأتي – غالبا – في شكل مثال .

و هذه الحالة الأخيرة تسلّط الضوء على خاصية عامة أخرى لطبيعة الحجج في الكتاب ، و هي (الحجج المركّبة)، حيث إن الكاتب لا يكتفي بحجّة واحدة فقط ، بل يعمد في أحيان كثيرة إلى الاحتجاج بسلسلة من الحجج قد تتجاوز الحجّتين أو الثّلاث حجج ، و هي على تعدّدها تختلف بين كونها تفسيرا أو تمثيلا :

مثلا :

الأطروحة : الحرب شرّ لابدّ منه .

الحجّة 1: لأنّها من عوامل التّحليل و التّركيب في تاريخ الإنسانيّة .

---

1. كتاب المساكين ،ص : 50.

2. نفسه ، ص ص : 159 ، 160.

الحجّة 2: و هي بذلك من أسباب استمراره .

الحجّة 3 :و كلّ شرّ لابدّ منه فهو خير لا غنى عنه .

الحجّة 4: و هل يبتغي الإنسان أن تضرب العصور كما تضرب الدّنانير و الدّراهم من معدن معروف على وجه معروف و لغاية معروفة ؟ (1)

نجد أنّ هذا الطّرح : << الحرب شرّ لابدّ منه >> ، استدعى أربع حجج كانت آخرها مثالا ، و يراعى في تركيبها التّسلسل و إسلام إحداها للأخرى التي تكون بالضرورة إما جزءا تاليا ، و إمّا تفسيرا مكمّلا ، و إمّا مثالا غالبا ما يكون حجّة عن مجموع الحجج السّابقة كلّها .

1. كتاب المساكين ، ص : 221.

ب- البنية البلاغية للخطاب الحجاجي في ((كتاب المساكين)) :

يكتسي أسلوب " الرّافعي " في كتابه : ((المساكين)) - و سائر كتبه - صبغة بلاغية تأخذ بشكل الخطاب الحجاجي ومعانيه مآخذ شتّى ، كما تسهم في إثراء صور الحجج وتنوّعها ، وحضورها في مظاهر بلاغية مختلفة تحقّق أهم خصائص الخطاب الحجاجي البلاغي ، ولا سيما كسب تأييد المتلقّي بإقناعه عن طريق إشباع مشاعره وفكره معا .

وقد جاء الطّرح والحجج معا - في هذا الكتاب - في صور وأساليب بلاغية إبلاغية متعدّدة تمثّلت في الأنواع التّالية :

1-التّشبيه :

يرد في المدوّنة على شكلين :

أ-عندما يكون في الأطروحة وفي الحجج :

حيث تجمع الأطروحة (النّتيجة) مع حججها في صورة بلاغية وفنّية واحدة تقتضي تجزئتها تجزئة هذه الصّور إلى أجزاء شتّى ، ويوضّح هذا أمثلة ، منها :

الأطروحة : والحيّ كأنّه من هذه الدّنيا فرخ في بيضة .

الحجّة 1 : ملئت له وختمت عليه .

الحجّة 2 : فلن يزيد فيها غير خالقها .

الحجّة 3 : وخالقها لن يزيد فيها (1) .

ففكرة تقدير المصير ، وعدم تحكّم الإنسان في مجرى أمور حياته ، جعلته كالفرخ في البيضة ، وهذه النّتيجة جاءت في شكل تشبيه ، وليس لهذه النتيجة أن تقنع ما لم تعزّز بحجج، لا سيما إن كانت مكمّلة لصورة (الفرخ في البيضة) ، المملوءة والمختومة ، والتي لا تزيد إلا بقدرة خارجيّة (الخالق) ، والخالق لن يزيد فيها ، لأنه قضى لها أن تكون على هذا الشكل ، وكذلك هي حياة الإنسان .

الأطروحة : والعالم كالبحر من السّراب .

الحجّة 1 : يموج به أديم الأرض بما رحبت .

الحجّة 2 : ثمّ لا تملأ أمواجه ملعقة (2) .

---

1. كتاب المساكين ، ص ص : 55 ، 56 .
2. نفسه ، ص : 58 .

كذلك في هذا المثال تكون الحجج مكمّلة للصّورة التّشبيهية التي اجتمعت في النتيجة أو الأطروحة ، فالعالم والحياة مزيفان في اتّساع آمالهما ، و سعي الإنسان وراءهما ، كبحر من السّراب ؛ يملأ أرجاء الأرض ، ثم لا نجني من حقيقته و جزاء التّعب و السّعي قدر ملعقة في ضآلة الجنى الذي هو خيبة الأمل .

ت- عندما يكون في الحجج فقط :

هنا يكون الطّرح (النتيجة) صريحا ، بينما تكون الحجج صورا تشبيهية تسلم إحداها إلى الأخرى لتشكّل الفكرة التي تطابق النتيجة الأولى ، ومن ذلك :

الأطروحة : يا إلهي ! إنما يحبّك المؤمنون و يكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم .

الحجّة 1 : فأنت تقذف قلب المؤمن بضرورات كشعل البراكين .

الحجّة 2 : و تضرب روحه من مصائبه بسلسلة حبال مفتولة .

الحجّة 3 : و تتركه في الأرض يشعر كأنمّا خرّ عليه سقف العالم (1) .

فتشبيه قوّة الإيمان والصبر في قلب المؤمن بشعل البراكين تبيح اختباره بمصائب في قوّة الحبال المفتولة والمتينة ، وتؤدّي به إلى الشّعور بعظم الخطب الذي يشبه انهيار العالم ، وهذه التشبيهات جميعا أكّدت إرادة اللّه التي تتحكّم في حبّ المؤمنين له ، لا قوّة هذا الحبّ فيهم ومكابدتهم ذاتها .

الأطروحة : وما حياة الفلاسفة إلّا اختيار للموت .

الحجّة 1 : يحيون بالقسم الأعلى .

الحجّة 2 : وتبقى مادّة الأرض فيهم كأنّها أرض بور عارية المخاسر لا تخصب ولا تنبت (2) .

يبرّر حكمه على حياة الفلاسفة بأنها اختيار للموت ؛ بحياتهم بالقسم الأعلى كناية عن العقل ، ولن يكون هذا التّبرير الأوّل كافيا (الحجّة 1) ما لم يتبع بالحجّة الأخرى التي تحيل على إماتة مواضع الشّهوات والملذّات التي شبّهها بمادّة الأرض في الدّناءة ، ثم هي أرض بور عارية المخاسر لا تخصب ولا تنبت ماداموا لا يلتفتون إليها ، ولا يجعلون منها باعثا لهم على الحياة ، مكتفين بقسوة أحكام العقل واستنتاجاته التي لاتلقي ظلالها إلا على ما هو سلبي ومظلم يستدعي الإصلاح الذي لن يكون مصدره سوى " فلسفتهم " .

1- كتاب المساكين ، ص : 61 .

2- نفسه ، ص : 43 .

2-الكناية :

لا يخلو الكلام " الرّافعي " في مجمله من الإضمار والتّكنية أكثر من الإظهار و الإفصاح ، وهو وإن أسرف في بسط نقطة ، فإنما تلاهى عن الأخرى ليتوصّل إليها فهم المتلقّي (القاريء) ،ولكي يقتسم معه تشكيل الفكرة ، وبالتّالي ضمان الإقناع :

الأطروحة : ترى أيهما الصّدق في حقيقته : ما نفرح به أو نحزن له ؟

الحجّة 1 : أما إنّ في الحياة ملحا .

الحجّة 2 : و إنّ في الحياة حلوا (1).

الحجّتان كناية عن اختلاف أحوال الحياة وتناقضها ، وهما إجابة عن السّؤال الذي لم يرد به السّؤال بقدر ما كان نتيجة وتأكيدا لما جاء فيه ، أنّ ما نفرح به وما نحزن له هما الصّدق في حقيقته ، لأنّهما وليدا تناقضات الحياة : (المالح و الحلو) .

الأطروحة : ولعلّ سبب الموت أنّك لا تجد إنسانا يعيش في حقيقته الإنسانية .

الحجّة 1 : فلا هذه الحقيقة يسّرت له كاملة .

الحجّة 2 : ولا هو خلق لها كاملا (2) .

هاتان الحجّتان كناية عن النّقص ، نقص الحقيقة الإنسانية ، ونقص الإنسان ، وهذا النّقص يحول دون الإنسان وحقيقته الإنسانية . كما يجب أن يبصرها ويعيشها ، لذلك كان هذا سببا للموت أيا كان مدلول هذا الموت ، وكيفما كانت سبله .

والكناية هنا – لا سيما وقد تجسّدت في الحجج فحسب – وسيلة لاتّساع أفق الإقناع ، وحصول الاقتناع ، فالنّتيجة (الأطروحة) هنا واضحة تحتمل النّقاش كطرح فلسفي أصلا ، ولكنّه في المقابل أورد حججا فيها كناية يمكن للقاريء اكتشافها ، ومتى ما اكتشفها أقرّ بصحّة الأطروحة ، لأنّه لا الكاتب أوردها صراحة ، ولا القاريء سيسعى لتخطئة تصوّره .

---

1. كتاب المساكين ، ص : 55 .
2. نفسه ، ص : 58 .

3-الإيجاز و الإطناب :

أ-الإيجاز :

يتجسّد لا سيما في الحجج ، كقوله :

الأطروحة : ما عسى أن تكون الحياة بكل ما فيها إلا مدّة محدودة تجعلها أوهام الإنسان كأنّها الأبد .

الحجّة 1 : فيكد ويكيد .

الحجّة 2 : و يعمل و يدّخر .

الحجّة 3 : و يهنأ و يحزن .

الحجّة 4 : و يطمع و يحرص (1) .

وهذه الحجج وإن كانت على شكل ثنائيات أربع تترجم إحداها الأخرى وتكمّلها ، إلا أنّه في كل مفردة منها اختصار لجمل ولقول كثير يطول في معناه ويتشعّب ، فاختصر الكاتب على نفسه هذا ، وأفسح للقارئ مجال التّوسعة وملء الفراغ ليقنع نفسه بنفسه .

ب-الإطناب :

من أمثلته :

الأطروحة : لعلّ الموت كما يجرّد الحي من روحه ينتزع من أهله شهوات أرواحهم .

الحجّة 1 : فيميتهم مدّة من الزمن في القلب وفي العين وفي الفكر .

الحجّة 2 : وبذلك يردّ جميع المحزونين إلى المساواة .

الحجّة 3 : فأهل كل ميّت وإن علا كأهل كل ميّت وإن نزل .

الحجّة 4 : وتموت بالموت الفروق الإنسانية في المال والجاه والقوّة و الجمال (2) .

يطنب المحاج في عرض حججه ، ويفسّر المعنى ليستوفي أقصاه ويزيد عليه توكيدا للطرح والفكرة ، وإجابة عن كل ما يمكن أن يتساءل المتلقي حوله ، وتبديدا لشكوكه وانتقاداته . ويكون الإطناب عادة بتكثيف الأمثلة ، أو " بالتّمثيل " .

1-كتاب المساكين ، ص : 126 .

2- نفسه ، ص : 66 .

ج– السّجع :

من الجماليات البلاغية والمحسنات البديعية اللفظية التي أضفت نوعا من التّخفيف في استشفاف الحجاج ، وتواترها الواحدة تلو الأخرى ، لتزيد معناها قوّة وثباتا وجمالا أمام المتلقّي ، منها :

الأطروحة : وانقلب الاثنان – فيكتور ولويز –كلاهما صيد وصائد .

الحجّة 1 : فقد ظفر في زعمه بالمرأة الطبيعية التي نبتت مع الأزهار ، وطلعت في سماء الحياة مطلع ضوء النّهار .

الحجّة 2 : وحسب أنّ هذه الفتاة التي تناهز العشرين إنما هي زيادة عشرين سنة في عمره ينتهبها من القدر انتهابا ويقضي بها دين الحب وطفولة وشبابا (1) .

د– الطّباق :

ومثاله :

الأطروحة : من شؤم الغنى على أهله ، أنّه :

الحجّة 1 : لا يذكّرهم في الشّر إلا بأنفسهم .

الحجّة 2 : ولا ينسيهم في الخير إلا أنفسهم .

الحجّة 3 : لا يعلمون أن الفقر أنواع كثيرة .

الحجّة 4 : وأن الغنى نفسه نوع من الفقر إلى الله (2) .

تنطوي كل حجّة على نقيض أو أكثر ، يكون نقيضه الآخر في الحجّة الموالية التي تتمّم هذا الطباق ، وتفسّر المعنى المقصود وتكمّله ، وفي هذا تعزيز للطّرح وسدّ لطرق الإنكار من أوجه كثيرة .

إن هذه الآليات البلاغية للحجاج في ((كتاب المساكين)) ، وإن كانت ميزات بارزة تصبغ الطرح والكتاب ككل ، إلا أنها لا ترقى إلى رتبة الخصائص وإن كانت جزءا من هذه الخصائص التي تبدّت خاصة في نوعين : "الاستعارة " و " التمثيل " .

---

1 – كتاب المساكين ، ص : 159.

2 – نفسه ، ص : 98 .

2- الخصائص الأسلوبيّة للخطاب الحجاجي البلاغي في ((كتاب المساكين)) :

تمنح البلاغية الخطاب الحجاجي ميزة الاشتمال على البعدين الاستدلالي والإمتاعي ، أو الجمع بين البيان والبديع معا ، مادامت الحجّة لا تساق إلا في مظهر مجازي أو صورة بديعية ، تفيد الإيصال الموفور بالمتعة إضافة إلى الإقناع الذي يأتي في الدّرجة الأولى ، لأن اقتضاء لفت الانتباه للتّوسل بالمحسنات الأسلوبية البلاغية لا يتيح الإسراف فيها فتنصرف عن هدفها الأساس وهو الإقناع . وسبق وأن حدّد " بيرلمان " صفة هذه الأساليب ؛ في أنها التي يهجم على باطنها من ظاهرها ، والتي يسحرك بيانها مع قرب مأخذها ، كما وضع لبرهانية الشكل البلاغي شرط تغيير المنظور ، وذلك باستخدامه بصفة طبيعية تؤيد الموقف الجديد (الطرح الجديد) (1) .

وفي هذا الصّدد تأتي " الإستعارة "و " التمثيل " كأهم خاصيتين أسلوبيتين للخطاب الحجاجي البلاغي عموما ، ولوحدة الهدف المتمثلة في إحداث التغيير في الموقف الفكري والعاطفي للمتلقي وتجتمع لتحقيق هذا الهدف :

-1- التوفّر على الجدة في التعبير والدقة في التصويرات أو التشبيهات ، والخروج باللغة عن مألوفها ، أو ما يسمى بـ " الإنزياح اللّساني " .

-2- اعتبار السّياق ، كونه يمنح الإستعارة والتمثيل معا تداو ليتهما من خلال التأثير الذي يحدثانه في المتلقي

أ-الاستعارة :

لم يخل خطاب " الرّافعي " الحجاجي في كتابه ((المساكين)) من الاستعارة التي كانت جزءا لا يستهان به في تركيب أطروحاته أو نتائجه ، وكذا تراكيب حججه .

وقد تنوّعت هذه الاستعارات بتنوع الموضوعات التي سيقت لأجلها ، وكذا المصادر التي استشفت منها .

وبما أن موضوعات هذا الكتاب تدور في مجملها حول قضايا إنسانية لا سيما منها الفقر ، والسعادة ، والشقاء والموت ، وغيرها ، ونظرا لتوجه الكاتب الفلسفي في تحليل أفكاره ، والاحتجاج لطروحاته ، فإن هذه الاستعارات لم تتجاوز الإنسان والطبيعة في تلبّسها بهما واستقائها لأهم خصائص حياتها من أهم ما يميزهما .

1.محمد سالم ولد محمد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص : 85 .

1- الاستعارة الإنسانية :

الأطروحة : و إنّي لأرى في اللّغة كلمات لم تقع على معانيها و لم تجتمع اللفظة منها بمدلولها .

الحجّة 1 : فكلمة السّعادة ، تبحث عن معناها في النّاس وأهوائهم وشهواتهم .

الحجّة 2 : ومعنى السّعادة ، يبحث الناس عنه في هذه الكلمة وحدودها وحقائقها ، وربما كان هذا المعنى ملقى تحت الشمس في زاوية من زوايا القرى ، أو متفيأ ظل شجرة من شجر الجميز ، أو نائما تحت سقف معروش من حطب القطن ، أو جالسا يضحك في ندوة ، أو قائما يتأمل مجرى النهر ، أو مضطجعا يقلّب وجهه في السماء (1) .

في هذه الأطروحة استعار الكاتب معنى الوقوع (لم تقع) والاجتماع (لم تجتمع) لدوالّ مجرّدة (كلمات) ، وهما معنيان إنسانيان يفيدان الحيرة وعدم الملاءمة ، وقد امتد هذان المعنيان إلى الحجّتين الأولى والثانية بتفاصيلهما وإن ظهرا – المعنيان – في صور مختلفة ؛ ففي الحجة الأولى استعار لفظة (تبحث) لكلمة مجرّدة

(دال) ، فزيّن بنية هذه الحجّة ، وعزّز معناها ؛ حيث اقتصر على كلمة (السعادة) دون معناها ، وربطها بالأهواء والشهوات دليل انفصال الكلمة عن معناها كما انفصال الظاهر (الذي ينحصر في الشهوات والأهواء) عن الباطن الذي تبينه الحجّة الثانية : وهو معنى السعادة الذي خلع عليه كفكرة مجرّدة صفة الظّهور والوجود المادي الذي ملأ حيّز الكلمات ، إضافة إلى إنسانية تواجده في مظاهر حياة النّاس البسطاء : (ملقى ، متفيأ ، نائما ، جالسا يضحك ، قائما يتأمّل ، مضطجعا يقلّب) ، وهذا دليل وجود السعادة بمعناها لا بلفظها في أبسط صور الحياة ، حياة الفقراء و المقلّين ، و عدم توفّرها إلا بظاهر مزيف في حياة من يحسبون الغنى سعادة ، و لم يتجاوز لديهم تلبية الشهوات .

الأطروحة : و هو – الشّيخ علي – و الدّنيا خصمان في ميدان الحياة غير أنّ أمرهما مختلف جدّا .

الحجّة 1 : لأنّه لم يطمح إليها و لم يقع فيها .

الحجّة 2 : و قهرها هو و لم تظفر به (2) .

استعار الكاتب في الأطروحة صفة (المخاصمة) الإنسانية للدّنيا كواقع مجرّد في مواجهة الخصم المقابل و الإنسان الحقيقي ، الذي هو "الشّيخ علي" ، وهذا إنزال للمجرّد منزلة المادّي (الإنسان) ؛ زيادة في بلورة النّتيجة (الطّرح) ، و وضعها موضع تساو يتعزز بالحجج التي سلكت النهج نفسه ، و استمرت في منح صفة الإنسانية

للدنيا ؛ لتكون في مستوى الإنسان الحقيقي ، بل صفة المرأة التي يطمح إليها و يقع صاحبها في هواها ، لكن "الشّيخ علي" لم يفعل ، و كيف يفعل و هو خصمها ؟ بل قاهرها ما دامت لم تقهره هي ، و لم تغره فتظفر به.

---

1. كتاب المساكين ، ص : 44.

2. نفسه ، ص :44

و في هذا تصوير لغلبة الفطرة البريئة على المباهج و الزّخارف الدنيوية المزيفة .

الأطروحة : من يهرب من شيء تركه وراءه إلا القبر .

الحجّة 1 : فما يهرب منه أحد إلا وجده أمامه .

الحجّة 2 : فهو أبدا ينتظر غير متململ (1) .

في هذا الطّرح تجسيد لحتمية الموت ممثّلة في القبر الذي استعار له صفة الإخافة التي يشترك فيها الإنسان و الحيوان معا ، و لعلها هنا تخص الإنسان الذي هو الأصل في شر نفسه و خيرها ، في خوفها و أمنها ، هذا ما دام من مساكين "الرّافعي" ، وتعزّز الطرح حجتان :

الأولى : تجسّد صفة الإحاطة أو الورائية (يهرب منه) ، و الأمامية (وجده أمامه) ، و هذه صفة الأقدار ، و الموت قدر ، و القبر مكانه ، فهو أمام و وراء لا مفر منه .

الثانية : تجسد صفة (الانتظار) و (الصبر) معا : (غير متململ) ، وهذا ما يحسم الأجل طال أم قصر ، فهو نهاية المطاف و خاتمة الحياة .

و الاستعارات الإنسانية أو الصفات الإنسانية التي أسبغها الكاتب على المعاني المجردة المتجسدة في حجاجه -كان ذلك في الأطروحة أو الحجج ، أو هما معا – أسلوب بلاغي إبلاغي جمع بين لفت الانتباه و الإمتاع، بحسن التصوير و تبادل الوظائف و الصفات بين الماديات والمجردات ، و بين الجمادات و الإنسانيات ، و بين الإقناع الذي لا يأتي من أفعال الناس فحسب ، بل من الأشياء عندما تكسوها صفات الإنسان فتعرب عن نفسها بنفسها ، و تجلي الفكرة بصلبها و ملاحقها ، لا يخلو من منطق و بيان يعتمران أجساما بلاغية ، فتلتحم متعة التصور و منطق الطرح الذي يؤدي إلى الإقناع و تغيير المنظور السابق الذي سيق لأجل تبديله المنظور الجديد.

---

1. كتاب المساكين ، ص : 63 .

2- الاستعارات الطبيعية :

الأطروحة : إن هؤلاء الأحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة و كان يجب أن تدفن و تطهّر أنفسهم منها .

الحجّة : فمعنى ما في الإنسانية من شر هو معنى ما في النّاس من تعفّن الطّباع و الأخلاق (1) .

في هذا الطرح ، و إلى جانب المعاني الإنسانية المستعارة للدوال المختلفة ، نقع على استعارات تستعار فيها المعاني الطبيعية ؛ أي الخاصة بالموجودات في الطبيعة غير الإنسان ، والتي قد تتفق معه في معانٍ كـ : الموت ، الدّفن ، ...، لكنها تختلف في معاني لا تخص إلا الكائنات الأخرى ، كقوله : (تطهّر أنفسهم) و (تعفّن الطّباع و الأخلاق) ، و هذا الوصف و الإسقاط من باب التّقريع و الإغلاظ في القول ، ودليل على خروج الطبيعة البشرية عن طورها ، و انحدارها إلى تلبّس ما هو خاص بما هو أدنى منها من المخلوقات (الحية و الجامدة معا) .

الأطروحة : أيّها النّاس ، إن الفصل بين الغنى و الفقر من الأمور التي تتعلّق بالضّمير وحده .

الحجّة 1 : ربّ غني يزيد أهله بالحرص و الدّناءة فقرا .

الحجّة 2 : انظروا إلى بعض الأغنياء الذين تموت في قلوبهم كل موعظة إنسانية أو إلهية ، فلا تثمر شيئا حتى إذا ماتوا نبتت كلها من تراب قبورهم فأثمرت لنفوس المساكين و الفقراء عزاء و سلوة و موعظة من زوال الدنيا (2)

و هنا كذلك يسقط على كل ما هو إنساني صفات طبيعية ، و لاسيما منها الصّفات النباتية : (لا تثمر) ، (نبتت)، (أثمرت) ، و غيرها ، و لم توظف هنا إلا من باب الموعظة و الإصلاح ، و يتعدّاها إلى الخشونة في القول و الغلظة المتضمنة في هذه الحجج ، و الدّالة على القيمة الأخلاقية التي سيقت من أجل إرسائها و محو غيرها .

و نجد في هذه الطّروحات السابقة للاستعارة الحجاجية في ((كتاب المساكين)) بنوعيها هدفا و مغزى من صياغتها إنسانية ، و طبيعية .

فالغالب على الاستعارات الإنسانية تضمّنها للطابع التّعليمي الوعظي ، الذي جاء رفيقا في طرحه و في هدفه ، على خلاف الاستعارات الطبيعية التي يعمد الكاتب فيها إلى الحطّ من شأن إنسانه المقصود بالكلام ، وذلك بوصفه بصفات ما هي أدنى من المخلوقات الطبيعية ، وهذا من باب التّأنيب والاستنكار ، والاحتجاج الأخلاقي الذي من أجله وضع هذا الكتاب .

---

1. كتاب المساكين ، ص : 64 .

2. نفسه ، ص ص : **86** ، **87** .

ب – التّمثيل :

تعدّدت صور " التّمثيل " في الكتاب ، وكلها جاءت في صورة جدلية ، أو كتصديق على طرح أو فكرة (نتيجة) تسبق هذا التّمثيل أو تختمه ، ومن صوره :

1 – المثل :

المثل هو<< استقراء بلاغي ، وهو حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها ، ويراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلثها >> (1) . ومن الأمثال في الكتاب :

الأطروحة : يعين الغرور على طلب الدنيا ويزيّن للمغرور فلا تراه أبدا إلا على زينة من أمره ، حتى تذهب الحياة في باطل كالحقّ أو حقّ كالباطل .

الحجّة 1 : وما كان الغرور وصاحبه في عاقبة الحياة ورجع الأمر إلا كرجلين من الحمقى ضمّهما طريق فاصطحبا ، ثم أفضى بهما السّير إلى جبل قطع عليهما ، فقال أحدهما لصاحبه : إني أراك شديد الأسر قوي البضعة ، وما أرى إلا أن تحمل هذا الجبل وتلقيه بعيدا من هنا ، فلا مذهب لنا إلا من ورائه ....

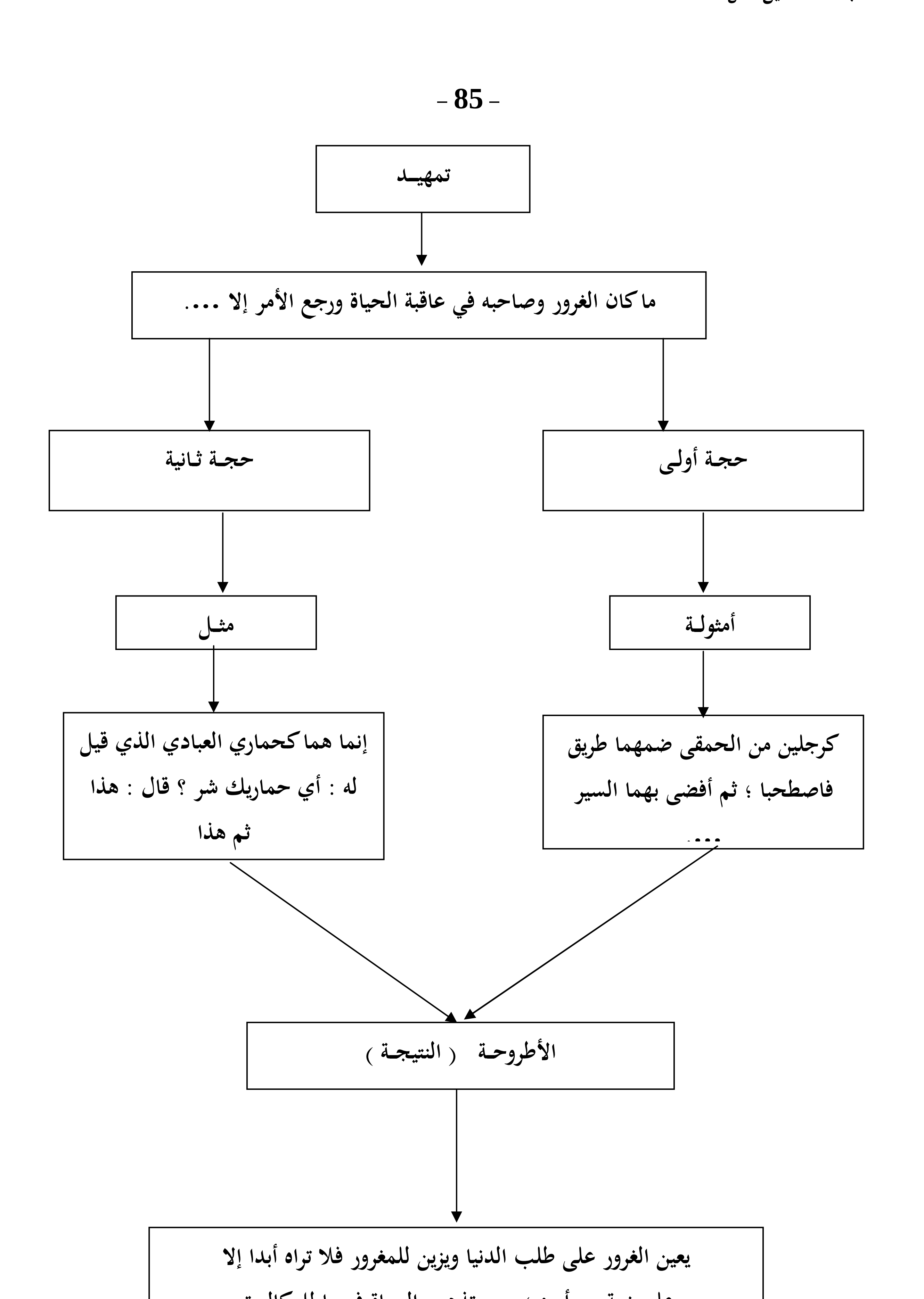
فقال له صاحبه : أما إني كما وصفت ، وإن بي لقدرة على حمله ، فما عليك أنت إلا أن تضعه على ظهري ....!

الحجّة 2 : فلا الحامل أطاق فحمل ، ولا المعين استطاع فأعان ، وإنما هما كحماري " العبادي "الذي قيل له : أي حماريك شرّ ؟ فقال : هذا ثم هذا ... (2) .

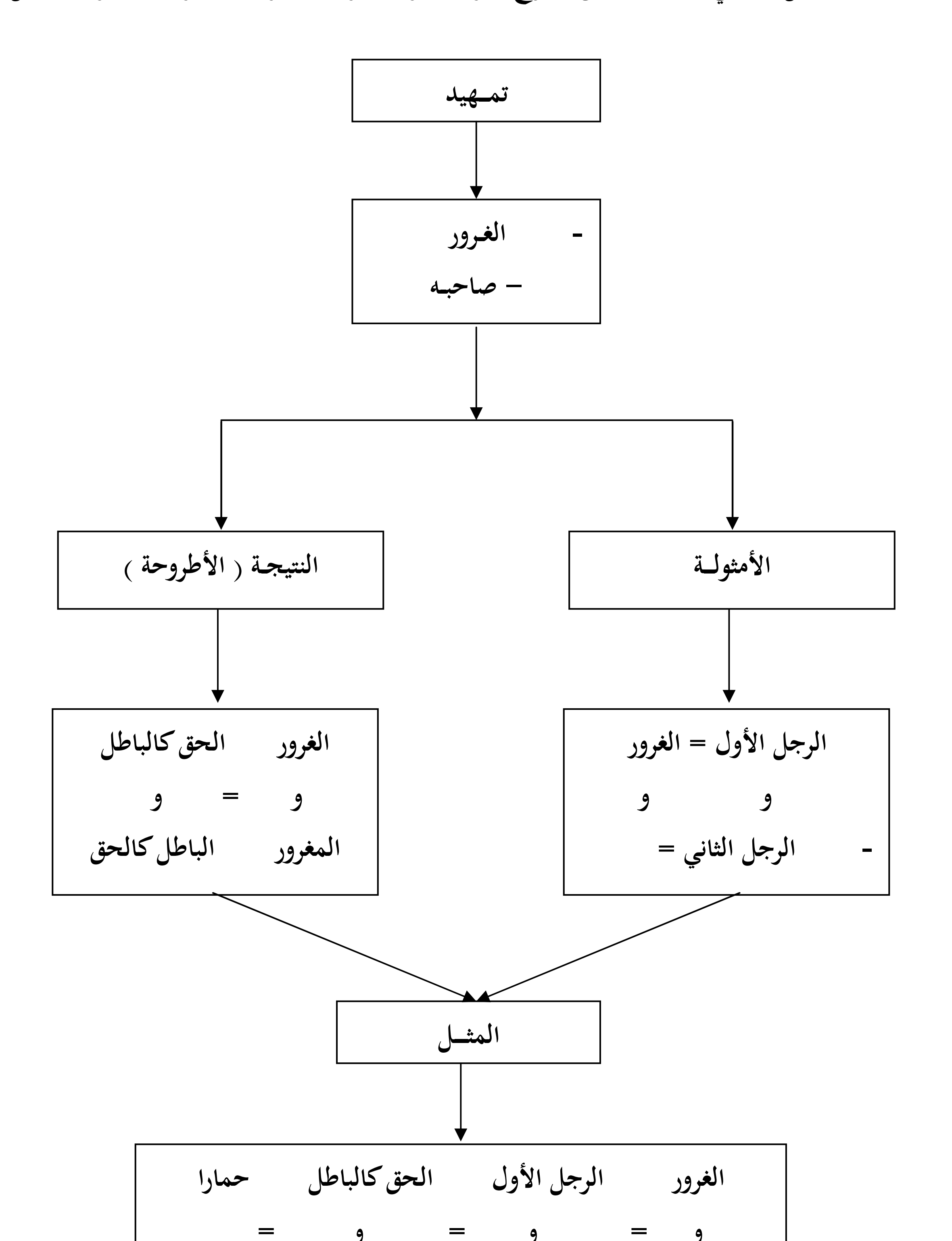
ابتدأ هذا الطّرح بتمهيد أو مقدّمة (وما كان الغرور وصاحبه في عاقبة الحياة ورجع الأمر) هذه المقدمة أفضت إلى " أمثولة " جاءت في صورة قصة حوارية صغيرة لا يكتمل معناها ولا تتم فائدتها إلا" بالمثل " الذي جاء توضيحا آخر للقصة ، ونتيجة لها كحجّة أولى ، وورود الحجّة الثّانية في صورة مثل معروف يطلق في حالة مماثلة ومضرب يؤيد النتيجة (الأطروحة الأصل) التي تجيء في آخر النّص : (وهكذا يعين الغرور على طلب الدنيا .....أو حق كالباطل) :

1 – محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص : 82 .

2 – كتاب المساكين ، ص : 142 .



واستباق الطرح بتمهيد يؤيّده احتجاج بالتّمثيل (الأمثولة (القصة)، والمثل) وذلك إغراء بصواب الفكرة واحتكامها إلى ما لا يمكن الجدال فيه (المثل) ، مادام يطابق حدثا واقعا قيل إثر المثل ، وهذا المثل وإن كان تصديقا للأمثولة بشكل أساسي إلا أنه يلخّص الطرح بطريقة غير مباشرة يختصر فيها أطراف الأطروحة ككل :



3- الأسطورة :

هي عند " أرسطو " من الأمثال المصطنعة ، أو " المثل الخرافي " (1) . وتأتي كذلك تأكيدا للطرح الجديد المراد اقتناع القاريء أو المحاجج به :

التمهيد : إنما قيمة الحياة فيما فيه تذهب لا فيما يذهب بها ، فكل لذّة لا تجد لروحك أثرا فيها لذّة ميتة ، وحقيق بك عندها أن تحسب أن شيئا من عقلك أو ومن فضيلتك قد مات فيها .

الأطروحة : وأي شيء هذا الغنيّ الذي يأكل ويتمتّع ولا يرتعي من لذّات الحياة إلا الخضراء الناظرة ، وقد سلّط على هلكة ماله أو سلّط ماله على هلكته ، فإن ذهبت تعتبره إنسانا لم تر فيه من الإنسان إلا النصف الأسفل ....

الحجّة : ولقد نقلوا في أساطير الأوّلين عن " ميداس " أنه بلغ من فرط الغنى أن لا يلمس بيده شيئا إلا استحال ذهبا ، فأرادت آلهة الخرافات أن لا ينخدع الناس فيه ولا يسحر أعينهم أو يسترهبهم ، وأن يعلموا أنه إنسان ، وأن فرط الغنى مثلة به ، فمسخ " أبولون " أذنيه فكانتا أذني حمار .

" الأسطورة " هنا تبرير للتمهيد الذي جاء بمثابة النتيجة الأولى التي تحمل معنى عاما ، يحتج له بمثال أسطوري يزيد المعنى توضيحا لكنه لا يخصّصه لأن النتيجة (الأطروحة) التي استبقيت إلى آخر الكلام هي التي تخصّص وتبيّن أن مدار الكلام حول غنى الأغنياء الذي لن يكون بدون موت شئ من الفضيلة ، وحلول الحيوانيّة التي يترجمها التّهافت على اللّذائذ و الشّهوات .

فالأسطورة هنا كنوع من التّمثيل توسّطت كحجّة بين النّاتج التمهيدي الأول ، والطّرح ، أي النّاتج النهائي المعوّل عليه ، لكنّها في الأخير ، وشأنها شأن المثل ، تختصر المعنيين التمهيدي والنهائي كما هو موضح هنا :

1 – محمد العمري ، المرجع نفسه ، ص : 82 .

2 – كتاب المساكين ، ص ص 139 ، 140 .



نجد من المثالين السابقي الطّرح ، أنّ " المثل " و " الأسطورة " يتموضعان بمثابة حجج صناعية أو جاهزة ، والتي غالبا ما تؤدّي وظيفة التّدعيم ، كونها << تكتسب قوّتها من مصدرها ومن مصادقة النّاس عليها وتواترها >> (1) . كما تؤدّي وظيفة إعادة التّوازن بين المتكلّم والمخاطب عندما يصيب عملية التخاطب خفوت في تفاعلها يعتقده المتكلم لدى انسياقه في طرح معنى معيّن ، << وكأنه يعترضه شك أو ظن أنّ رادّا يردّ قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه ، فيعود راجعا إلى ما قدّمه ، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه ، أو يزيل الشك عنه >> (2) . كما تؤدي هذه الحجج وكونها خاصية من خاصيات الخطاب الحجاجي البلاغي – وظيفة الإمتاع إضافة إلى الوظائف السابقة ، وذلك لورودها في قالب قصصي ينقذ الذّهن من تعقيدات الطرح الجامدة إلى الأمثلة التي تصنع بدورها الإمتاع وهو طريق آخر للإقناع الغير المباشر الذي يحمل في صورته هذه كل أسباب صحّة الطّرح ومنطقيّة تقبّله .

1. محمد العمري ، في بلاغة الخطاب الإقناعي ، ص : 90 .

2. أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص : 439 .

3-السرد الحواري :

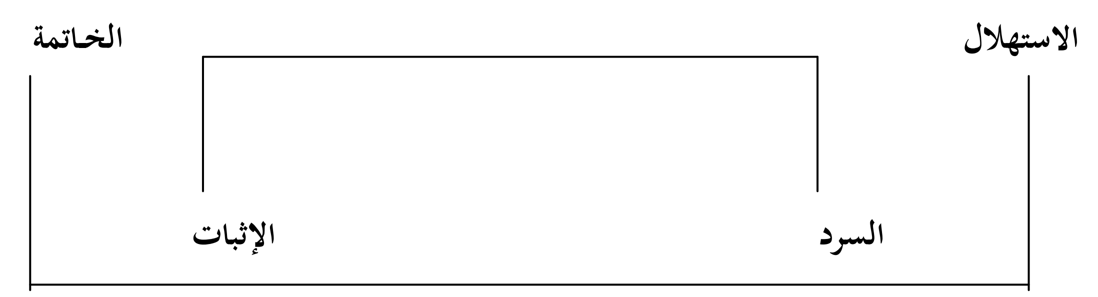
من أمثلته في الكتاب نصّ : ((مسكينة ! مسكينة !)) الذي يقوم على عرض فكرة : الفقر وآثره على أصحابه ، و الغنى ونقمته على أصحابه كذلك ، وتعارض هذين الطّرحين: بالتّقرّب والنّفور ، والحاجة والاستكبار.

ويمكن تطبيق نموذج " بارث Barthes " ، الذي يقسم الخطاب ، أو نظام أجزاء الخطاب إلى عنصرين :

1-استدعاء الأحاسيس : وهو الجزء العاطفي الذي يضمّ (الاستهلال) و (الخاتمة) كجزئين خارجيين للخطاب .

2-الدعوة إلى الدّليل : وهو الجزء البرهاني الحجاجي ويضم (السّرد ؛ أي علاقة الأحداث) و (الإثبات ؛ أي طرق الإقناع والأدلّة) ، وهما الجزءان اللّذان يتوسطان الخطاب :

برهاني



عاطفي

و هذا انطلاقا من اعتبار " بارث Barthes " المثال << حدثا ، مجموعة من الأحداث وقصة هذه الأحداث . إنه تشبيه إقناعي ، حجّة بواسطة التشابه ، ....>> (1) .

تبتديء قصّة (مسكينة ! مسكينة !)بجانب عاطفي تمهيدي يتضمن الأطروحة التي تشكل الاستهلال :

1-الاستهلال :

الأطروحة : وقد علمنا أن كل شيء يسير فإنما هو يذهب في طريق يتهدّى أو يعتسف ، وكأنّ الأسف على أهل الشّر لم يجد له طريقا في هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير ، وبهذا يضرب الشّر أهله وغير أهله (2) .

1. رولان بارث ، قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ص : 53 .
2. كتاب المساكين ، ص : 88 .

هذه النتيجة تسبق أحداث القصة وتلخصها في أن الشر يضرب أهله فيصيبهم في مقتل لأنهم ألفوا فعله و لم يألفوا وقوعه عليهم ، و يضرب غير أهله من أهل الخير لأنهم من سيأسف و يأسى لأهل الشر لدى وقوع الشر عليهم، لأنهم ألفوه و ذاقوا مرارته ، وأشفقوا منه على غيرهم .

هذه الفكرة أو الطرح تستدعي الاحتجاج و البرهنة على صحتها و تواجدها ، وهذا ما يبرّر الجانب الحجاجي و يتضح في :

2 – السرد ، أو السرد الحواري :

في هذا العنصر يعمد صاحب المثال إلى :

أ– وصف حال أهل الخير "الفتاة الفقيرة " : حيث يسهب في تبيين وضع الفتاة الفقيرة التي ألمّ بها الجوع و البؤس و اليأس معا ، فلم تجد ما تقتات به ، و لا عملا تسترزق منه ، ولا يدا بيضاء تغدق عليها ، و إذا هي كذلك تلتقي "سيدة غنية " يكون لها معها شأن .

ب– وصف حال أهل الشر " السيدة الغنية " : ذات غنى و كبرياء و غرور ، تعترضها "الفتاة الفقيرة " تستجدي خيرها ، واصفة حالها و حال بؤسها ، لكنها تواجهها بالنكران و الإعراض و السخرية من قضاء الله فيها بالفقر ، مفتخرة بقضاء الله فيها بالغنى الذي لا يستدعي عندها الإحسان و مدّ يد العون لمن هم أقل من ذلك .

ج– السرد الحواري أو الحوار : هو حوار قصير المدى بين "الفتاة الفقيرة " و "السيدة الغنية" ، يبدي وضع كليهما ، الشر في أهل الشر ، والخير في أهل الخير ، و يمهّد لما سيكون :

– سيّدتي ! أدام الله نعمته عليك و هنّأك هذه النعمة بدوامها !
– هي دائمة ، وما أنت و النعمة ؟
– سيّدتي ! وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة و لا كتب عليك أن تعرفي ما هي !
– فلماذا أنت و أمثالك في الحياة إذن أيتها الحمقاء ؟ و هل يكتب تاريخ البؤس إلا في صفحة مثل هذا الوجه؟
– سيّدتي ! ألا مهلا مهلا و انظري إلي ينظر الله إليك !
– قد نظر الله إليك من قبلي !
– سيّدتي ! هبيني خادما أحسنت إليها !
– فلتكوني خادما طردتها إن بلغت أن تكوني خادما مثلنا !

– يا ويلنا ! ألا رحمة في قلبك فتجودي علي بما لا بأس عليك منه ؟

– و لماذا أفضلك على سائر الفقراء ؟ ينبغي أن أجود عليهم جميعا إذا أنا جدت عليك ، و لو فعلت لطلبت بعد ذلك من يجود علي !

- 92 -

– سيّدتي ! ألا فاجعليني من نصيبك في الإحسان و غيري من الفقراء له غيرك من الأغنياء ، و على الموسع قدره و على المقتر قدره !

– إذا فكوني أنت من نصيب غيري و دعي غيرك لي !

– سيّدتي ! ليس فقري عن خطأ منّي و ليس غناك عن صواب منك ، و ما الرزق يا سيدتي من فضل الحيلة !

– و هل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفي عن الخطأ ؟

– رحماك و اتّقي الله في الإنسانية ، فلعل في قصرك الباذخ كلبة جعلتها أحسن حالا مني !

– حينما تصيرين مثلها فتعالي إلينا و يومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب ! ... (1) .

ينتهي الحوار بينهما إلى هنا ، ليعلن بداية أحداث أخرى ستنقلب فيها الأمور ، و تنعكس حال الإثنتين ، لتنطبقا – أي الحالتان – على الأطروحة ، و تكونان مثالا عليها .

3 – الإثبات :

يبتديء بأحداث أخرى ، تتمثّل في :

–أ– معرفة أن للسيدة الغنية ابنة وحيدة .

–ب– مرض الفتاة و موتها .

–ج– ابتئاس " السيدة الغنية " لهذا المصاب ، وانقلاب حالها .

–د– تحسن حال " الفتاة الفقيرة " ، بإصابة عمل غير بؤسها واضطرابها إلى يسر واطمئنان .

–هـ– التقاء " الفتاة " " بالسيدة " وقد انقلبت حال كلتيهما إلى الضّد .

–و– إشفاق " الفتاة " وحزنها لحال " السيدة " الكسيرة ، وأسفها لها :

<< يا رباه ! " مسكينة ! مسكينة " >> ، وفي هذا إثبات لمعنى الأطروحة المقتضي إشفاق أهل الخير من الشرّ على أهل الشر ، لأنهم أهل خير ، ومساكين ، والمسكين مادة الأخلاق والعواطف ، ومن رحمة الله بالناس أنهم في النّاس (2) .

1. كتاب المسكين ، ص : 97 .

2. نفسه ، ص : 13 .

4- الخاتمة :

نصفها في الإثبات ، ونصفها الآخر يرد كذلك كحكمة تحرك في النفس شيئا من الإيمان بقضاء الله الذي لا يرده زيف في القول ، أو مباعدة للحق والخير :

كذا يضع الإنسان الكلمة لمعاني الله فيكذبه بمعانيها ، ويارب كلمة ملفوظة وفيها لله كلمة غير ملفوظة !

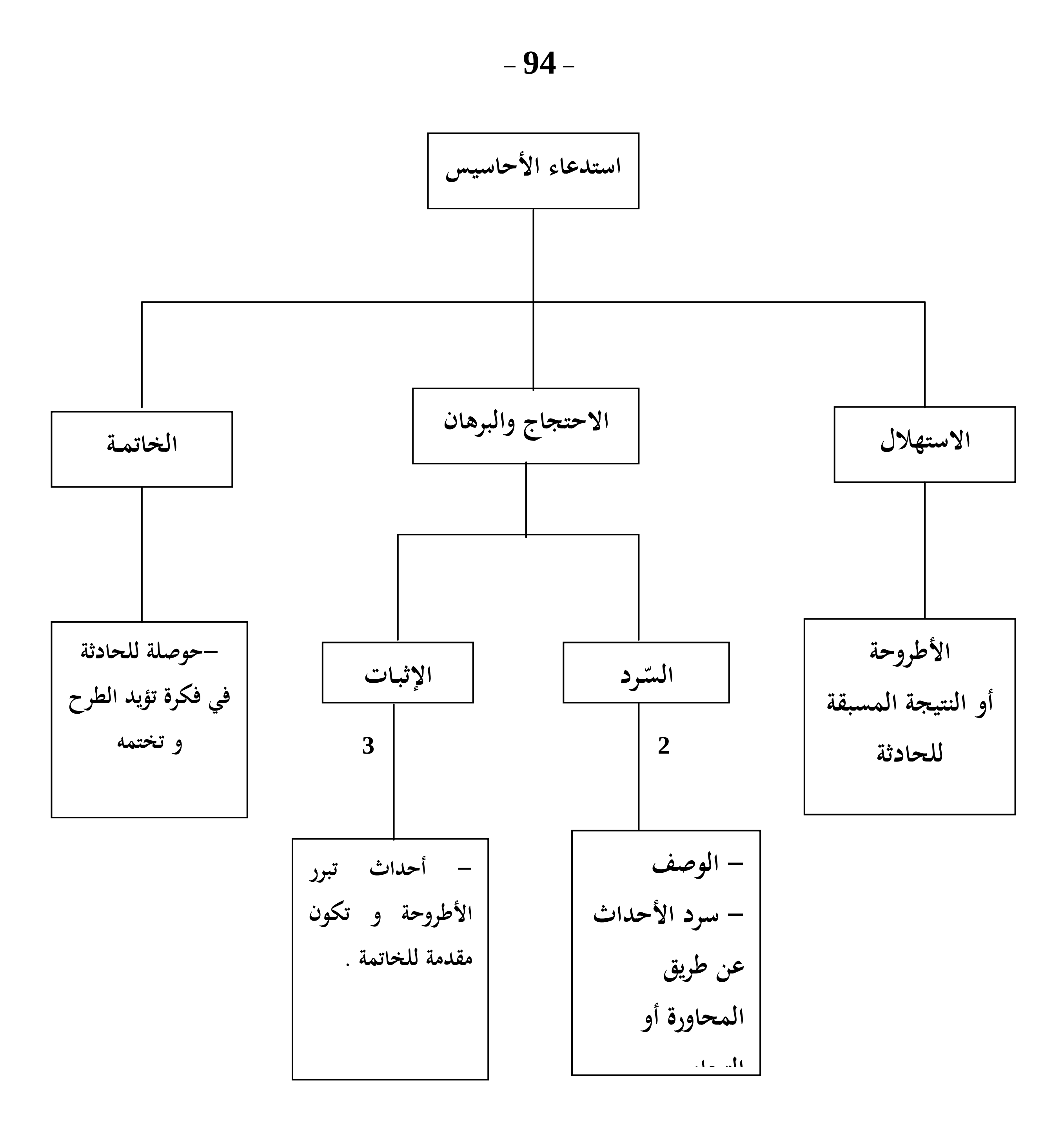
<< اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء ، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء ، بيدك الخير إنّك على كلّ شئ قدير >> (2) .

والخاتمة كذلك دعاء فيه خروج من القصة ، ودعوة إلى الاعتبار والتفكر ، وهو في الأخير حجّة كبرى من الحجج التي يلقيها " الرّافعي " لا على طرح معين ، أو جزئي من جزئيات النصوص ، إنما كلبنة تكمّل مع غيرها الحكمة الكبرى والحجّة العظمى التي ستأتي إثباتا للطّرح الأوّل والأصل في الكتاب .

ويمكن اختصار عناصر السرد الحواري في هذا المخطط :

1 – كتاب المساكين ، ص : 13 .

2 – نفسه ، ص : 100 .



3- التمثيل المباشر :

هو مجموعة " أمثلة " أو " تمثيلات " تأتي مباشرة بعد الفكرة الأطروحة ، ومن بينها هذان المثلان الذان يأتيان للتعبير عن فكرة موحّدة :

فكرة الجماعية ضدّ التّفرّد :

1) -

الأطروحة : الإنسان إنما خلق اجتماعيا .

الحجّة 1 : هو بشخصه لا قيمة له ولا منفعة إلا من حيث يكون شخصه جزءا من مجموع .

الحجّة 2 (المثال) : لأن اليد الواحدة في الجسم ولو كانت يد ملك و كان فيها زمام العالم فإنها لا يفارقها عيب أختها المقطوعة (1) .

2)-

الأطروحة : فإذا عمل الفرد على أن يقفل حدوده عليه و يستغلق بها و يمتنع من ورائها صار كالقلعة المحصنة .

الحجّة (المثال) : لا تصلح إلا حربا لما حولها و دفاعا عما فيها ، فلن يضع هو أمره إلا على هذا المعنى ، و لن يكون له ممن يصاد مونه إلا حكم واحد و هو تخريبه و هدمه واقتحامه (2) .

يأتي مثالا : (اليد المقطوعة) و (القلعة المحصنة) كرد على اعتراض مفترض يذهب إلى إمكانية الفردية في مقابل الجماعية ، و في هذين المثالين عرض لإمكانية التفرد ، لكنه التفرد السلبي أو الناقص الذي لا يكتمل أبدا مادام كذلك ، شأنه شأن يد الملك التي لا يشفع لها تحكمها و سيطرتها أمام انعدام الأخرى التي تشوبها بالنقص ، و هو شأن القلعة المحصنة التي لا تشفع قوتها و منعتها أمام الرغبة في تخريبها و اقتحامها .

و هذه الأمثلة و الأمثلة التي سبقتها ، وبكل ما تميزت به من خصائص و تقنيات حجاجية ، دليل على قيام الخطاب الحجاجي البلاغي عند "الرّافعي" على أهم مميزين له ، وهما :

"الاستعارة" و "التمثيل" كتقنية إنشائية قبل انصرافها إلى الحجاج كمنعرج ضروري للطرح .

1. كتاب المساكين ، ص : 78.
2. نفسه ، ص : 31.

المبحث الثاني :

الخطاب الحجاجي الفلسفي وخصائصه المناظراتية في ((كتاب المساكين))

:

1. بنية الخطاب الحجاجي الفلسفي في ((كتاب المساكين)).
2. الخصائص المناظراتية للخطاب الحجاجي الفلسفي في ((كتاب المساكين)

أ– المناظرة (المحاورة القريبة) .

ب- التّناص (المحاورة البعيدة) .

المبحث الثّاني :

- الخطاب الحجاجي الفلسفي وخصائصه المناظراتية في(كتاب المساكين) :

الحجاج بعد جوهري في الفلسفة معرفة كانت أو تفكيرا ، وآلية من آليات الطرح في الخطابات الفلسفية .

فالمحاجّة تداول لمعان ذات معطيات نفسية واجتماعية عبر إثبات الرّأي الشّخصيّ ، وردّ رأي الخصم بغرض الإقناع و تغيير وجهة النّظر السّابقة . وطبيعة الفلسفة باعتبارها نصوصا ومتونا ، تجعلها تستدلّ بالحجّة وتعمد إلى الحجاج الذي من معاييره :

1- **تقاس صلاحيته بـ : القوّة والضّعف ، الكفاية وعدم الكفاية ، والنّجاح أو الفشل في الإقناع .**
2- **ليست غايته الصّواب والخطأ ، بل التأثير والتقبّل .**

و تواجد الحجاج في الخطابات الفلسفية عامة ، يتيح تعدد أساليبه اختلاف صوره ، و لاسيما التحليلية و التركيبية ، أو البنية العامة للحجاج في خطاب فلسفي ما .

1- بنية الخطاب الحجاجي الفلسفي في ((كتاب المساكين)) :

يتميز ((كتاب المساكين)) بطابع فكري فلسفي ؛ أي أن طرحه طرح فلسفي سواء من حيث الأفكار و المثل و القيم المتضمنة فيه ، أو من حيث سيرورة الحجاج فيه ، و التي انقسمت بين (النتيجة) كطرح أولي ، و(الحجج) التي تليها الواحدة تلو الأخرى ، و التي تكون إما معزّزة لما قبلها أو مكمّلة لها ، بغضّ النظر عن كونها تفسيرا و طرحا مجرّدا ، أو كونها مثالا يساق لذات الغرض .

و قد عمل هذا الطرح الفلسفي على مجيء سيرورة الحجاج في وجوه ثلاثة :

أ-من النتائج إلى التراكيب (مجموع الحجج) .

ب-من الحجج إلى النتائج أو النتيجة الواحدة .

ج-من حجّة تمهيدية إلى نتيجة كلّية إلى حجج نهائية تفصيلية .

إلى	
أ – من النتيجة	**الحجة أو**

مثال 1 :

– النتيجة :
إن المجنون لم يزلّ عن منهج الحياة

– الحجّة :
لكنّه تتبّع سنة هذه الحياة على طريقة خاصة غير ما ألفه الناس أو تواضعوا عليه (1) .

في هذا المثال يطرح الكاتب الفكرة بطريقة " الاستنتاج " الفلسفية ، وبشكل غير معقّد ، لأنها لم تستوجب في الاستدلال عليها إلا حجّة واحدة وبسيطة جاءت تفسيرا مجردا من التمثيل على خلاف أغلب الحجج الأخرى .

مثال 2 :

– النتيجة :
ما خلق الله لذّة أهنأ للنفس من لذة الأحلام

– الحجّة :
1 – فكأنّما ترى فيها النّفس شيئا من تحقيق المستحيل
2–وإن في أعقاب هذه اللذة بعد اليقظة ما يشعر المرء بالأماني كيف جاءت وكيف ذهبت .
3– فكأنمّا كان في حياة أخرى .
4– وكأنّ نفسه تتمسك بهذه الحياة ولا تريد أن تسلمها .
5– فتكون ذكرى الحلم أروح للنفس من الحلم نفسه على الحقيقة .
6– لأنها نتاج ما بين لذة لم تكن شيئا ، ولذة صارت شيئا (2) .

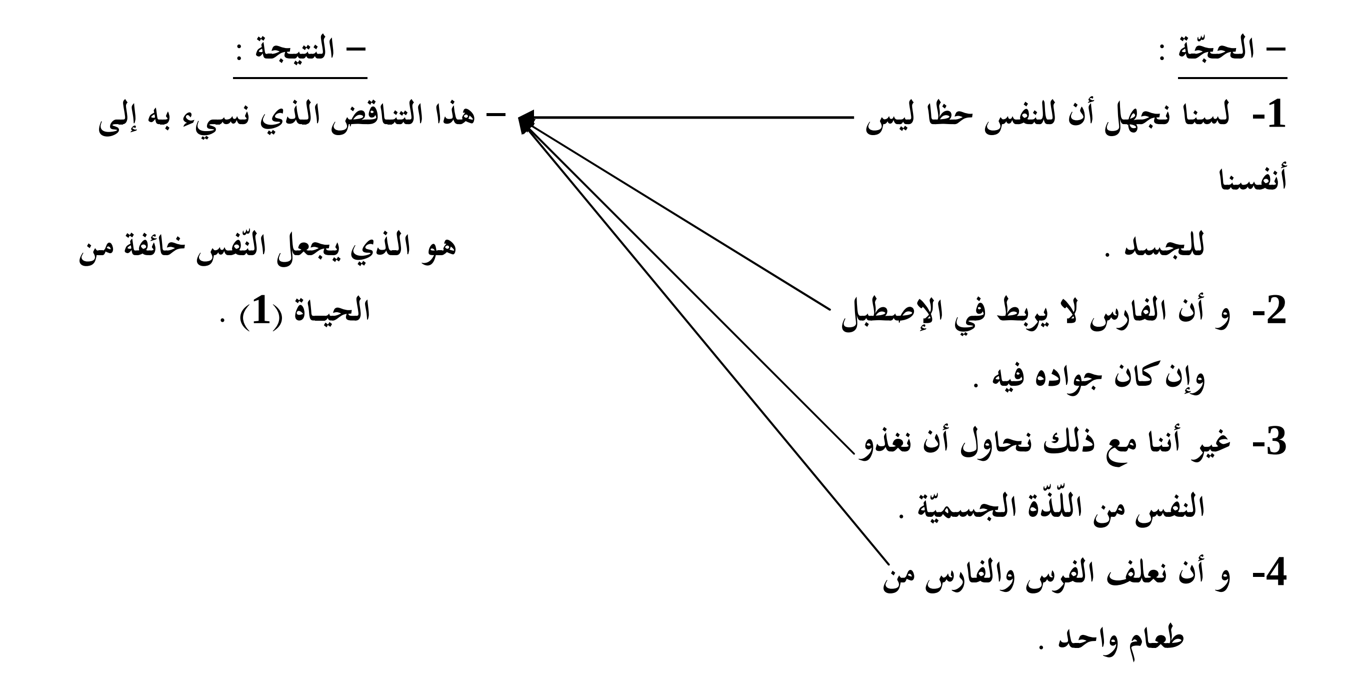
– **أما في هذا المثال فقد جمع بين " الاستنتاج " و " التحليل " ، حيث بدأ بالطرح الجديد – الذي يكون دائما ردّا على طرح سابق أو قديم مضمرا كان أو صريحا – واحتجّ له بسلسلة من الحجج المتوالية التي تفسّر**

1- كتاب المساكين ، ص : 49 .

2- نفسه ، ص : 157 .

إحداها التي تعقبها ، عن طريق التحليل الذي ينتهي بنتيجة أخرى هي الحجّة السّادسة التي تختم هذا التحليل وتختصره مشكّلة الحجّة الأساس للنتيجة الأولى أو الأطروحة .

إلى
ب – من الحجّة ←——— النتيجة



لهذا المثال منهج تحليلي اعتمد استجماع الحجج وترتيبها بحيث تسلم إحداها إلى الأخرى ، وراعى فيها المروحة بين الفكرة المجرّدة والمثال الذين يكملان بعضهما ، ويحيلان إلى ما بعدهما . وتكون النتيجة تركيبا لما ورد في هذه الحجج وتسمية له : التناقض نتيجة عدم التمييز و إحلال الأمور في غير مواضعها الخاصة بها .

1. كتاب المساكين ، ص : 112 .

	إلى		إلى	
ج – من حجّة تمهيدية	←	نتيجة كلية	←	حجج نهائية تفصيلية

– حجة تمهيدية :	– النتيجة الكلية (الطّرح) :	– حجّة نهائية تفصيلية :
ترى أيهما الصدق في الحقيقة : ما نفرح به أو ما نحزن له ؟ في =	← وكلاهما نقيض ، فليس منهما شيء إلا هو ردّ للآخر أو اعتراض فيه أو خلاف عليه .	← فأنت تؤتى الحلو تسيغه وتستعذ به فإذا هو بك الملح تمجّه وتغصّ به (1)

أما إنّ في الحياة ملحا ، و إنّ في الحياة حلوا .

في هذا الطرح جمع بين " التحليل " و " الاستنتاج " ؛ حيث بدأه باستفهام يحوي الإشكالية الأساسية ، و أتبعها بمعطيين يفسران هذا السّؤال ولا يجزمان له ؛ أي معطيان تحليليان تلتهما النتيجة الكلّية التي جاءت استنتاجا وتركيبا لما ورد فيهما ، أعقبتها حجّة تحليلية كذلك ، تحلّل هذه النتيجة وتحتجّ لها في ذات الوقت .

وهناك حالات أخرى تتراوح بين التحليل والتركيب ، وتتبادل فيها الحجج والنتائج والأماكن وحتّى درجة الأهمية :

مثال :

– نتيجة ابتدائية : – حجّة ابتدائية :

1–لا ثقة لي بمختلق لا دين له	**1– فإن الخلق يصله بحظ نفسه أكثر مما يصله بواجبات الناس .**
+	**+**
2–و لا فيلسوف ملحد	**2– لأن الفلسفة تمزجه بالمادة أكثر مما تمزجه بالإنسانية .**
+	**+**
3–و لا بمصلح ينسلخ من الدين .	**3– لأن إصلاحه صور من غروره .**
+	**+**
4–و لا بعالم جاحد .	**4– لأن علمه كهندسة الشوكة كلها من أجل آخرها .**
=	**=**
– النتيجة النهائية :	**– الحجّة النهائية :**
كل منهم صحيح في ذاته ، لكنه فاسد بموضعه من أغراضه أو أغراضنا	**و ما أشبههم بالأشجار في المقابر لا تجد لها في المقبرة ما تجد لها في الحديقة ؛ كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية و لكن ماتت روح الحديقة فيها .**

– 100 –

ينقسم هذا الطرح إلى طرح ابتدائي يضم أحكاما ونتائج خاصة ، تقابلها كذلك حجج خاصة ، بغية الإقناع بصحته ومنطقيته ، وتنتهي النتائج الابتدائية الخاصة إلى نتيجة نهائية عامة تلخّصها وتعمّم الحكم عليها ، وتجعلها في صورة طرح كلي ، ويحتج لها بحجّة نهائية عامّة كذلك في صورة تمثيل أو تشبيه ، أي صورة مجازية تلخص مجموع الحجج الجزئية ، وتعرب عما تتضمنه بشكل تمثيلي يضمن اقتناع الملتقي عن طريق الإحاطة بجزئيات الطّرح وكلياته .

– هذا التنوّع في طرق ورود الطروحات (النتائج) والحجج التي تبررها ، يكشف عن أداء جديد يتميز عن غيره من الخطابات ، ويتيح مجالا أوسع للإقناع وللإحاطة بمعطيات الموضوع أو الفكرة المقترحة .

2- الخصائص المناظرتية للخطاب الحجاجي الفلسفي في (كتاب المساكين) :

تعدّ " المناظرة " البنية المعرفية الخاصّة بـ " المحاورة " ، والمحاورة ثاني مراتب " الحواريّة " التي صنّفها " طه عبد الرحمن " ، آليتها الخطابية هي " الإعتراض " الذي يعتمد الحجاج منهجا استدلاليا ، ويوفر هذا المنهج تناظرا بين النّموذج النّظري و الشّاهد النّصي من خلال تقابل : نموذج الإبلاغ النّظري مع المحاورة القريبة "المناظرة" كشاهد نصّي ، و نموذج القصد النّظري مع المحاورة البعيدة "التّناص" كشاهد نصّي كذلك . و هذان الشّاهدان النّصيان هما مجال التطبيق في هذا النوع من الخطابات ، و هما الخاصيتان الأساسيتان للخطاب الحجاجي الفلسفي في هذا الكتاب .

أ-المناظرة "المحاورة القريبة" :

لا تكاد تتواجد سوى في نصّ : ((مسكينة ! مسكينة !)) ، في الحوار الدائر بين " الفتاة الفقيرة " و " السيدة الغنية " :

. سيّدتي ! أدام الله نعمته عليك و هنّأك هذه النعمة بدوامها !

. هي دائمة ، و ما أنت و النعمة ؟

. سيّدتي ! وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ، و لا كتب عليك أن تعرفي ما هي !

ـ فلماذا أنت و أمثالك في الحياة إذن أيتها الحمقاء ؟ و هل يكتب تاريخ البؤس إلا في صفحة من مثل هذا الوجه ؟

. سيّدتي ! ألا مهلا مهلا و انظري إلي ينظر الله إليك !

. قد نظر الله إليك من قبلي !
. سيّدتي ! هبيني خادما أحسنت إليها !
. فلتكوني خادما طردتها إن بلغت أن تكوني خادما مثلنا !
. يا ويلنا ! ألا رحمة في قلبك فتجودي عليّ بما لا بأس عليك منه ؟
. و لماذا أفضّلك على سائر الفقراء ؟ ينبغي أن أجود عليهم جميعا إذا أنا جدت عليك ، و لو فعلت لطلبت بعد ذلك من يجود عليّ !
. سيّدتي ! ألا فاجعليني من نصيبك في الإحسان و غيري من الفقراء له غيرك من الأغنياء ، على الموسع قدره ، و على المقتر قدره !
. إذا فكوني أنت من نصيب غيري و دعي غيرك لي !
. سيّدتي ! ليس فقري عن خطأ مني و ليس غناك عن صواب منك ، و ما الرزق يا سيّدتي من فضل الحيلة !
هل أنا أريد أن أعاقبك فتنتفي من الخطأ ؟
. رحماك و اتقي الله في الإنسانية ، فلعل في قصرك الباذخ كلبة جعلتها أحسن حالا مني !

. حينما تصيرين مثلها فتعالي إلينا و يومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب ! (1)
هذه المناظرة مناظرة صريحة بين "عارض" : "الفتاة الفقيرة" ، و "معترض" : "السيدة الغنية" ، و هي مقابلة بينهما و محاورة تتقاذف فكرة إحسان الغني إلى الفقير ، بين الفقيرة التي تعرض هذا الطرح مرفقا بحجج من واقعها : (بأساء الحياة ، ليس فقري عن خطأ مني ، اتقي الله في الإنسانية ، هبيني خادما أحسنت إليها ، [...]) ، و بين الغنية التي ترفض هذا الطرح و تتوسل كل الأعذار و الحجج للتنصل منه : (لماذا أنت و أمثالك في الحياة ، لماذا أفضلك على سائر الفقراء ، إذا فكوني أنت من نصيب غيري و دعي غيرك لي ، [...]) .
و معظم أفكار الكتاب و الحجج الواردة فيه تشكل مناظرة مفهومة – على عكس المناظرة الصريحة (بين طرفين واقعيين) – بين "الرّافعي" و " الشّيخ علي" ، و قد يكونان طرفا واحدا و تكون الأفكار و الطروحات المفترضة للإعتراض هي الطرف الآخر ، و يعمل بالحجج و الأمثلة و الأخذ و الرد على تغليب فكرة على فكرة ، وهذا من باب المناظرة ، كهذه المناظرة التي يفترضها الكاتب بين "الشّيخ علي" أو "الرّافعي" و هما واحد هنا ، و بين "التراب الصامت" أو " القبر " :
. فتحنا القبر و أنزلنا الميّت العزيز الذي شفي من مرض الحياة ، و وقفت هناك ، بل وقف التّراب المتكلم يعقل عن التراب الصّامت و يعرف منه أن العمر على ما يمتد محدود بلحظة و أن القوة على ما تبلغ محدودة بخمود ، وأن الغايات على ما تتّسع محدودة بانقطاع ، و حتى القارات الخمس محدودة بقبر ! ...
تبدأ هذه المناظرة بسؤال الكاتب المفترض غير المنطوق ، الذي لا يتجلّى معناه سوى من جواب المناظر الآخر الذي هو تراب القبر ، أو القبر عامة : (ويعرف منه أنّ العمر على .... محدود بقبر! ...) وكأنّ هذا الجواب لم يكن كافيا ولم يقنع السّائل ، فتلي هذا المقطع مناظرة بين الكاتب ونفسه ، لكنّها لا تنتهي بجواب ، بل

بسؤال : . يا عجبا !القبور مأهولة بملء الدنيا وليس فيها أحد ! أية ذرّة من التّراب هي التي كانت نعمة ورغدا ، وأيّتهاكانت بؤسا وشقاء ، وأيّتها التي كانت حبّا ورحمة ، وأيتها كانت بغضا وموجدة ؟

ويترك جواب هذا السّؤال إلى سؤال صريح لكنّه يترجم ما قبله :

. سألت القبر : أين المال والمتاع ؟ وأين الجمال والسّحر ؟ وأين الصّحة والقوّة ؟ وأين المرض والضّعف ؟ وأين القدرة و الجبروت ؟ وأين الخنوع والذّلّة ؟ ...

. قال :كل هذه صور فكرية لا تجئ إلى هنا ؛ لأنها لا تأخذ من هنا ! فلو أنهم أخذوا هدوء القبر لدنياهم ، و سلامه لنزاعهم ، و سكونه لتعبهم ، لسخّروا الموت فيما سخّروه من نواميس الكون ! إن هؤلاء الأحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة و كان يجب أن تدفن وتطهّر أنفسهم منها ؛ فمعنى ما في الإنسانية من شر هو معنى ما في النّاس من تعفّن الطّباع والأخلاق ...

---

1. كتاب المساكين ، ص : 97 .

. ويسأل الكاتب ثانية :

. ألا ويحك أيها القبر ! لم لا تأتي إلا في الآخر ؟ و لم لا تضع حدود معانيك بين الأحياء بعضهم من بعض حتى يقوم بين الضّعف و القوّة حدّ المساواة ، وبين النفوس والشهوات حد التّقوى ، وبين الحرام والحلال حدّ الله .

. و يجيبه القبر :

. يا شقاء أهل الأرض ! أما إنهم لو وضعوا فيها موضعا من العناية لما كان الإبهام في السّريرة ، و لا كانت الغفلة في النفس ، و لا كان النّسيان في الطّبع ، ولولا هذه الثلاث في هذه الثلاث لما كان المجهول البشري كلّه في شيء واحد هو القبر (1) .

وهذه المناظرة تعرض فكرة " الموت " التي لا ينتبه إليها الإنسان إلا عند مواجهتها في نفسه أو في عزيز تأخذه منه. وهي محاورة النّفس للنّفس قبل أن تكون ردا على من لا يلقي بالا لهذا الطرح ، ويحتاج كل هذه الدّلائل والحجج ليقنع بما جاء فيها .

ب – التّناص " المحاورة البعيدة " :

جاء في الكتاب بطريقتيه : الظاّهرة و الباطنة :

1 – الطّريقة الظّاهرة :

يعرض فيها المحاورة شواهد من أقوال الغير ، مثل :

أ – الحكاية :

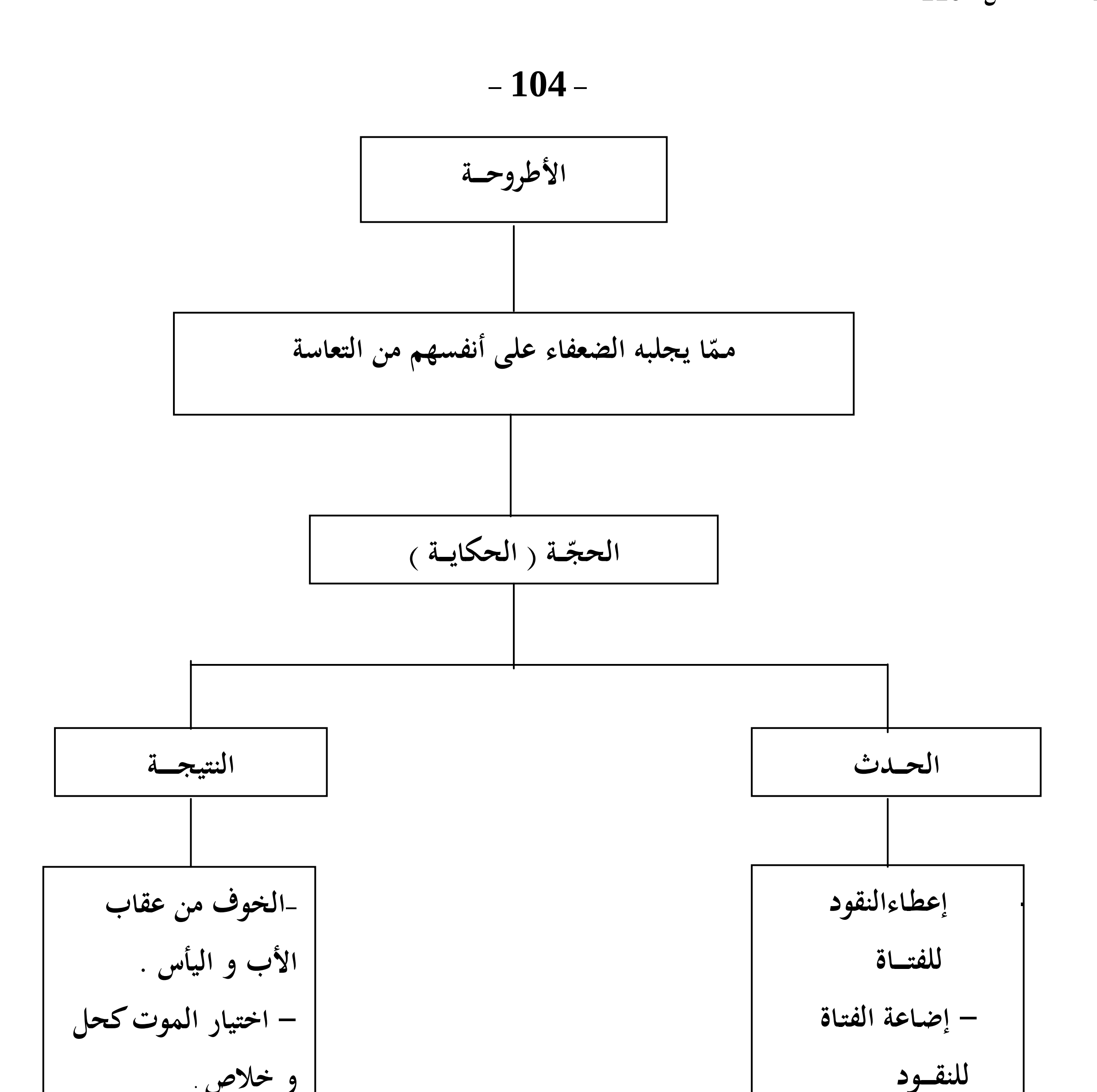
في حجاج " الشّيخ علي " أو " الرّافعي " عمّا يجلبه الضّعفاء على أنفسهم من التّعاسة ، يعمد إلى " الحكاية "

أو " موقف " أو " حادثة " وقعت لمن يعرفه ، ويتّضح ذلك في طريقة عرضه لها في قوله : << و لقد أعرف رجلا من أهل الفقر النّظيف أعطى ابنته قطعة فيها عشرة غروش ، وأرسلها تبتغي بها رزقا من الطّعام ، فأضاعتها فكأنما أضاعت عقلها ، ضاقت عليها الدنيا ، وخيّل إليها أن ليس على الأرض ما يسع طفلة ... فلم تجد لها غواثا إلا في الموت يحول بينها وبين أبيها ، فجرعت من الفنيك جرعة كانت فيها نفسها ، وابتعدت عن أبيها ولكن بعد مابين الدّنيا والآخرة ! >>(2) .

ويمكن التّمثيل لهذا الطّرح وهذه الطّريقة بهذا الشّكل الذي تتبيّن من خلاله الأطروحة التي لأجلها سيقت " الحكاية " ،و " الحكاية " لكونها حجّة هذا الطّرح تنقسم إلى حدث تقوم عليه ويفسر جزءا ممّا ورد في الطّرح ، كسبب يبرّر النتيجة كقسم ثان للحجّة ، وهذه النتيجة هي الخاتمة وهي الحجّة المباشرة التي تؤيّد الطّرح الأوّل:

1- كتاب المساكين ، ص ص : 62 ... 65 .

2- نفسه ، ص : 110 .



أ–الشّرح :

يتّضح خاصّة في الطّروحات التي تتبعها الأمثلة أو التشبيهات التي تشرحها وتحتّج لها في الوقت نفسه ، فتكون بمثابة المحاور الشّارح والمحاجج معا :

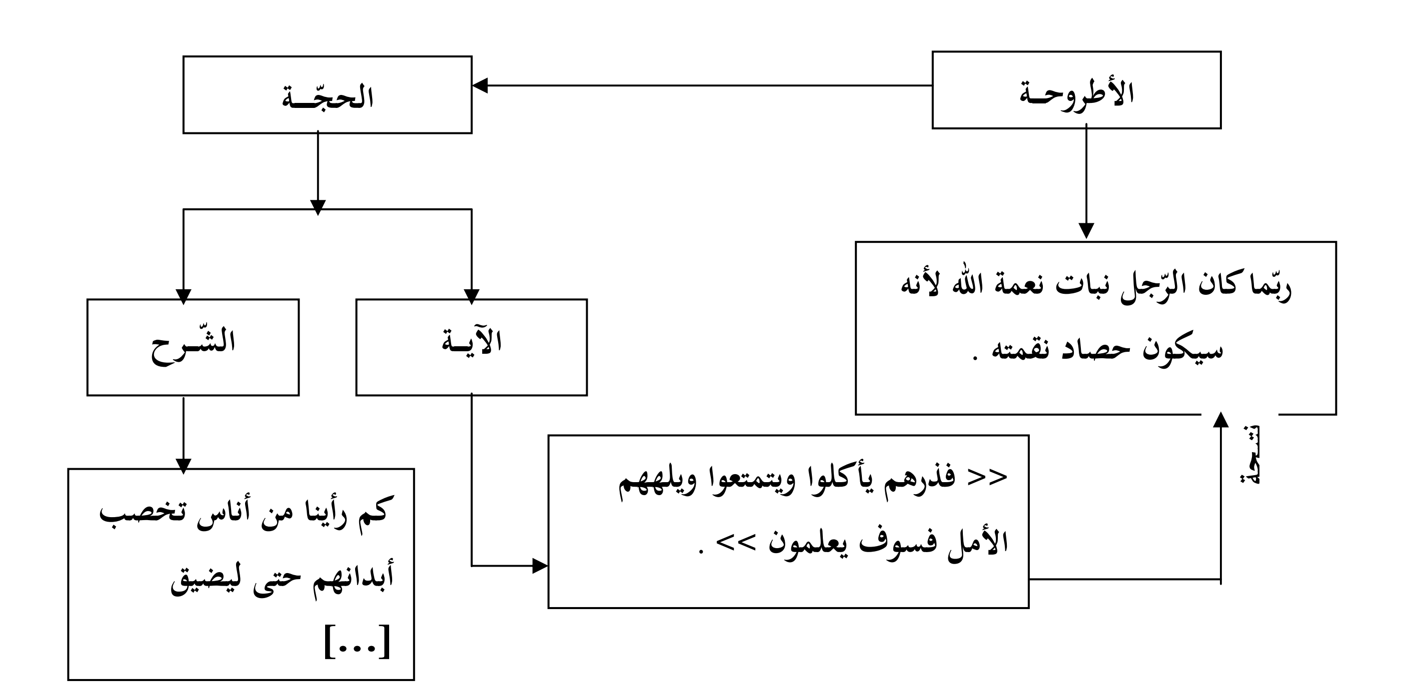
- **الأطروحة :**

ربما كان الرجل نبات نعمة اللّه لأنّه سيكون حصاد نقمته .

- **الحجّة " الشّرح " :**

كم رأينا من أناس تخصب أبدانهم حتى ليضيق بهم الجلد كدنة و سمنا ، و يكاد أحدهم ينشقّ مرحا و نشاطا ، ثم لا يكون هذا الخصب الذي استمتعوا به شطرا من العمر إلا سببا في أمراض مهلكة تستوفي الشّطر الآخر << فذرهم يأكلوا و يتمتعوآ و يلههم الأمل فسوف يعلمون >> (1) .

نجد في هذا المثال أن هذا التمثيل للأطروحة هو كذلك شرح لها و توضيح ، و تأتي في نهاية الشّرح الآية القرآنية كجزء منه ، و هي في الوقت نفسه نتيجة ، و بالتّالي حجّة مباشرة للطّرح المقدّم :



نتيجة

و في الكتاب نماذج كثيرة من " الشرح " ، أو تكاد تكون الصفة الغالبة على بنية الحجاج فيه .

ج- الاقتباس :

كان معظمه من القرآن الكريم ، و معلوم تأثر " الخطاب الأدبي" لدى " الرّافعي " بأسلوب " الخطاب القرآني" ؛ إن كان في الصياغة ، أو حتى في " اقتباس " العبارات و بعض الآيات و المفردات الدّالة ، و من أمثلة ذلك :

الأطروحة :

قتل الإنسان ما أكفره !

---

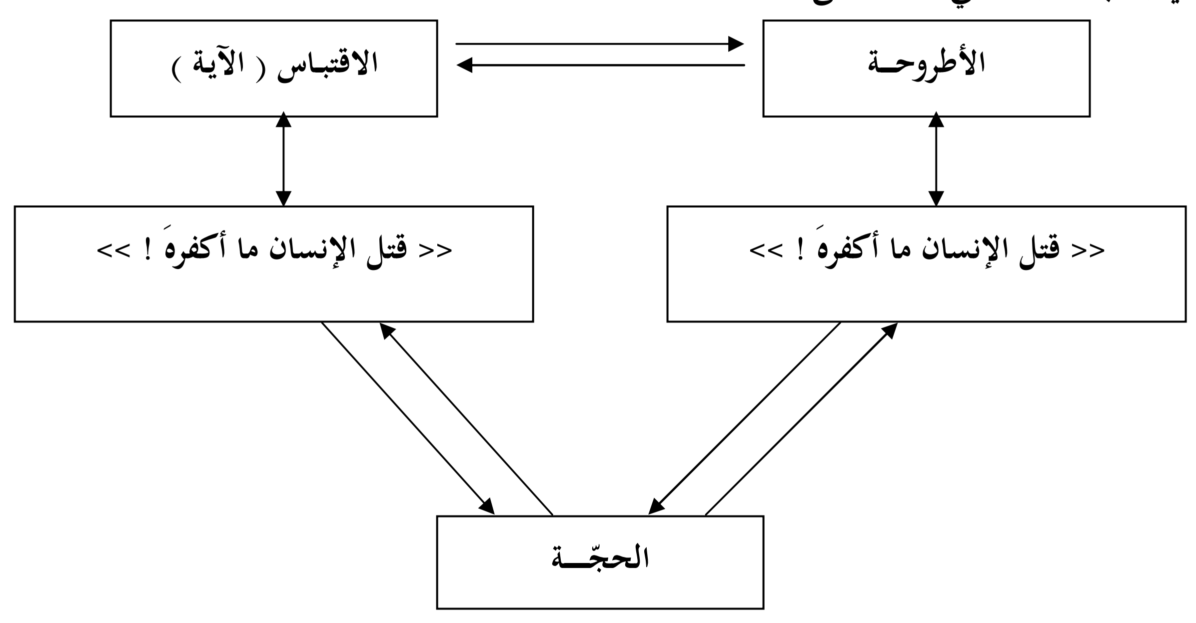
1. كتاب المساكين ، ص ص : 105 ، 106 .

- الحجّة :

لو أن غنيّا فقد جبلا من الذّهب و أصاب رغيفا يتبلّغ به لكان ذلك أيسر في مذهب الإنسانية من أن يذهب البائس المعدم فيتكفّف الأبواب ويستكفّ الناس ثم لا يتخلّص منهم رغيفا يمسك به الرّمق على نفسه ويقيم منه بابا حاجزا يمنع الجوع أن يدخل إليه الموت و أن يخرج منه الرّوح ؛ و لكن مصيبة الإنسانية في أهلها أن الله لم يخلق إلا صنفا واحدا من الناس ، على أن كل إنسان يظنّ أنه ذلك الصّنف الواحد [...] فالغني إذا تصوّر الفقر وهو لا يزال في غناه ؛ لا يتوهّم إلا اختلال نظام الأقدار ، واضطراب حركي الليل والنهار بعد أن يهوي كوكب سعده الذي يسكّ من كل ذرّة في أشعته دينار [...] وهو لا يرى بهذا الفقر إلا أن نقمة هابطة من السّماء ولعنة صاعدة من الأرض قد التقتا عند رأسه الشّامخ في جوّ كبريائه فاصطدمتا به فإذا هو مكبّ لليدين وللفم عند أقدام النّاس و إذا هو فقير ! (1) .

اقتبست الأطروحة أو النتيجة – مبدئيا – من القرآن الكريم << قتل الإنسان ما أكفره >> (الآية 17 من سورة عبس) .لخّص فيها فكرة الجشع الإنساني ، وقصور النّفس الإنسانية أمام أطماعها و ما إلى ذلك من هذه المعاني .

ثم جاء الشّرح أو مجموع الحجج الموسّعة في شكل أمثلة ترجمة أخرى لمعنى الآية التي تترجم هي بدورها الفكرة التي أراد الكاتب إلقاءها وتوصيلها ، ولم يجد أكمل من الآية ذاتها كصيغة موجزة ومبينة لمجمل القول الذي يجب أن يقال في هذا المعنى :



1. كتاب المساكين ص : 74 .

- الطّريقة الباطنة :

ينشيء بها " المحاور " نصّه عبر نصوص سابقة مماثلة أو مباينة ، يفتح بها آفاق نصوص أخرى مكمّلة أو مبدّلة ، ، فيصطبغ النّص عندها بصبغة المغايرة الصّميمة .

و مثالها نصّ : ((سحق اللّؤلؤة)) المقتبس من رواية ((فيكتور و لويز)) ، و الذي سيق بغرض توسعة فكرة أو أطروحة معينة ، و الاحتجاج لها بنصّ يكمّلها ، و كما يتضمن هذا النّص لبّ (النّص الأصلي) ، فهو يحمل في صلبه كذلك بذور المغايرة من حيث الطرح و التعليق ، و التعمق في الأفكار و طرق المحاورة و المقارنة ، إضافة إلى الزّيادات البلاغية (الصّور البيانيّة خاصّة) .

- الأطروحة :

يتلخّص غرض احتجاجه بهذا النّص في قوله على لسان " الشّيخ علي " :

و لتعلمنّ أن المال شيء غير الحياة ، و أن الحياة شيء غير المال ، و أن ما يخدع الإنسان فيتلوّن له من سراب هذه السّعادة إنما يكون أكثر ما هو كائن من بريق المال يحسبه شيئا حتى إذا جاءه لم يجده ؛ و عسى

أن لا يكون فيما أقبل من نعيم الدّنيا إلا ما يدبر بصاحبها ، و أن لا تطيب فيما زوي عنك من حظها إلا ما يقبل بحظّ نفسك على نفسك .

– الحجج (المحاورة عن طريق التّناص) :

يحتجّ " الرّافعي " لهذا الطّرح على لسان " الشّيخ علي " بالنّص المحاكي لنصّ ((فيكتور و لويز)) ، و هو نصّ أجنبي ، يحكي قصّة رجل عجوز يدعى " فيكتور " ، غني و بخيل عازف عن الزّواج و ما يتبعه من نفقات ، و يصادف ، و عند بلوغه لسنّ السبعين أن يلتقي فتاة تعيسة و فقيرة في ريعان الشّباب ، فتتصيّده لماله ، و يتصيّدها لشبابها و جمالها .فلا هي تجد السعادة و الحياة التي أرادت في رجل عجوز غني ، ولا هو يقع على السعادة و الحبّ مع ضعفه و شيخوخته و إن وجد الشّباب و الجمال معا .

و تضيع عشر سنين من عمر الفتاة في تعاسة و أسى مع مالها من مال ، ولا يعرف الشّيخ السعادة و لا الصحة و إن جاور الشّباب و الصّحة . و ينتهي حالهما إلى موت الشيخ بعد ذلك ، و إفلاس الفتاة بعد انجرافها في ما لا يحمد ، و يكون ذلك بعد أن :

يعلم الشّيخ أنّ : ((المال شيء غير الحياة)) ، و تعلم الفتاة أن : ((الحياة شيء غير المال)) .

و لا ينتظر من " الرّافعي " التزامه بحذافير النّص الأصلي تماما ؛ إذ يبدو ذلك من تقسيماته و ما تضمّنه من تفاصيل تفضي إلى حكم و آراء ، ومقارنات للطبيعة البشرية والقضاء وصراع النّفس والضّمير ، وما إلى ذلك .

قسّم النّص إلى عناوين تضم في أصلها حدثا معينا لم يكتف " الرّافعي " بإيراده ، لأنه لا يريد الحدث بقدر ما يريد فلسفة الحدث ؛ يصنع منها محاورة وصراعا نفسيا بين البطل ونفسه ، أو مع غيره في حوار غير صريح و لا مسموع :

– الرّجل البخيل :

فيه وصف للشّيخ " فيكتور " ؛ فلسفته في جمع المال ، نظرته للحياة و لا سيما للمرأة ، وكان هذا قبل سّن السّبعين ، وبعد بلوغه لهذا السّن ، حين اجتمع بالفتاة وعزم على تعويض شبابه فيها ؛ بإغرائها بماله وجاهه ، وبالتالي تغيير كل شيء حتى فلسفاته في كلّ شيء .

– ثمّ يشرع الكاتب في عرض حال الفتاة بعد غناها :

– في الحبّ ، في الحفلات ، في الرّقص ، في الموسيقى :

كلّها مظاهر الحياة الجديدة التي أصابتها في قصر الشيخ الغني الذي استحالت فلسفته الأولى في المرأة ، و الانفاق على المرأة ، وجدوى المرأة في حياة أحدهم ، استحالت كلّها فلسفة على النّقيض من ذلك تماما .

– يا ليل ، على المائدة ، فصل خامس في السّنة :

هنا تتكشّف للفتاة حلاوة الحياة التي لا يمكن للمال أن يصنعها ، و لا للتّرف أن يصنع سعادتها المنشودة ، ولكنّها تعلم ذلك بعد فوات الأوان .

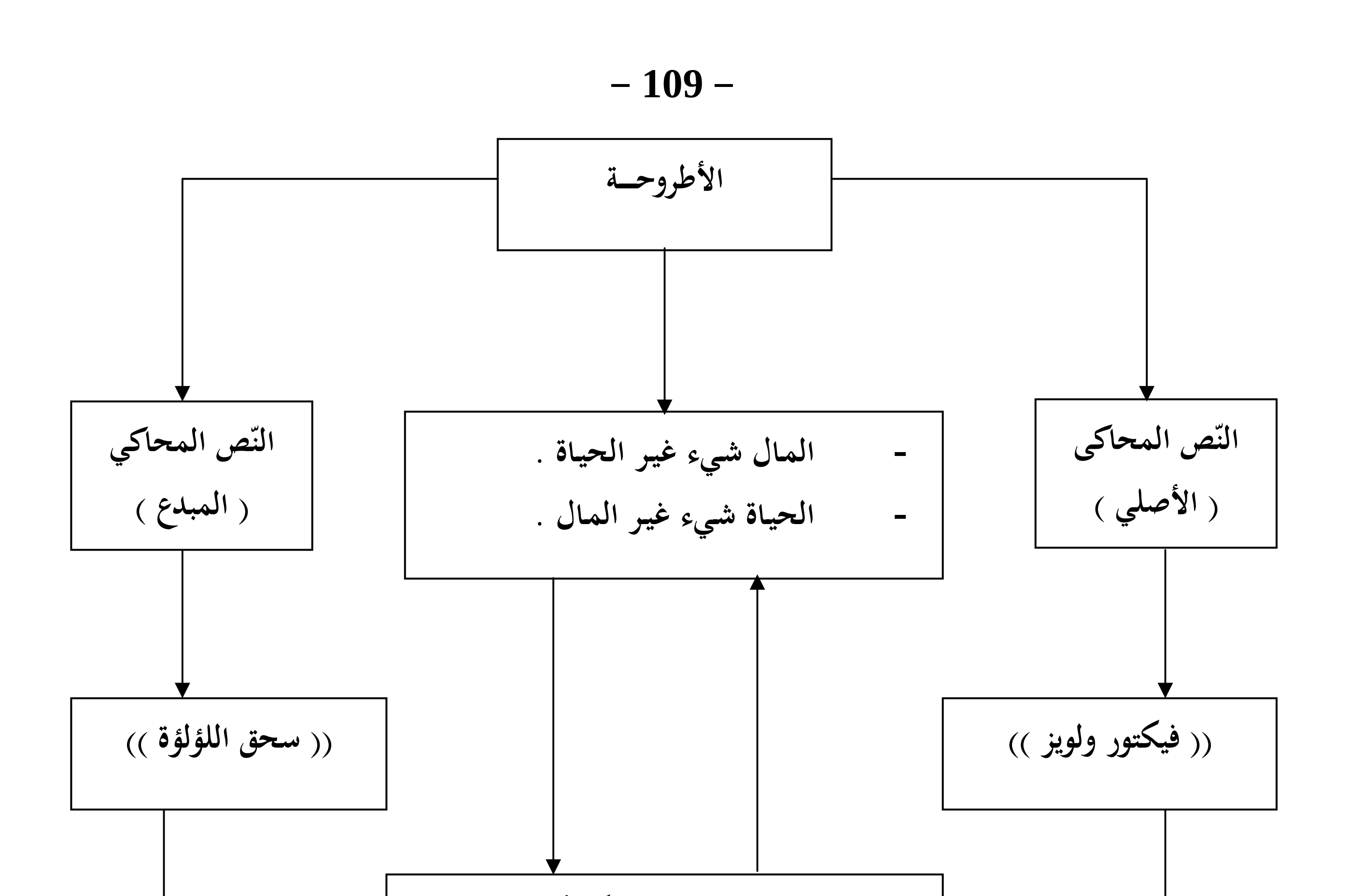
-شهر النّحل :

تكون هنا بداية النّهاية ، حيث تغدو الفتاة عقوبة للشّيخ ولنفسها ، تنجرف وراء ملذّاتها وأهواء حياتها الجديدة لا تلوي على شيء و لا تأبه لشيء ، حتّى ذلك الشّيخ الذي جنى على نفسه وعليها ؛ إلى أن ينتهي كلّ شيء بموته ، و بإفلاسها ، و لا تبقى سوى حكمة كلّ منهما مما صادف ، والتي كانت حجّة لأطروحة " الرّافعي " الأولى :

. الفقر خلو من المال ؛ ولكنّ أقبح الفقر الخلوّ من العافية ! << فيكتور >> .

. الغنى أن تملك من الدّنيا ، ولكنّ أحسن الغنى أن تهنأ في الدّنيا ... ! " لويز " .

ويمكن الرّبط بين هذين الطّرحين أو الحكمتين ، وبين أطروحة " الرّافعي " في الشكل التّالي :



- **من كل الأمثلة المقدّمة نجد أن الخصائص المناظراتيّة بنوعيها : المناظرة " المحاورة القريبة " و التّناص " المحاورة البعيدة " ، قد تحقّق معظم عناصرها و متعلقاتها في : ((كتاب المساكين)) ، و إن كان التفاوت والاختلاف يبقى مرتبطا بتوجّه الكاتب في نصّه ، وفي لغة هذا العرض كذلك .**

المبحث الثالث :

الخطاب الحجاجي التداولي في ((كتاب المساكين)) :

1. بنية الخطاب الحجاجي التداولي في ((كتاب المساكين)).

2. الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي التداولي في ((كتاب المساكين)) :

أ- التّشخيـص .

ب- المقـام .

المبحث الثالث :

- الخطاب الحجاجي التّداولي وخصائصه الحواريّة في (كتاب المساكين):

إنّ المقاربة اللّسانية – التّداولية للنّص الحجاجيّ باعتباره – لسانيا – نصّا متميزا عن باقي الأنماط النّصية الأخرى تبعث على تساؤلات ، أهمّها :

- هل نولي اهتماما لبنيته الحجاجيّة وعلاقتها الدّاخلية ؟

- أم لقيمته وفعاليته الحجاجيّة من خلال تفاعل ذواته مع محيطها الخطابيّ ؟

هذان الطّرحان يحيلان مباشرة إلى نوعين من المقاربة التّداوليّة للنّص الحجاجيّ ، ولاسيما في مدوّنة أدبيّة مفعمة بالتنويعات الأسلوبيّة ، والبنى والعلائق النّصّيّة :

1-أولى هاتين المقاربتين تركّز على بنية الخطاب الحجاجيّ وعلاقته الدّاخلية على اعتبار : (الأفعال الإنجازية : (المباشرة وغير المباشرة)) ، وكذا الرّوابط الحجاجيّة بدلالاتها الدّاخلية خاصّة).

2-أمّا الثّانية فتتعدّى البنية الدّاخلية للخطاب الحجاجيّ إلى التّفاعلات النّصّيّة التي تكون على مستوى تفاعل ذوات الخطاب مع المحيط الخطابيّ ، أو القيمة الخارجيّة ، والعلاقات التي تتجسّد في كلّ من : " التّشخيص "

و " المقـام " .

1- بنية الخطاب الحجاجيّ التّداوليّ في ((كتاب المسـاكين)) :

أ- الأفعال الإنجازيّة :

يعرّف " أوستن AUSTIN " الفعل الإنجازيّ بأنّه " ما نقوم به خلال كلامنا " (1) ، بمعنى الآثار التي ينجزها كلامنا ، والتي تخالف الفهم المجرّد لهذا الكلام ، أي ارتباط الكلام أو القول بالحدث مباشرة كما يشير " فان دايك VANDIJK " الذي يجعل مفهوم الفعل الإنجازي في علاقة وثيقة مع مفهوم الحدث " وقد يكشف تعريف موجز بديهيّ للفظ الفعل هذه العلاقة :فالفعل هو كلّ حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني " (2)

ومن شروط إنجازيّة الأفعال اقتضاؤها لشروط وأحوال ذهنيّة سابقة ، ولاسيما القصديّة ، لأن " أحوال حصول الأفعال المنجزة عن قصد هي ما يمكن أن توصف بكونها أفعالا إنجازيّة " (3) .

1-فرانسواز أرمينكو ، المقاربة التّداوليّة ، ترجمة : سعيد علّوش ، ص :61 .

2-فان دايك ، النّص و السّياق ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، ص : 228 .

3-فان دايك ، نفسه ، ص:235 .

و لأن التّداولية تتلخص في علاقة العلامات اللّغوية بمستخدميها ، فهي تمنح هذه الأفعال إطارا تواصليا ضمن بنية خطابية قابلة للتّأويل ؛ أي ما يسمى بالتّأويل التّداولي للعبارات (1) ، وتنقسم الأفعال الإنجازية في الخطاب إلى :

" أفعال مباشرة " ، " و أفعال غير مباشرة " .

1-الأفعال المباشرة :

يكون الفعل مباشرا إذا تطابق القول " الفعل Verbe و حكمة Mode نوع الجملة " مع " الإنشاء illocution " ، مثل :

- **أعلن عن اختتام فعاليات الملتقى .**
- **آمرك بالمغادرة .**
- **أسدل الستائر .**

– أين وجدت البطاقة ؟

و هي أفعال متواضع عليها ، وتتداول غالبا بمعانيها الأصليّة ؛ أي يطابق لفظها معناه مباشرة .

- وفي ((كتاب المساكين)) ، وعلى الرّغم من لغته المفرطة في الأدبية التي تحيل مباشرة إلى لا مباشرة الأفعال والكلام عموما ، إلا أننا نستطيع العثور على مجموع طروحات وحجج مباشرة تطابق ألفاظها معانيها دون اللّجوء إلى التّأويل :

1) –

–الأطروحة :

– لذّة المال لا تتجاوز الحواس الظّاهرة .

الحجّة :

فهو يبتاع لها كل شيء مما تشتهي ، ولكنّه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئا إلا إذا جاءه بالخير والفضيلة (2) .

لغة هذا الطّرح وحجّته ، وإن كانت في أصلها استعاريّة ، إلا أنّ اعتيادية تداولها على هذا الشّكل و الاصطلاح حملها محمل اللّغة العادية التي لا يلجأ سامعها على بساطته إلى التّأويل ، جعلها في عداد " الأفعال الإنجازية المباشرة " التي يحيل لفظها رأسا إلى معناها ، وينطبق على هذا الطرّح أحد تصنيفات " أوستن " للأفعال الإنجازية ، وهو : " الحكميات Verdictifs" ، حيث تعدّ هذه النتيجة (الأطروحة) حكما مباشرا على المال ولذته التي لا تعدو السّطحية وملامسة الظّاهر ، لأنها لا تتجاوز إرضاء الشّهوات ، و لا يبلغ القلب إلا بالخير و الفضيلة .

---

1. فان دايك ، السابق ، ص : 257 .
2. كتاب المساكين ، ص : 63 .

2) –

الأطروحة :

فكرة الكلّ لا يتصوّرها و لا يستوفي معانيها إلاّ الدّين الصّحيح .

الحجّة 1 :

إذ هو خروج بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره .

الحجّة 2 :

و انتزاع له من ذاتيته إلى إنسانيته .

الحجّة 3 :

ودفع بالإنسانية نفسها إلى الكلّ الذي هو أسمى (1) .

كذلك هو الأمر بالنسبة لهذا الطّرح وحججه ، لا تخلو لغته من الاستعاريّة ، ولكنّها استعاريّة مباشرة ، ومألوفة ، و تكاد تكون مصطلحا عليها لعدم حاجتها إلى التّأويل ؛ لوضوح مقاصدها ، و مطابقة ألفاظها لمعانيها غالبا .

وصفة " الحكم أو الحكميّة " الغالبة على هذين الطّرحين تجسّد معنى عبارة : << القول هو العمل >> ، التي تحيل إلى أربعة أفعال في الوقت نفسه :

1 –فعل القول . Acte d'enonciation –

2–فعل الإسناد . Acte propositionnel –

3–فعل الإنشاء . Acte performatif –

4–فعل التّأثير . Acte perlocutif – (2)

1– فعل القول . Acte d'enonciation :

وهو فعل التّلفظ بالكلمات والجمل :

الطّرح الأوّل (مثال 1)	الطّرح الثّاني (مثال 2)
– لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة.	– فكـرة الكـلّ لا يتصـوّرها و لا يسـتوفي معانيها إلاّ الدّين الصّحيح .

1. كتاب المساكين ، ص: 250 .
2. الجيلالي دالاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ترجمة : محمد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1992 م ، ص : 25 .

2– فعل الإسناد . Acte propositionnel :

بربط الصّلة بين المرسل والمرسل إليه ، أو بين المحاجّ والخصم (السّامع – القاريء) المفترض (المضمر) ؛ أي إسناد معنى القول إلى الطّرف الآخر بغية تغيير منظور بمنظور جديد :

الطّرح الأوّل (مثال 1)	الطّرح الثّاني (مثال 2)
إسناد القول إلى آخر : " اعلـم " بـأن لـذّة المـال لا تتجـاوز الحواس الظاهرة .	إسناد القول إلى آخر : " اعلـم " أن فكـرة الكـل لا يتصـورها و لا يستوفي معانيها إلاّ الدّين الصحيح .

3–فعل الإنشاء . Acte performatif :

يتحقق الفعل الإنشائي في القصد المتضمن في القول ، إن كان نصحا أو عرضا أو تقييما و حكما ...

الطّرح الأوّل (مثال 1)	الطّرح الثّاني (مثال 2)
الحكم و التقييم : لذّة المال لا تتجاوز الحواس الظّاهرة .	الحكم و التقييم : فكرة الكلّ لا يتصوّرها ولا يستوفي معانيها إلاّ الدّين الصّحيح .

4- فعل التّأثير Acte perlocutif :

يتوقّف التّأثير على المعنى الذي يعطى للقول ، و في المثالين (1) و (2) إضافة إلى الطّرح ، ومدى وقوف المتلقين على معنييهما منفردين ، هناك حجج ملحقة تزيد في الإيضاح ، وتبلغ من التّأثير حدّ الإقناع :

الطّرح الأوّل (مثال 1)	الطّرح الثّاني (مثال 2)
لذة المال لا تتجاوز الحواس الظاهرة.	- فكرة الكلّ لا يتصورها و لا يستوفي معانيها إلاّ الدّين الصحيح .
الحجّة :	الحجّة :
- فهو يبتاع لها كل شيء ، مما تشتهي ، و لكنه لا يستطيع أن ينيل القلب شيئا إلاّ إذا جاءه بالخير والفضيلة .	1- إذ هو خروج بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره . 2-و انتزاع له من ذاتيته إلى إنسانيته . 3- و دفع بالإنسانية نفسها إلى الكلّ الذي هو الأسمى .

2- الأفعال غير المباشرة :

هو استخدام المتكلم أو المخاطب لعبارات إستعاريّة و أشكال قول مجازية بدل استخدام المعاني الحقيقية والجهر بما يريد الإدلاء به ؛ أي إجبار المتلقي على الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله .

كقولنا : كلمته سيف .

إنّ المستمع لهذه العبارة يلغي وجوبا المعنى الحقيقي ؛ أي كون الكلمة سيف (نوع من الأسلحة) ، و لا يحتفظ إلا بالمعنى المجازي المراد ؛ وهو الصّرامة و الجديّة .

وفد أطلق " غرايس Grice " مفهوم " حكم الحديث Maximes Conversationnelles " على المقاصد غير المباشرة للتّعامل والتّواصل ، و من بينها الكلام غير المباشر (1) .

ويكاد الكلام في ((كتاب المساكين)) يكون غير مباشر بحكم الأدبية الخالصة التي يتبنّاها منشؤه في تأليفه جميعا ؛ فهو يضم مجموع طروحات وحجج استعارية مجازية و غير مباشرة ، إنّما يستشف معناها من خلال تأويلها وإعادة ترتيب عناصرها :

الأطروحة :

– من يهرب من شيء تركه وراءه ، إلاّ القبر .

الحجّة 1 :

فما يهرب أحد منه إلاّ وجده أمامه .

الحجّة 2 :

هو أبدا ينتظر غير متململ .

الحجّة 3 :

وأنت أبدا متقدّم إليه غير متراجع (2) .

لغة هذا الطّرح مجازية ؛ تعتمد الاستعارة التي تجسّد من معنى الموت و مكانه الأبدي الذي هو القبر مخلوقا أو كائنا له قدرة التّواجد في كل مكان لأنه في كل مكان أصلا ، وقدرة الانتظار لأنه مآل الإنسان الأخير ، وهو كذلك المصير الذي يهرب الإنسان منه إليه .

وهنا ينطبق مفهوم " غرايس Grice " : " حكم الحديث " ، لأنّ الطّرح بحججه لا يرمي إلاّ إلى استخلاص حكمة بديهيّة ؛ ومضمون أزلي لهذا القول وهو الموت المؤكد ، و القبر بوصفه المكان النهائي للكائن البشري

1. الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التّداولية ، ص : 31 .
2. كتاب المساكين ، ص : 63 .

ب . الرّوابط الحجاجّية :

إنّ تقدير المتكلم أو المرسل لردود أفعال المخاطب أو المرسل إليه ، يجعله يستنبط حججا افتراضية بناء على ذلك التقدير ، و لأن خطابه الحجاجي هذا يكون دوما مواجهة لخطاب ضدّ حقيقي أو تقديري (سواء كان طرحا واقعا و هو بالتالي مرفوض ، أو مقدّرا يتوقّعه المتكلم ويفترض وجوده في ذهن المتلقي) ، فإنه يسهم في تحقيق النّشاط التّواصلي الذي قد تفرضه البنية اللّغوية ذاتها ، أو السّياق النّصي ، وقد يتعين بطريقة مباشرة عن طريق :

" الرّوابط الحجاجية **Connecteurs argumentatifs** " التي تصل المقدّمة بالاستنتاج ، وتتدخّل في توجيه دلالة المحاججة (1) .

يتوفّر الخطاب الحجاجي في : ((كتاب المساكين)) على مجموع روابط تنفرد كلّ منها بدلالتها و أثرها المتكوّن بين النتيجة (الطّرح) والحجّة :

1– الفاء :

الأطروحة (النتيجة)	الرّوابط	الحجّة
1. و ما حياة الفلاسفة إلاّ اختيار للموت	الفاء	فهم يميتون في أنفسهم كلّ سبب إلى الشهوة وكلّ داعية إلى اللذّة ....
2.أما شيخنا فقد مسح الله نفسه و مسح ما به من النّاس .	الفاء	فليس في صدره و لا صدر أحد حسيكة عليه .
3.و لعل سبب الموت أنّك لا تجد إنسانا يعيش في حقيقته الإنسانية .	الفاء	فلا هذه الحقيقة يسّرت له كاملة ، و لا هو خلق لها كاملا .
4.إن هؤلاء النّاس بعض أعمال الله في أرضه .	الفاء	فهو يخلقهم وينشئهم و يديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طردا وعكسا .
5..ما خلق الله لذّة أهنأ للنّفس من لذّة الأحلام .	الفاء	فكأنما ترى فيها النّفس شيئا من تحقيق المستحيل
6.حب الرجل حب مجنون بطبيعته .	الفاء	فإذا لم يكن حب المرأة عاقلا انقلب كلاهما حيوانا طامس القلب لا يبالي ما جنى على نفسه

---

1. آمنة بلعلى ، تحليل الخطاب في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2002 م ، ص : 117 .

لحرف " الفاء " دلالات عديدة تختلف باختلاف تموضعها في الكلام ، لكنّها هنا في هذه الأمثلة لا تكاد دلالتها – إلى جانب الرّبط بين النتيجة والحجّة – تتجاوز التّعليل و التّفسير ، حيث تأتي مباشرة بعد الانتهاء من إلقاء النتيجة (الطّرح) ؛ لتحيل إلى ما يفسّره و يعلّل مضمونه من حجج .

2– إذ ، لأن :

الأطروحة (النتيجة)	الرّابط	الحجّة

الأطروحة	الرابط	الحجة
1. غير أن الطيور تهزأ بالناس جميعا ، وهي على ضعفها أقوى من الشرائع و القوانين .	إذ	تنبعث و كأن كل طائر منها إرادة متجسمة تقذف بها السماء فما تبالي على أي أرض تقع و من أي حبّ تلتقط .
2.فكرة الكل لا يصورها و لا يستوفي معانيها إلا الدين الصحيح .	إذ	هو خروج بالفرد من شهواته التي تفصله من غيره إلى واجباته التي تصله بغيره ، .....
3. و لقد يعجز الإنسان أحيانا كثيرة أن يكون نفسه .	إذ	لا تنقاد له الطريقة التي يتغلب بها على الحوادث أو يجاريها أو ينبه لها الحذر ، .....
الحرب شر لا بد منه .	لأنها	من عوامل التحليل و التركيب في تاريخ الإنسانية .
2.و قد نشأ على أن حب المال لا يستقيم إلا ببغض النساء .	لأنه	أكثر ما يجمع لهن و أكثر ما ينفق عليهن .
3.الرجل في يد المرأة ضعيف .	لأن	معظم قوته منصرف إلى حواسه ، و لأنها على ضعفها ينصرف ما فيها من القوة إلى عواطفها فلا يلتقي الخصمان إلا كانت الهزيمة على الرجل
الفقر متى ألقيته سؤالا عاد إليك بجواب نفسه .	لأنه	فصل من كل عمل كالشتاء فصل من كل سنة.

كذلك يلتقي الرّابطان " إذ " و " لأن " في دلالة واحدة و هي التعليل و التفسير ، و يتموضعان تماما بعد إلقاء

النتيجة (الأطروحة) ؛ مرتبطين مباشرة بالحجج بما أنها هي ذاتها تفسيرات و مبررات لسلامة الطّرح .

فكل من : " الفاء " و " إذ " و " لأن " أدوات ربط علّيّة و استنتاجية في الخطاب الحجاجي التّداولي .

– **الكاف ، كأنّ ، ما أشبه ، مثله كمثل :**

الأطروحة (النتيجة)	الرّابط	الحجّة
1. و هذا (الشيخ علي) رجل غامض متلفف	الكاف	كدهاة السياسة في شباكهم التي يأخذون بها

بحقيقته العجيبة		الأمم و الشعوب فلا تبرح ترتبك فيها ارتباك الصيد في الحبالة .
1. فهو حليم لنفسه ، غضوب لنفسه ، و كذلك هو في الخفة و الوقار و الضحك و العبوس و الزّهو و الانقباض ، و في كلّ ضدين منهما لذة و ألم .	كأنه	جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما في المادة و إن كانت هي فيه .
إن هؤلاء الناس بعض أعمال الله في أرضه.	فما أشبههم	فهو يخلقهم و ينشئهم و يديرهم لتعلق طائفة من الأقدار بنتائج أعمالهم طردا و عكسا بدابة الطاحون تلزم دائرتها و لا تفتأ تدور إلى غير انحراف ، ثم هي لعلها حين تسمع ذلك الهزيز و تلك الجعجعة تحسبها من نشيد الاحتفال بها .
كل منهم – المختلق و الفيلسوف و المصلح و العالم – صحيح في ذاته ، لكنه فاسد بموضعه من أغراضه أو من أغراضنا	و ما أشبههم	بالأشجار في المقابر لا تجد لها في المقبرة ما تجد لها في الحديقة ،كأنها لما قامت في موضع الموت قامت حية ولكن ماتت روح الحديقة فيها .
و لكن الحب يابني لا يكون عجيبا بلا شيء يعجب منه .	فمثله كمثل	كثيرا ما يتملأ الرّجل بغضا ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض . من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي لا تؤدي إليه ، فمتى أصابه كانت قوة البرهان بطريقة استخراجه العجيبة أشد منها في البرهان نفسه .

تعدّ المقارنة أو (التشبيه) من الرّوابط الحجاجية ، وتتجسد في (كتاب المساكين) بشكل مكثّف ؛ إذ تتركّب بنية الحجاج فيه من نماذج تشبيهيّة (بلاغية) سواء من صلب النتيجة (الأطروحة) ، أو في الحجج ، وكثيرا ما تكون التشبيهات حججا ثانية فيه ، تأتي بعد الحجج النّظرية المتضمنة للفكرة ، والتي تعوزها أمثلة و تشبيهات تقوّي من صحّتها و سلامتها

و جاءت الرّوابط الحجاجيّة التّشبيهية في هذا الكتاب متنوّعة بين الأحرف والأدوات و الألفاظ :

" الكاف " ، " كأن " ، " ما أشبه " ، " مثله كمثل "، وهي تتوسّط بين النتيجة و الحجّة . و الملاحظ أ نّ كلاّ من " الكاف " و " كأن " تحيلان مباشرة إلى الحجّة التي هي بدورها المثال التشبيهي بحكم مباشرتهما و دلالتهما التشبيهية الأصليّة ، بينما نجد التراكيب " ما أشبه " ، " مثله كمثل " ، تأتي في المرتبة الثانية بعد الحجّة الفكرة ، لتحيل على حجّة الحجّة ؛ أي المثال ، و هذا مجاراة للأسلوب القرآني في ضرب الأمثلة و تشبيه الحالات ، و الحجاج عموما ، فكأنّ الكاتب أراد باستعارة مثل هذه الرّوابط – من القرآن الكريم خاصّة – الاستجابة السّريعة للطّرح و الإقناع المباشر الذي لا محالة واقع مادام يتضمّن حجاج اللّفظ و الفكرة ، وكلاهما مستقى من المرجع القرآني .

2– الخصائص الحواريّة للخطاب الحجاجيّ التّداولي في (كتاب المساكين) :

" الحواريّة " مكوّن أساس لكلّ كلام ، وهي تتوزّع كخطاب بين متلفّظين فأكثر ، و كونها من مستويات تجلّي البعد التداولي للخطاب الحجاجي ، فهي تقوم على ركيزتين تختصران كثيرا من الخصائص الخطابية لتداوليّة

الحجاج في أي مستوى من مستويات الكتابة خاصّة ، كونها تفسح مجالا أوسع لاستثمار المعطيات المتاحة للخطاب .

و هاتان الرّكيزتان هما : " التّشخيص " و" المقام " ، و هما العنصران نفسهما الذّان سنتحرّى الوقوف عليهما في مدّونة " الرّافعي " : ((كتاب المساكين)) :

أ – التّشخيص Personnification :

التّشخيص لدى " بانفنيست " خاصّية تلفّظية ، أو هو الإطار التّشخيصي للتّلفظ ؛ لاقتضاء التّلفظ كبنية حوارية لصورتين هما : مصدر التّلفظ وهدفه (1) . و هو نوع من أنواع الحجاج ، سمّاه " طه عبد الرّحمن " : " الحجاج التّقويمي " ، الذي يعمد المستدل فيه إلى تجريد ذات ثانية من ذاته ينزّلها منزلة المعترض على قوله ، يستنبط من فعل التّلقي لديها كلّ ردود الفعل المحتملة : استفسارات ، و اعتراضات ، ويستحضر بهذا مختلف الأجوبة عليها و مستكشفا في الوقت نفسه إمكانات تقبّلها واقتناع المخاطب بها (2) . و التّشخيص عند " بيرلمان " دراسة لطبيعة العقول تستدعي أحسن السبل لمحاورتها ولإصغاء إليها وحيازة انسجامها الإيجابيpositive L 'adihision والتحامها مع الطّرح المعروض . وهذه الأمور النّفسية و الاجتماعية تفقد بغيابها الحجاج تأثيره و غايته (3) ؛ لذا فهذا النّوع من الحوارات الإقناعية يبرز على صورتين : صريحة وضمنية ، و الحوار الضّمني هو النوع الذي انبنى عليه " التّشخيص " في ((كتاب المساكين)) ، حيث جرّد " الرّافعي " من نفسه محاججا خاصا يتناول معه هموم المخاطبين مستدلّا به على نقائض طرحه و عيوب خطابه ، و ذلك من خلال شخصيّة : " الشّيخ علي " .

1- الشّيخ علي :

رأى فيه " الرّافعي " : << الجبل المتمرّد الباذخ الأشمّ في هذه الإنسانية المسكينة >> ، و هو في حقيقته

---

1. حبيب أعراب ، الحجاج و الاستدلال الحجاجي ، ص : 104.
2. طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص : 228.
3. محمد سالم ولد محمد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص : 68.

رجل من قرية يقال لها ((منية جناح)) من أعمال مركز دسوق ، توفي سنة 1919 ؛ أي بعد صدور الطّبعة الأولى للكتاب بعامين ، لقيه " الرّافعي " معدما وحيدا هزيلا مشرّدا ، إذا جاء نزل أوّل دار تلقاه فتناول ما

يمسك رمقه ، و إذا نعس توسّد ذراعه حيث أدركه النّوم ، في الدّار أو في الطّريق ، كان يعيش فوق آمال الناس و الحياة ، و عنده حلّ لكل مشكلاته .

<< و قد أراد الرّافعي أن يجيء كتاب المساكين صدى لأفكار هذا الشّيخ الفيلسوف ناطقا بلسان الرّافعي الأديب ، ممثلا نموذج الرّجل الكامل السعيد الفيلسوف الحق ، الذي استولى على نفس المؤلّف و أعجبه من جنونه العقل كلّه ، إنّه في الحقّ ، الرّافعي نفسه لكن في صورة متسوّل >> (1) .

يقول عنه " الرّافعي " في مقدّمة كتابه : << ستقرأ في الكتاب وصف " الشّيخ علي " الذي أسندت إليه الكلام و جعلته فيما أستوحيه كالخيط من شعاع السماء تهبط عليه تلك المعاني التي خلد عليها جمال الخلد ، " فالشّيخ علي " هذا هو رمز في كل دهر لثبات الجوهر الإنساني على تحوّل الأزمنة في أشكالها المختلفة ، و من ثمّ تعيش مع الإنسانية معاني هذا الكتاب ، فهو من روحها صورة و حلية و جاذبية ، و من عجيب الحكمة أنه ما من نبي أو حكيم أو شاعر يترجم إلى لسان الحياة ما هو أسمى من الحياة إلاّ استمدّ ذلك من مساكين الحياة الخاصّة ، هم أبدا السّحابة المستوية المخيلة لمطر العواطف علىجدب الرّوح الإنسانية في الأرض >> (2) .

فهو انتقى لمساكين كتابه " مسكينا " من لدن بيئتهم و أوجاعهم ، يتحدّث بلسانهم ، ويحاجج عن واقعهم و فلسفة حياتهم وتماشيهم مع الهموم التي يصنعها القدر ، والهموم التي تصنعها الناس للناس و قد أشار " كمال الحاج " في كتابه عن " الرّافعي " إلى استيحاء " الرّافعي " لفكرة " التّشخيص " هذه من أعمال كبار المؤلفين والفلاسفة ، و عباقرة العالم الذين وضعوا أفكارهم على لسان أبطال يتخيلونهم أو يأخذونهم من دائرة الواقع << فيتخذونهم أبواقا ينفخون بها لوامع أرواحهم و بوارق أفكارهم >> ، و يستدلّ على ذلك " بأفلاطون " الذي اتّخذ " سقراط " بطلا لمحاورته ، ويذهب " مصطفى الجوزو " إلى أنّ " الرّافعي " إنّما قلّد " نيتشه " بالذّات حين جعل من " زرادشت " مثال الإنسان الأعلى (3).

فالمخاطب أو " الشّيخ علي " ، يكتسي هنا في هذا التّصور مسحة مثالية صوفيّة تنفصم عن الواقع المحسوس والمادّي ، لتزداد ارتباطا بكل ما هو مجرّد ، من صفاء الرّؤية ، وعمق الإحساس ، و ثاقبية النّظرة الممحّصة للأمور ، المتنبّئة بعواقبها ، المحيطة بعوامل وقوعها ، وإلقاء الضّوء بهذا على كلّ العوامل – السّلبيّة خاصّة – تنبيها ، ومحاولة لمعالجة المجتمع منها كونها صدعا خطيرا يتهدّد تماسكه وسلامة بنيانه .

1- مصطفى الجوزو ، مصطفى صادق الرّافعي ، رائد الرّمزية العربيّة المطلّة على السوريالية ، ص ص :66 ،67 .

2- الرّافعي ، كتاب المساكين ، ص 17 . المخيلة : الممتلئة التي يؤمل فيها المطر.

3- مصطفى الجوزو ، نفسه ،ص : 67 .

و " الشّيخ علي " هو المخاطب النّابع من << الفاعل >> ، أي المرسل لقول ذاته ، و الجزء من تجريداته وطموحاته .

2- البنية المؤطّرة (الدّعاء) :

هذا العنوان و ما يليه مستوحيان من كتاب " آمنة بلعلى " : ((تحليل الخطاب الصّوفي)) ، وذلك بتقاربهما مع ما ورد في ((كتاب المساكين)) ، سواء في النّفحة الصوفية ، أو في العناصر التي جاءت موافقة لهذه النّفحة ، و مقتضيات التخاطب عموما .

حصرتها الكاتبة في فعل (الدّعاء) الذي تبدأ به المناجاة الصّوفية ، وهو تماما الذي بدأبه " الرّافعي " كتابه ، واستوحى منه اسمه ، أي هو قوّة ابتدائية تؤطّر الخطاب يبتدأ بها الحديث وبها يختتم . وقد ابتدأ " الرّافعي " كتابه بدعاء " الرّسول صلّى الله عليه وسلّم " : << اللّهمّ أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين >> .و " الدّعاء " هو فعل الكلام الذي تجتمع فيه أفعال جزئيّة " كالطّلب بالأمر " و " النّداء " و"الشّرط " ، وهي وسائل تمتلك الكفاءة اللاّزمة التي تحقّق النّشاط الخطابّي ، وضمان للمشاركة وإحداث الأثر (الإقناع) ، لما يحمله (الدّعاء) من " قوّة كلاميّة **Force Ilcecutoires** " والدّعاء كفعل كلام يدار به الحديث يسهم في فرض شروط التخاطب وضمان استمراره بنمحه بعض هذه القوّة الكلاميّة التي يمتلكها ، كما أنّه من آليّات النّفاذ إلى النّفس والقلب معّا ، وتحقيق القصد من وراء الأقوال ، ويكون موقع الدّعاء في مناطق عديدة من مساحة الخطاب ، بدءا من :

أ – الإستهلال :

أو تحسين الاستهلال ، نجده في الكتاب متموضعا كمقدّمة توحي بفحوى هذا الكتاب ، وتشدّ المخاطبين إليه ، وتغري بزيادة النّظر فيه ، كما تعدّ ضمانا لحصول التّجاوب ، والوصول إلى التّأثير والإقناع ، ولاسيما إن كان هذا الدّعاء هو نفسه حديثا أو أثرا عن " الرّسول صلّى الله عليه وسلّم " :

<< اللّهمّ أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين >> .

ب – حسن التّخلّص :

ويجئ الدّعاء هنا ترجمة لكلام كثير يمكن أن يسوقه الموقف الذي ورد فيه ، كموقف " الفتاة الفقيرة " في نصّ : ((مسكينة !مسكينة)) ، والتي ترجم الكاتب أو المخاطب تأثّرها وأساها لحال " السيدة الغنيّة " لدى رؤيتها ، بقولها :

يا ربّاه ! مسكينة ! مسكينة !

ثمّ يتلو هذا الدّعاء – دعاء الموقف – دعاء أطول نصّا وأبلغ معنّى يرد بمثابة الموعظة والحجّة على ما سبق وأن طرح في أوّل النّصّ :

" علمنا أن كلّ شيء يسير فإنّما هو يذهب في طريق يتهدّى أو يعتسف وكأن الأسف على أهل الشّر لم يجد طريقا في هذه الحياة إلاّ من ضمائر أهل الخير ، و بهذا يضرب الشرّ أهله وغير أهله " :

<< اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممّن تشاء ، وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء ، بيدك الخير ، إنّك على كلّ شيء قدير >> (1) .

يخلص المخاطب منه إلى نتيجة غير مباشرة في قالب سيتميل السّامع ويؤثّر فيه ، وبالتّالي يدفعه عن اقتناع إلى أشياء معيّنة ، كما يقبضه عن أخرى .كما يجسّد الدّعاء الختاميّ الوفاق الحاصل بين المتكلم والمخاطب ، وهو بمثابة الإعلان عن نجاح فعل التّحاور .

ج – الخطابيّة :

يرتبط الدّعاء في الكتابة العربيّة بالخطبة أو المخاطبة في عمومها ، وهو في هذا الكتاب يرد على أوجه ثلاثة :

1 – مخاطبة شخصيّة القصّة للخالق (المناجاة) :

ترد هنا على لسان " لويز " أو " اللّؤلؤة المسحوقة " ، التي تناجي الله أن يرأف بها ويخلّصها ممّا ابتلت به نفسها ، وهو زواجها من الشيخ الثّري ، وحرمانها من سعادة القلب وهناء الروح : << اللّهمّ إنّك رزقتني العافية في كلّ جوارحي ولو تصبني إلاّ في القلب >> .

<< اللّهمّ قد أحيط بي وليس ورائي منفسح ، فمن حيثما التفتّ لا أرى غير ما قضيت عليّ أن أرى ، وهذا امتحان أينما أتوجّه في الحياة لا تقابلني الحياة إلا بمسألة من مسائله المعضلة ! >> .

<< اللّهمّ رحماك ! فأنت المصيب وأنا المصابة ، تلك قوّتك وهذا ضعفي ! >> .

ولهذا النّوع من المخاطبات دور في استمرارية الحوار بين المخاطب و المخاطب المفتعل الذي يراد به المخاطب الضمني الذي هو القاريء ، و هو تحريك بعض مشاهد الحوار أو تجسيدها على يد أبطالها ، كنوع من الإحالة على المشهد ، أو الاستدلال على الرّأي المطروح ، بقول صاحبه و إفصاحه عن حاله ، و في كل هذا إقناع للمتلقي .

2– محاورة الشخصيات فيما بينها :

لا نكاد نجدها إلاّ في نصّ : ((مسكينة ! مسكينة !)) ، حيث تعمد " الفتاة الفقيرة " إلى استعطاف " السيدة الغنية " ، بمخاطبتها بالدّعاء لها بدوام النعمة :

– سيّدتي ! أدام الله نعمته عليك و هنّأك هذه النعمة بدوامها !

– سيّدتي ! وقاك الله ما أنا فيه من بأساء الحياة و لا كتب عليك أن تعرفي ما هي !

و في هذا النوع كذلك إفساح لمجال تعريف الشخصيات بأنفسها ، و الإفصاح عن حالها ، و تفعيل التواصل في مشهد خطابي تحاوري يتخذ الدّعاء صبغة لكلام أحد الطرفين ، وفي هذا كذلك نوع من الاستدلال على الرّأي المطروح في مقدمة النّص ، و بداية محفّزة تدعو المتلقي إلى استنتاج ما أراد المخاطب الوصول إليه ، و وضعه في الصّورة ، ليصل في الأخير إلى الحقيقة المقنعة بالطّرح و التّصوّر المعروض .

3- محاورة الكاتب للشّخصيّة المختلقة :

و هي عبارات الدّعاء المختصرة و المختزلة لجمل و عبارات خطابية عديدة يسوقها الكاتب في غضون الحديث ؛ للفت انتباه المتلقي المراد (القاريء) بعد نداء أو أمر أو استفهام ، معلنة دوران فعل الدّعاء كبنية تتدخّل في تفعيل الدّور الخطابي و تمكينه من نفس المخاطب :

- و هل تجد – أعزّك الله – في هذا الناس من يحسن أن يوقّرك إلاّ و هو يحسن أن يحقّرك ....

- و ما بك – عمرك الله – و قد خرجت من الكوخ إلى القصر ، و صعدت من العريش إلى الجنّة ،...

4- بنية الاستدراج بالسّؤال :

تجتمع بنية الاستدراج و بنية السّؤال في ((كتاب المساكين)) لتجسّدا بنية واحدة تضمهما معا على خلاف ما ألف * . ويمكن تفصيل هذه البنية المركّبة في كتاب ، في :

– الدّور الإستراتيجي لأفعال الكلام الجزئية :

تتمثل في أفعال " النّداء " و " الأمر " و " النّهي " ، وغيرها كفيلة << بكشف ظاهرة التنازع بين ذاتين ، حيث يفترض الكاتب طرفا آخر يحاوره و يقدر أفعال كلامه ويبني عليها التّواصل ، كما تؤدي هذه الأفعال إلى مستوى دلالي أكبر هو فعل الكلام ذو الطّبيعة الشّاملة ، أو فعل الكلام الجامع (**Macro de Langage**)

،

وهو فعل السّؤال الذي يعكس هاجس ثقافة السّؤال ، وهاجس اللّغة التي بها الحوار وبها السّؤال وبها الجواب >> (1) ، وإلى جانب دور ظاهرة تقدير السّؤال من قبل المتكلّم في إبراز سلطته الخطابيّة الطبيعيّة في موضع المخاطب المفترض ، فهي كذلك – ظاهرة تقدير السؤال – معبر أساس للمحاججة ، والتي ينزاح بها إلى اعتبارات تتعلّق بالمتلقّي نستخلصها من قول " السّكاكيّ " : " إن تنزيل السّؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليها إلاّ لجهات لطيفة :

- إمّا لتنبيه السّامع على موقعه .
- أو لإ غنائه أن يسأل
- أو لئلا يسمع منه شيئ. .
- أو لئلا ينقطع كلامه بكلامه .
- أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللّفظ (2) .

والملاحظ في هذه الاعتبارات – مثلما ذهب إلى ذلك " محمّد خطّابي " – أن الجهات الثلاث اعتبارات تتعلّق بالسّامع ويمكن إجمالها في ثلاثة : تنبيه السّامع ، وإغناء السّامع (عن السؤال) ، وإسكات السّامع (عن الكلام) ، بينما يتعلّق الرّابع بسلطة المتكلّم وتنبئه بإمكان إثارة الكلام المقول استفهاما في ذهن السّامع ، فيبادر إلى الجواب قبل السّؤال لضمان الاستمرار في الكلام (نفس الكلام) . أمّا الاعتبار الخامس فيتعلّق بالخطاب نفسه ، بحيث يستغني عن تكرير السّؤال بين كلّ قولين ؛ إذا لو تكرّر لأثقل الخطاب بكلام حقّه أن يستغني عنه اعتمادا على ما يقتضيه المقام ؛ أي الاستغناء عن إظهار رابط لفظيّ بتقدير زوج السؤال (المقدر) / الجواب الذي يظلّ ثاويا في عمق الخطاب المخرج على هذا النّحو (3) .

---

* تورد " آمنة بلعلى " البنيتين منفصلتين لخصوصيّة كلّ منهما في الخطاب الصّوفيّ ، بينما تشتركان في عناصر عديدة في ((كتاب المساكين))أدّت إلى ضمّهما معا .

1 – آمنة بلعلى ، تحليل الخطاب الصّوفيّ ، ص ص : 122 ،123 .

2 – السّكاكي (محمّد بن علي) ، مفتاح العلوم ، ضبط وتعليق : نعم زرزور ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1983 م ، ص : 110.

3–محمد خطّابي ، لسانيات النّص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص : 116 .

وقد يستبعد وقوع فعل السّؤال بالفحوى كما يسميّه " السّكاكي " ، إن لم يكن فعل السؤال في ذاته تعبيرا عن رؤية وموقف عام من خلل عام قد عمّ ، وهذا ما يتسم به فعل السؤال في : ((كتاب المساكين)) ، الذي ليس إلاّ جزءا من السؤال الأكبر الذي أجيب عنه بالكتاب نفسه ؛ إذ أنه تعبير عن موقف " الرّافعي " من العصر ومظاهره : (الغنى الفاحش ، الفقر المدقع ، البؤس ...) :

<< ... فإني قد وضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر و ما هو من باب الفقر ، لا لمحوه ، ولكن للصّبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه ؛ ثم كتبت عن الغنى وما إليه ، لا رغبة في إفساده على أهله ، و لكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله ؛ و أدرت الكلام في كلّ ذلك على الوجه الذي يراه الشّاعر في ضحك الطبيعة و رقّتها ، دون الوجه الذي يعرفه الفيلسوف في عبوس المادّة وجفائها ؛ ونحوت به من نسق العقل في بثّ خواطر للنّفس ، لأني أريد به النّفس في مستقرها ؛ وجئت به مبرق الصّبح لا من غياهب اللّيل ، و أطلعته من أفق الإيمان لا من قرارة الشكّ ، و أرادت به تفسير شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط النّاس ؛ فإنّ من ضرائب اللّؤم وغرائز السّوء في هذا الإنسان أنّه ما ينفكّ يحمل نعم الله ورحمته ومالا حدّ له من العناية الإلاهية ، ولكن كما يحمل الطّاووس ألوانه وتحاسينه وزينته البديعة على ساقين مجرودتين في الغاية من القبح كأنهما من غراب ... >> (1) .

و من أمثلة فعل السّؤال بالاستدراج عبر أفعال الكلام الجزئية ، ما ورد في نصّ : ((الفقر و الفقير)) :

– قال " الشّيخ علي " : يابنيّ ، إنّ في تاريخ الحياة سؤالا لم تزل تلقيه أطماع النّاس في كلّ عصر من عصورها وما إن تصيب له جوابا مقنعا ، لأنّ الطّمع ليست له طبيعة محدودة ، فهو يرمي بسؤال غير محدود ويريد بطبيعته جوابا غير محدود .

هذا السّؤال واحد من ثلاثة هي حقائق الإنسانية الضّالة عن الإنسان نفسه في غيب الله .

يقول الإنسان : ما هي الرّوح التي تعطي الحياة ؟ و تقول آماله : ما هو الموت الذي يسلب هذه الحياة ؟ و تقول أطماعه : و ما الفقر الذي يجمع على الرّوح بين الموت والحياة ؟ كذلك يتساءل : ما هو الفقر ؟ على أنه غير الفقر ذلك السؤال الذي تجد في كل نفس إنسانية معنى من جوابه ، و لا غير الفقر ذلك القبر المعنوي الذي لم يخلق الله نفسا من النّفوس إلاّ و لها ميّت من الأهل في تربه ، ...

–الفقر متى ألقيته سؤالا عاد إليك بجواب نفسه ، لأنه فصل من كلّ عمل ، كالشّتاء فصل من كل سنة ؛ ...

---

1. الرّافعي ، كتاب المساكين ، ص : 37 .

– و لكن من هو الفقير ؟

من هو الكائن الضعيف الذي أحاط به الجهل حتى إنّه ليجهل نفسه ؛ و أينما يولّ وجهه أشاح عنه النّاس بوجوههم فلووا رؤوسهم ، وصعّروا خدودهم و أمالوا أعناقهم ؛ حتّى كأنّ كلّ رأس في التواء عنقه من الأنفة و الإستكبار يمثل علامة استفهام أقامتها الحياة في وجه هذا المسكين أو يقيم علامة إنكار ... ؟!

– أنظر ، ويلك ، هل ترى الفرق بين الضّجر من شيء ،لأنه موجود ، وبين الضّجر من ذلك الشيء لأنه غير موجود ؛ بين عدم الشّعور باللّذة ، و بين الشعور بعدم اللّذة ، بين ألم الغني الذي لا تجده أبدا إلا على شك في أنه سعيد ، و بين ألم الفقير الذي لا تجده أبدا يشك في أنه تعس ؟

– قال " الشّيخ علي " : و تسألني عن التّعاسة ، ما هي ؟ وكيف هي ؟ وتريدني على أن أبتغي لك مما بين ظاهرها و حقيقتها ؛ ألا فاعلم يابني أن هذه الكلمة حقيقة بأن تنسي نفسها ، وما ادّعى أحد معرفتها إلاّ لأنّه لم يجد أحدا يعرفها ، وكلّ شيء مجهول فما أسهله أن يكون من علم كلّ جاهل ، وما أصعبه أن يكون من جهل كلّ عالم ، وإني لأرى النّاس يأتون في وصف التّعاسة بكلام كثير ، وما أهونها إذن لو أن كلّ إنسان يحسن من وصفها بهذه السّهولة ....

– وما ورد في نصّ : ((وهم الحياة والسّعادة)) :

– ولكن دع هذا وسلني : ما هو الزّمن الذي يقضيه الإنسان من يوم يولد فلا يقدر أن يرفض هذه الدّنيا إلى يوم يموت فلا تستطيع هذه الدّنيا إلاّ أن ترفضه ؟ وما هو هذا المهد الذي يكبر شيئا فشيئا حتّى يصير في الآخر قبرا ؟ وما هو هذا العمر الذي يمتلئ قليلا قليلا حتّى ينتهي إلى الفراغ فيغيب فيه ؟ وما هي هذه الحوادث التي تزلزل الناس في طريق القدر حتى يخرّوا على وجوههم وتتحول أجسامهم في الأرض إلى تراب في طريق المنفعة ، ويتحول تاريخهم ترابا على طريق الموعظة ؟ ...

... سلني كذلك يابني أجبك : هذا الفناء المحترم ، وهذا الشّقاء المقضي ، وهذا الأمل الباطل ، وهذا النّصب الضّائع ، و هذا العمل الذي لا يراد لنفسه ولكن لما بعده ، كل ذلك هو الحياة ؛ أفلا ترانا نخادع أنفسنا عن الحقيقة التي يسوؤنا أن نعرفها فنحرّف السؤال إلى جهة بعيدة لكي لا نرى الجواب الصّحيح مقبلا علينا و لكن مدبرا عنّا ؟

– و في نصّ : ((الحظّ)) :

– وهل سمعت برجل كان يحفر قبره منذ عقل معنى الموت وقد نذر أن لا يحول عنه ، ثم لم يزل يوسع الأرض من عمله ويفسح في جوانب هذا القبر وعمّر طويلا و غبر على ذلك دهره ، حتّى أصبح قبره يأكل القبور أكلا ثمّ أدركه الموت فانطرح فيه رمّة بالية فإذا هو لا يملأ من جوفه عمل يوم واحد مما كان يعمل ؛ وبقيت الحفرة كأنّها فم مفتوح تصيح منه الأبدية : أين الميت العظيم الذي أعدّ كلّ هذا لجيفته ... و ما بال هذا السّاعد وما بال هذا المنكب و فيم كان ذلك العمل ، و ما هذا النّبوغ الميّت الذي ضاعت فيه الحياة و لم يعظم به الموت ؟ ...

– وهل تعلم أنت ما هي شعوب الحوادث و فنونها ، و ما الذي سيفعله المجدود (1) حين تقبل عليه الدّنيا

والمحروم حين تدبر عنه النّعمة ؛ و ماذا يكون ما يترتّب على الحرمان أو ينشأ عن الحظّ ؛ و هل تدري لم أساء بعض الأغنياء حمل الغنى دون البعض ؛ ولم أحسن بعض الفقراء حمل الفاقة دون البعض ، ولم ابتليت طائفة بالتّمني و ابتليت غيرها بالضّجر مما تتمناه الأولى ، وحبّب إلى تلك ما بغض إلى هذه ، و لم انتزعت نعمة بعد أن استمكن حبلها ، و أقبلت الأخرى بعد أن استيأس أهلها ... .

أليس من كل هذا يتهيّأ البقاء للحياة الإنسانية في نظام لا يخف على نوع الإنسان فيهمله فيفسد به ، و لا يجور عليه فيستأصله فيذهب به ؟

و هل النّاس إلاّ خطوط في لوح الغيب يستقيم ما يستقيم منها و يعوجّ ما يعوجّ لأنّ كلّ ذلك مما لا بدّ منه في جملة الوضع و إحكامه ؛ فإذا أردت أن تسأل لم استقام هذا و لم اعوّج ذلك ، ثم ما قصر و طال ، ثم دقّ وجلّ ثم علا وسفل ما انفرد واختلط فسل : لم خلقت الدّنيا ولم خلق النّاس ، وسل الخالق و لا تسل " الشّيخ علي "

في المقاطع السّابقة تجسيد لفعل السّؤال ، أو " السؤال الحجاجي " المتمظهر ضمن بنية الإستدراج التي من شأنها كشف كثافة الإنجازات اللّفظية في المخاطبة ، حيث يعتمد المتكلم في تحاوره كما هو باد في هذه الأمثلة على مبدأ افتراض ردود فعل المخاطب ، و التي منها يتم استنباط افتراضاته و حججه ، وهذا كمبدأ حجاجي ، هو أساس التّواصل ويتضح أكثر في الأفعال الطلبية :

1–الأمر :

– أنظر ، فاعلم ، سلني ، سل ، ... .

2–النّهي :

– دع هذا ، ولا تسل ، ... .

3–النّداء :

– يابني ، ألا فاعلم يابني ، ... .

– **الاستفهام :**

– هل سمعت برجل ؟ ... ، وهل تعلم أنت ؟... ، وهل تدري ،... ، أفلا ترانا نخادع ؟ ... ، ...

– هذه الأفعال توحي بالتخاطب و التحاور ، وهي مصطلحات تعكس التفاعل الذي يقتضيه تبادل الحديث بين اثنين ، كما يراد بها الانتباه إلى مدى الإحاطة بالمعنى وتشقيقه في أدق ما يتّصل به ؛ بحيث يفترض في كل شقّ منه سؤالا خطر للمخاطب أو يمكن أن يعنّ به له ، فيبادر بطرحه ، ويزيد على ذلك بأن يعرض للاحتجاج له بشتى وسائل القياس و البرهان و الشّرح والتّعليل ، وغيرها من الأساليب الإقناعية التي وظّفها للاستدراج .

---

1. المجدود : ذو الحظ ، المحفوظ .

و كلّ هذه البنى الإستدراجية زيادة في بنية السؤال أو التساؤل ؛ مادام في إطار تحاوري فيه أخذ و ردّ ، حيث يتاح للمتكلم فيه توسعة إطار الموضوع والعنصر المتناول وتفرقه أجزائه عبر تساؤلات هي في معظمها من وحي طبيعته الحجاجية التي تؤدّي به كما هو مبين إلى حمل المخاطب على طرح تساؤلات و إن لم تخطر له : (دع هذا وسلني كذلك أجبك ، ...) ، وهذا الإطناب من باب الإحاطة بأطراف الكلام ؛ إذ يطرح فكرة أولى كبرى ، ثم يجزّئها ؛ كل جزء منها هو سؤال يفتح أبوابا كثيرة للطّرح و المناقشة وحمل الموضوع على محامل شتى تتعدّد فيها تقنيات الحجاج .

غير أن تجلّي فعل السؤال بوساطة ممارسة خطابية (التحاور عبر بنى الاستدراج : الأمر ، النّهي ، الاستفهام ، النّداء ، ...) في ((كتاب المساكين)) لا يجسد فعل التنازع بمعنى طرح الرّأي وافتراض التساؤل الذي يعرض غيره مدعّما كذلك بالحجج الحقيقية و المفترضة ، إنما نجد السؤال هنا تدعيما للطّرح وزيادة في توسعته ، بل و احتجاج له ، و كأنّ المتلقي راض عمّا عرض ويسأل التفصيل و الإستزادة للإلمام بالموضوع ، وليس إلحاحه للاقتناع بالرّأي البديل ، مادام – افتراضا – على قناعة بغيره إلى أن يحدث العكس .

وهذا المنحى في الحجاج ؛ بالتساؤل أحاديّ الرّؤية هو تعبير عن موقف متشدّد من واقع معيّن وقد سبق طرح الواقع الذي لأجله ألّف " الرّافعي " كتابه هذا، فكانت تساؤلاته التي جاءت على لسان " الشّيخ علي " تعبير عن رفض هذا الواقع ، ورغبة في تغييره بالإمعان في عرض مساوئه واقتراح بدائلها – أي الإيجابيات – التي اتّخذت لها الاحتجاج سبيلا بدل الوعظ و الإصلاح المباشرين الذين يليقان بهذا الموقف ، مع أنّ أسلوب " الرّافعي " هنا لم يخرج عن هذا كذلك .

ب–المقــام Situation :

– " المقام " شرط تداولي يعنى بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال والموقف الخاص به ؛ أي التّرابط البرهاني بين بنية النّص وعناصر الموقف الاتصالي ، و التي تعدّ الأفعال الكلامية بوصفها أحداثا – وفق مفهوم الحدث – و في حال إصابتها ، وقبولها وكفايتها ، وفي تساوقها مع مقاصد المتكلمين ، تعدّ فاعلة في تغيير معارف السّامع ؛ أي أن يعرف أننا نتحدث وننطق هذا النّص ، ونعّبر من خلال ذلك عن معنى معيّن ، و نحيل إلى شيء ما (1) .

ولكلّ طرح خطابي مقام وموضوع يحققان انسجامه بشرط استخدام المتكلّم لمقدمات عقليّة في بداية طرحه لبناء

أوّل جسور التّواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه .

وفي ((كتاب المساكين)) نستطيع الوقوف على المقام والموضوع معا ، والمتجلّيان في غرضه الذي صرّح به " الرّافعي " في قوله : << فإني قد وضعت هذه الأوراق وكتبت فيها عن الفقر وما هو من باب الفقر ، لا لمحوه ولكن للصّبر عليه ، ولا من أجل البحث فيه ولكن للعزاء عنه ؛ ثم كتبت عن الغنى وما إليه ، لا رغبة في إفساده على أهله ، ولكن لإصلاح ما يفهم منه غير أهله ، .... ولكني أرمي بالكتاب إلى عزّة النّفس ، وإلى الثّقة بالله ، وإلى الصّبر على الفضيلة . >> (2)

فالموضوع مصرّح به وهو الفقر و الغنى وما إليهما ممّا ينشأ عنهما ، والمقام فيه مقام إصلاح ووعظ . وهذان هما الإطار العريض الذي أسّس عليه الكتاب ، ولكنّ التّصريح لا يكفي ما لم يركّز المتكلّم على معايير الأولويّة –كما يسمّيها " بيرلمان " – فيما يتعلّق بالعلاقة مع المقام والموضوع معا ، المتمثلة في :

1–ذكر حقائق فعليّة وأحداث معنيّة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعيّة ، لكن ذكرها في الخطاب أو النّصّ لابدّ أن يكون له طابع حجاجيّ .

2– لن يتوفّر الطّابع الحجاجي إلاّ إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعا جدليّا مع أحداث أخرى كان المخاطب يتوقّع ذكرها ، لكنّ المتكلّم رغب عنها لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها ، وكذلك لكي تصير فعلا هي الملائمة للمقام (3) .

1- فان دايك ، علم النّص، مدخل متدخل الاختصاصات ، ترجمة وتعليق : سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2001 م ، ص ص : 130 ،131 ، بتصرّف .

2- الرّافعي ، كتاب المساكين ، ص : 37 .

3- محمدّ سالم ولد محمدّ الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص ص : 84 ، 85 .

وهذا ما يبّرر لجوء صاحب الكتاب في تطبيقه لهذين الشرطين التداوليين إلى مجموع الطروحات والحجج المتنوعة والمكثّفة ، والتي تتّضح على مستويين :

1–تعداد موضوعات الكتاب ، وكلها متفرعة عن الموضوع الأساس الذي لأجله وضع .

2–تعداد الأفكار والطّروحات في كلّ موضوع مرفقة بكم من الحجج والتّمثيلات الحجاجية .

– مثال :

في حديثه عن المال والغنى في مقابل الفقر ، وهما المكونان الأساسان للكتاب ، يأتي موضوع : ((لؤم المال ووهم التّعاسة)) فرعا عن أحد مكوّني الكتاب ، وهو المال و الغنى ، وفي هذا التفريع احتجاج على المال الذي لا ينفع ، وعلى أهل المال من الأغنياء الذين لم يجعلوا من غناهم سبيلا للإحسان و المسا عفة ، بل كان نقمة عليهم وعلى غيرهم .

وهذه الفكرة تتفرع على فقرات أخرى تحث عناوين أخرى ، وأفكار متولّدة عنها كثيرة ، منها :

– الأطروحة :

– ما أشبه المال أن يكون آلة من آلات القتل .

– الحجّة 1 :

فإنّه يميت أكثر أصحابه موتا شرا من الموت – إلاّ من عصم الله – موتا يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النّخرة ، ويرسلها كل يوم إلى السّماء في لعنات لاعداد لها ، ثم يثبتها في التّاريخ أخرا لا بأعيانها ولكن بعددها ، أو كما تثبت الحكومة في كلّ سنة عدد البهائم التي نفقت بالطّاعون ... .

– الحجّة 2 :

فهذا الشّخص الميت وهو بعد في الأحياء لا يبلغ في قدر نفسه على الحقيقة أكثر من مقدار حجمه من ... من ... من جيفة حمار ! ... (1) .

ثم يتفرع عن هذا الطّرح ، طرح آخر فيه خلاصة الطّرح الأول ، وبداية لطرح جديد سيتوالد و يتوالد : ... :

– الأطروحة :

– يا بني ! ربما كان الرّجل نبات نعمة الله لأنه سيكون حصاد نقمته ، فهذه منزلة من البؤس و الخذلان يستعاذ بالله منها .

---

1. كتاب المساكين ، ص : 105 .

– الحجّة 1 :

و كم رأينا من أناس تخصب أبدانهم حتّى ليضيق بهم الجلد كدنة و سمنا ، و يكاد أحدهم ينشق مرحا ونشاطا ، ثم لا يكون هذا الخصب الذي استمتعوا به شطرا من العمر إلاّ سببا في أمراض مهلكة تستوفي الشطر الآخر .

– الحجّة 2 :

<< فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون >> (1) .

– نجد في هذين الطّرحين التّدرج من نقمة المال على أهله في النّاس و عند الله ، ثم نقمة هذا المال على صاحبه في نفسه ، و كيف يكون وبالا عليه بعد أن يسرّه ويفرح به دهرا ، وتأتي الآية في الأخير لتلخّص الفكرة بكل معطياتها .

ومثال آخر كذلك في نصّ : ((وهم الحياة و السّعادة)) :

– الأطروحة :

– و متى صارت حياة رجل من النّاس إلى أن تكون واجبات يتنجّزها ويستقضيها من نفسه ، فما لشهوات البدن موضع إلاّ كموضع النّار من المصطلي :

– الحجّة :

لا يراد منها إلاّ حرّها ، و لا يطلب من حرّها إلاّ قدر معلوم ، و لا يبتغي هذا القدر إلاّ مدّة بعينها ، و لا تكون هذه المدّة إلا بمقدار ما يصلح أو يدفع الأذى ، لا سرف في كلّ ذلك و لا هوان و لا مضيعة (2) .

و يتفرّع عن هذا الطّرح آخر يكمّله و يحتجّ له :

– الأطروحة :

– قال " الشّيخ علي " : و لكن كلّ شرّ العالم يا بني في لفظ واحد : هو طغيان الحواس ؛ و بمعنى واحد : هو إذلال العقل ؛ و لغرض واحد : هو هذا الموت الأدبي الذي يسمّيه المغفّلون : سعادة الحياة . منذ طغت الحواس أصبحت الحدود بين مطالب الإنسان من فضائله إلى رذائله لا أثر لها .

– الحجّة 1 :

لأنّ الشّاطيء لا يعرف تحت السّيل إذا طمّ عليه (3) ، فما أنت و لا أنا و لا و لا أحد يدري ما هو حدّ الكفاية في رغبات هذا الإنسان و أهوائه ، بل صارت هذه الكفاية و ما ينطوي تحتها من ألفاظ القصد و القناعة و الرّضا

---

1. كتاب المساكين ، ص ص : 105 ، 106 .
2. نفسه ، ص ص : 128 ، 129 .
3. طمّ عليه : غلب عليه وغطاه ، غمره .

و ما إليها – ألفاظا خيالية يساير ظلها ظل الإنسان ، فلا حدّ لها مادام هو لا يثبت لنفسه حدا ، ولا تتأخر مادام هو يتقدّم .

– الحجّة 2 :

وأصبح أكثر الناس في رغباتهم الخيالية و ما يعملون لها مدّة الحياة كرجل ائتلى (1) أن يخط دائرة مركزها ليس في محيطها ؛ فكلما رسم دائرة رأى المركز في داخلها ، فيجتاز به وراء المحيط ثم يدير يده فإذا واحدة أخرى تقاطع الأولى ولم يصنع شيئا مما يحاوله ؛ ويمضي على ذلك ما شاء الله و لا يصنع شيئا ، فلا هو يخطيء رأيه ، و لا هو يرى من عمله شيئا صحيحا ، و ما بقي من الأرض فضاء لم يخط عليه بعد ؛ فهناك ... هناك يرى هذا الأحمق الدائرة المتوهمة التي يخرج مركزها عن محيطها .

ثم تتولد عن هذا الطّرح بحججه فكرة أخرى تدور في فلك الموضوع الأول ، وتشكل مع الطروحات السّابقة و اللاّحقة أهم معالمه وملامحه :

– الأطروحة :

من هذا ونحوه أصبحت السّعادة وهما من الأوهام ؛

– الحجّة :

إذ لم تعد في إشباع العواطف وتغذية الشعور ، و ليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل و لكنها في إشباع جسد لا يشبع مادام حيا وفي تغذية حاسة لا يزيدها الغذاء إلاّ شرها وضراوة ؛ فلم تكتفي إلاّ إذا بطلت ، وفي موضع مجهول بين هذه الحواس لا حدّ له إلاّ كالحدّ بين ما يجد المعدم و ما يتمنّى ، فالسعادة على ذلك هي دائما في الاستعداد للسعادة ... و كفى بهذا عبثا (2) .

ففي توالي هذه الطروحات و توالدها افتراض لصراع جدلي بين الحقائق المذكورة ، و الحقائق الأخرى التي يفترض المتكلم ورودها في ذهن المتلقي .

و هي كذلك – الطروحات المتوالية – صور عن علاقة الموضوع الوثيقة بالمقام الذي يتطلبه ، و يقتضي تفرّعه على هذه الشّاكلة من النتائج و الحجج .

---

1 . ائتلى : حلف و آلى .

2 . كتاب المساكين ، ص : 130 .

– علاقة القرائن بالقيم في تشكيل المقام في ((كتاب المساكين)) :

دراسة المقام كمكوّن حواري في الخطاب الحجاجي التّداولي تقتضي دراسة " النّظام القوليّ " بما يضمّه من " قرائن " كونها وسيلة من وسائل التّحليل الأساسية ، و هذه القرائن بدورها تعمل على كشف مجموع " القيم " المكوّنة للمقام أو لمجموع المقامات الموزّعة على مستوى النّص .

و " القرائن " " présomptions " أو " indices " ، تعدّ مؤطّرا للحقائق في المقام ، و تحتاج إلى الدّخول في الأنساق التّبريرية أو بنى الحجاج ؛ لأن ذلك يزيد من فعاليتها ، و يرسم علاقتها بالمقامات الصادرة فيها ، و بالمواقف المتوخّاة من ورائها .

أمّا " القيم " " valeurs " ، فهي عناصر حجاجية و أسس إقناعية تعبّر عن موقف اتّجاه الوجود و الكائن على السواء ، و موضع اتفاق و تسليم ؛ إذ لا خلاف – غالبا – حول مضمونها و مكانتها ، بحيث تحمل المخاطب على القيام بأفعال معينة بدل أخرى ، و تبررها بطريقة تجعل هذه الأفعال مقبولة و مؤيدة من طرف الآخرين ، سواء في الشكل الذي تصنعه القرائن أو المضمون الذي يشكّل القيمة في حدّ ذاتها .

وللقيم – بمختلف أنواعها وبوصفها " قواعد حجاجيّة Règles argumentatives " – دور فعّال في بناء الثّقة بين المتحاورين والمبدعين والقراء ، يبرزه حسن توظيفها الذي يتحقق بانسجامها مع إطارها الثّقافي من جهة ، ومع المقام الإبداعيّ من جهة أخرى (1) .

– ولقد ضمّ ((كتاب المساكين)) مجموع قيم : " إنسانية " ، و " دينية " ، و " أخلاقية " ، ....كوّنت المقام الواحد أو الشّامل الذي لأجله ألف هذا الكتاب ، وهو : " مقام الإصلاح الاجتماعي ، " وهذه القيم لا يمكن استخراجها وفصلها من بعضها – وإن صعب الأمر – إلا بالاستعانة " بالقرائن النصية " بأنواعها الثلاثة ، والتي عرضها " بواسينو Boissinot " في كتابه : ((النّصوص الحجاجيّة Les tesctes argumentatifs)) ؛ كشبكة قراءة خاصّة تعين على تقديم فرضيّات التّفسير الأوّليّة ، وهي :

1–قرائن القول Les indices de l.enonciation.

2–قرائن التنظيم Les indices de l. Organisation.

3–قرائن المعجم Les indices de lescique (2).

1- محمّد سالم ولد محمّد الأمين ، مفهوم الحجاج عند " بيرلمان " ، ص ص 84 ، 85 . بتصرّف

2- الحوّاس مسعودي ، النّصوص الحجاجيّة ، اللّغة والأدب ، ع14 ، ديسمبر 1999م ، ص 280 .

ولأنّ القيم في مقام كمقام الإصلاح الإجتماعيّ تكون متداخلة ، وهي وإن تفّرقت فلا بدّ وأن تجتمع في الأخير تحت جناح قيمة واحدة ، فقد وجدنا أن القيم الإنسانية هي الأنسب ، لتوفرها على هذه الشروط ، ولاسيما الشمولية والكفاية . وقد اخترنا نصّ : ((سحق اللّؤلؤة)) كنموذج للتّطبيق ، ومثال أنسب تتّضح فيه بجلاء علاقة القرائن بالقيم في تشكيل المقام ، وذلك لجمعه كلّ معطيات الكتاب التي توزّعت في النّصوص الأخرى : (الفقر ، الغنى ، الاستغلال ، الشقاء ، التّعاسة ، العذاب الرّوحي ، ....) .

– القيم الإنسانيّة :

تتضمّن موافق متعدّدة ، ك : " الأسى " ، و " الشفقة " ،و " العبرة " ، و غيرها ، يوردها الكاتب أو المرسل – إنسانيّا – لإبلا غ رسالة إصلاحية تفهمها كلّ العقول ، وتخصّ كلّ الطّبائع الإنسانية السّليمة .

وسيتم استخراجها من النّصّ عن طريق قراءتها وفق شبكة القرائن السّابقة الذّكر ، ابتداء ب :

1– قرائن القول Les indices de l . enonciation :

وهي القرائن التي تظهر وضعية المحاج (صاحب القول) بالنسبة للقول على مستوى اللّغة من خلال :

أ – السّمات الذّاتية : وتنقسم إلى :

1 – أسماء الإشارة :

تحيل على حال التّخاطب " Situation de Communication " ؛ أي ضمائر الشخص الأوّل (المخاطب) و الشّخص الثّاني (المخاطب) ، كما في الأمثلة الآتية :

– قال " الشّيخ علي " : وإني محدّثك الآن حديثا يشفي نفسك من الخبر ، ويفتح عليك أ بوابا من العبرة والموعظة ويحضرك طرفا من الدّنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنّما أنت شاهد أمره .

– وهذا معنى بسطته لك آنفا ولكنّي متلقّيك بمثاله من رجل وامرأة ....(1) .

– وهذه الأقوال تدل على وضعية تحاور مفترض بين الكاتب " الشّيخ علي " أو " الرّافعي " والمتلقي ، وهي في واقعها تهيئة للحجاج ، أو لإلقاء الطّرح المراد إرساله تبريرا للحدث الذي سيقصّه " الشّيخ علي " ، والذي يكون معلّلا بكلّ الحجج والدّلائل التي تؤيد فكرته (أطروحته) ، لذلك يبدأ طرحه بهذا التخاطب الذي تتّضح ضمائر كلّ من :

– الشّخص الأول : " الشّيخ على " :

– إني ، محدثك (أنا) ، بسطته (أنا) ، لكنّي (أنا) ، متلقّيك (أنا) ، ....

1. كتاب المساكين ، ص ص : 145 ،146 .

محدّثك (الكاف = أنت) ، نفسك (أنت) ، عليك (أنت) ، يحضرك (أنت) ، أنت ، لك ، متلقيك (أنت) ،...

2– نظام الزّمن :

أو علامات التحديد الزّمني التي تتجلى في هذا النّص ، في زمنين :

زمن إلقاء الحديث أو الحكي :

– إني محدثك الآن .

– هذا معنى بسطته لك آنفا .

وزمن وقوع الأحداث :

– ولمّا استوفى عمر السّبعين ....

– خرج في عيد مولده إلى سواد المدينة ....

– رأى فيما يرى النّائم ....

وهذه التّحديدات بمثابة التّفسيرات التي ترفق بحديث المتكلّم ، حيث يضع بها القارئ في جوّ الحدث أو الفكرة ؛ مادام يودّ الوصول إلى إقناعه ، وهي ضرورية هنا مادامت حجّته في هذا المقام عبارة عن قصّة ، فلا بدّ فيها إلى جانب الأحداث من تحديدات زمنيّة تؤطرها .

ب – المخصّصات " Modalisateurs " :

هي الإجراءات الدّالة ، التي ترمز إلى درجة توافق صاحب القول مع مضامين الأقوال ، أوهي العبارات التي تحيل إلى درجة ثقة المتكلّم (صاحب النّص) في ما سيقول ، وهي نفسها التي يؤثر بها في سامعه (المتلقي ، القارئ) ، وبها يربطه بالطّرح وحجّته :

– إني محدّثك الآن حديثا يشفي نفسك من الخرب ، ويفتح عليك أبوابا من العبرة و الموعظة ويحضرك طرفا من الدّنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه ، ....

– ألا وإن أخلاق المرء إنما هي أعصاب أعماله ، فانظر (ويحك) ما عسى أن يكون في البغض ،....

– فقد لا تقتل الآلام إذا أسرفت على النّفس ولكن اللّذّات لابدّ قاتلة ، ....

ج – الأفعال الذّاتية :

هي الأفعال أو الصّفات التي يظهر بها المحاج (الكاتب) ردّ فعله " الألفاظ الشّعوريّة ، أو تقييمه لشيء ما " الألفاظ التقييميّة " . وتظهر هذه الأفعال في نص : ((سحق اللّؤلؤة)) ، حيث يدفع الجانب الإنساني للطّرح بالكاتب إلى الإفراط في إبداء مشاعره وعواطفه اتجاه أحداث القصّة ؛ بألفاظ وعبارات تفصح تمام الإفصاح عن موقفه ، وإلى جانبها تقييمه للأمور ، أو لمجموع الأخلاق والسّلوكات الخاصّة بشخصيّات القصّة تحديدا ، انتقالا إلى التّعميم الذي يراد به النّصح العام :

1–الألفاظ الشّعوريّة :

ابتداء بعنوان النّصّ ككل : ((سحق اللّؤلؤة)) ، الذي يبدو من خلاله تعاطف الكاتب الكبير والعميق مع شخصيّة القصّة " لويز " ، وفعل " السّحق " هنا المنبعث من مصدرين : الحياة أو الظّروف الصّعبة التي عاشتها ، والتي سببت لها النّبذ ، وزيّنت لها الهروب من واقعها إلى ما هو أسوأ . ثم هذا الواقع الذي هربت إليه إلى جانب الشيخ العجوز الثّري الذي حازت إلى جانبه المال والجاه ، ولكنّها فقدت نفسها ، وسحقت في هذا الوضع كلّ عواطفها ومشاعرها الحيّة التي كان يجب أن تكون هي مصدر سعادتها .

ثم ينتقل إلى وصف الشّيخ : " الكونت فيكتور " ، فيصفه مع أوّل تعامل مع شخصيّته بـ " الرّجل البخيل " ، ثم يشرع في تفصيل هذا النّعت بأوصاف تنمّ عن مشاعر الاشمئزاز والسّوء اتجاهه :

– " أمّا فلان هذا فهرم بخيل لو مسخ حجرا لتحطمت من غيظها الأحجار ، ولو كان على بخله حديدا لما لان الحديد في النّار ، ولو صوّره الله أجوف لما طنّ في يد أحد على نقر ، ولو خلقه مرّة أخرى من تراب لما جمع هذا

" التّراب " إلاّ من ثياب أهل الفقر ... وهو نبيّ أمة البخل ؛ أما معجزته فهي قدرته على أن يستنبط غير المألوف من المألوف ، ويستغلّ الصّفر فيخرج منه ألفا إلى ألوف وإنّه على ذلك لآية ، فما رآه المؤمنون إلاّ قالوا : اللّهم غفرا ، ولا رآه الجاحدون إلاّ زادوا عتوّا وكفرا " (1) .

2–الألفاظ التقييمية :

جاءت في النّص قيميّة ، لأنها اختصّت بإعطاء قيمة للموصوفات ، لا سيما منها شخصيات القصّة ، شكلا ، وأخلاقا :

– الوصف الحسّي :

في وصفه لـ : " لويز " :

<< ... ، و كانت زهراء اللّون ، حوراء العينين ، ساجية الطّرف ، أسيلة الخدّ ، باسمة الثّغر ، حسنة التكوين كأنها ريحانة ترفّ رفيفا ، وتكاد من فرط رقّتها تتكلم ابتساما حتّى لا يحسب من رآها أنّ الشّمس طلعت يوما على أبدع من ثغرها واللّؤلؤ ، و لا أحسن من خدّها و الورد و كأنّ الطّبيعة يعتريها أحيانا من سوء الحرص و سوء الخوف و سوء الحيلة بعض ما يعتري الشّحيح الذي يخبيء أنفس ذخائره في أخسّ الأمكنة و أقبحها منظرا وفيما لا حفل به من الأداة و المتاع . فكانت << لويز >> على ما وصفناه من الجمال و الظرف و لم تكن مع ذلك إلاّ قروية ! >>

---

1. كتاب المساكين ، ص : 147 .

– يقابله وصف مغاير لـ : " فيكتور " :

<< أما صاحبها فما أشبهه بعنق النّسر : شيخ مضعوف ، كالعرق المنزوف و العظم الملفوف ؛ ممسوح العضدين (1) ، ناسل الفخذين ، كأنما يتوكأ منهما على عصوين ... غير أنّ له عينا يتوقّد فصّها و يستنفض النّاس طرفها (2) فلا يملك من تقع عليه أن يضطرب ؛ و كذلك اضطربت الفتاة ، و ما كاد الرّجل يلمح اضطرابها حتّى طبع الله على بصيرته فحسب ذلك معنى من الغزل ، وانطلق وراء خياله يمرّ به على آمال الشّباب الفانية ، ... >> (3) .

في هذا الوصف الحسي نوع من " التّقييم " الذي سيبرّر أحداثا كثيرة في هذه القصّة ، و هو كذلك حجّة من الحجج المحوريّة للطّرح الأوّل الذي جاء في مقدمة القصّة .

– الوصف الأخلاقي أو (القيم الأخلاقية) :

ساقها صاحب الكتاب ضمن هذا الطّرح ، متخلّلة الأحداث و مكمّلة لها ، وتندرج كلّها ضمن علاقة الرّجل بالمرأة ، و عواقب الزّلّات ، التي كان من بينها عاقبة " لويز " قبل التقائها " بالشّيخ " ؛ أي علاقتها بالشّاب القروي، و حتّى بعد زواجها من " فيكتور " ، و انحرافها : << [...] و لم تعرف أنّ هذا الحبّ سلاح ذو حدّين ، فالمرأة تقتل به من ناحية الرّجل ، فإن غفلت مرّة عن نفسها قتلت هي به أيضا من ناحيتها ، وأنّ حبّ الرّجل حبّ مجنون بطبيعته ، فإذا لم يكن حب المرأة عاقلا انقلب كلاهما حيوانا طامس القلب لا يبالي ما جنى على نفسه ، وأنّ الرّجل يقاد من رغبته مادامت أملا في قلبه ، فهو يعد المرأة ما شاءت و شاء لها الهوى ، حتّى إذا انقطع هذا الزّمام انقطع ما بين لفظ الوعد و معناه ، فأخذ منها ما أخذ و ترك في يدها ما أعطى ، و ما عسى أن يكون قد أعطاها إلاّ آمالا و مواعيد و غرورا من زخرف القول ؟ >> (4) .

و قوله ناصحا كذلك :

<< فالسّحابة تنهل بمائها ، ثم تجمع مرّة أخرى في سمائها ، و الزّهرة تقطف لحسنها ثم ثنبت مرّة أخرى في غصنها ، و لكنّ العذراء حين تفرّط في خدرها ، و تضع نفسها دون قدرها ، لا تبرح شقيّة حتّى تنزل في قبرها >> (5)

---

1. ممسوح العضدين : ليس عليهما لحم ، وكذلك مابعده .

2. يستنفض الناس هيبة طرفها : إذا رأوها أرعدوا.

3. كتاب المساكين ، ص ص : 157 ، 158 .

4. نفسه ، ص : 175 .

5. نفسه ، ص : 176 .

2–قرائن التنظيم Les indices de l'organisation :

– تعين على معرفة الأطروحات في النّص ، و مدى تناسق الحجج و ترتيبها ، و ذلك على صعيدين :

أ- الصّعيد الخارجي :

يظهر في شكل تقديم النّص ، من خلال العناوين خاصّة ، كما في نصّ : ((سحق اللّؤلؤة)) ، حيث عمد "الرّافعي" إلى تقسيمه مقاطع جعل لها عناوين ؛ اختص كلّ عنوان منها بالإلماح إلى ما سيكون تحته ، كما أنّ لهذه العناوين وظيفة ترتيب موضوعات النّص و حججه المرتبطة بسير الأحداث و تطوّرها ، أو بالوقوف على معالم معيّنة ، وشخصيات ، وغيرها .

في هذا النّص ، وبعد عنوان : ((سحق اللّؤلؤة)) يورد تمهيدا يبسط فيه الأطروحة الكبرى المتعلّقة بثنائية المال و الحياة ودورهما في صنع سعادة الإنسان و تعاسته معا ؛ لتكون التّعاسة فيما بعد – وسواء كانت مع المال أو بدونه – هي محور هذا النّص و مادّة أحداثه :

– الرّجل البخيل :

عنوان يأتي تحته وصف لشخصية " الكونت فيكتور " ، يربط فيها بين أخلاق الرّجل ، و فلسفته في الحياة ، و المال و المرأة ، و بين وضعه كثري ، و ما يخوّله له ثراؤه من تلاعب بمصائر النّاس ، بما فيهم الشّخصية الثّانية : " لويز " .

ثم تأتي بضع عناوين صغيرة تكون كمرحلة وسط بين الحال الأولى ، و هي الفقر و الحاجة بالنسبة لـ : " لويز "، و حال العزوبية والتّأبّي بالنسبة لـ : " فيكتور " ، و بين الحال الأخيرة التي يتم فيها الارتباط بينهما ، وتبدو فيها مساوىء أحدهما للآخر ، ومساوىء اختيار كلّ منهما :

– في الحبّ ، في الحفلات ، في الرّقص ، في الموسيقى :

عناوين المرحلة الوسط ؛ أي تهيئة " لويز " لعيشة الرّقي و الثّراء ، و لتكون خليقة بأن تصبح زوجة "للكونت" ، وهي النهاية السّريعة للبداية بالنّسبة لها .

وهكذا مع باقي العناوين الأخرى : يا ليل ، على المائدة ، فصل خامس في السّنة ، شهر النّحل ، وبعد ... .

ب- الصّعيد الدّاخلي :

يكون فيه التّركيز على " الرّوابط الحجاجيّة " ، و على كلّ ما يدل على مناحي الحجاج ، كعبارات " التقديم " و " الانتقال " ، و " الاختتام " :

– عبارات التّقديم :

ترد في معظمها إمّا في شكل نداء أو دعوة للانتباه و المسايرة : ك :

–ولتعلمنّ أنّ المال شيء غير الحياة ، وأنّ الحياة شيء غير المال ، ... .

أو تأكيد للطّرح و ثقة في مدى صحّته و اقتناع متلقيه به :

–كلّ خطب عظم مدّة هان بعدها ، إلاّ خطب المرأة فإنّه متى عظم لا يزال يعظم ، ... .

– عبارات الانتقال :

وهي الواسطة بين الطّرح (النتيجة) و بين الحجج التي تبرّره ، و مادام المقام مقام وعظ أو إصلاح عن طريق رواية أحداث أو قصّ وقائع حدثت ، فلا بد لهذه العبارات أن تكون روابط تصل بين الحدث و الحدث ، أو بين الفكرة و الفكرة ، قبل أن تتّخذ على أنّها ربط بين الطّرح و الحجّة ، ومثالها :

– إنّ هذه الأنفس إنّما تشعر بمقدار ما فيها من الإحساس لا بمقدار ما في الحقيقة من مادّة الشعور ، و كأي من رجل أبله متغفل يدور مع الآلام و الأوجاع دوران الغبار في العاصفة ، ...

– فالمصيبة ليست مصيبة بمادّتها و لكن بما يقابل هذه المادّة من نفوسنا ؛ و من ثمّ فهي لا تؤثّر فينا بنفسها و لكن بالكيفية التي نقابلها بها .

– و لكن الحبّ يا بني لا يكون عجيبا بلا شيء يعجب منه ، وكثيرا ما يتملأ الرّجل بغضا ليحب بعد ذلك بمقدار ما أبغض ، فمثله كمثل من يبحث عن البرهان بطريقة من طرق المغالطة التي ... .

– عبارات الاختتام :

تأتي – غالبا – كنتيجة أو عبرة يختم بها الكاتب مقطعه الحجاجيّ :

– و لم تعرف أنّ هذا الحبّ سلاح ذو حدّين ، فالمرأة تقتل به من ناحية الرّجل ، فإن غفلت مرّة عن نفسها قتلت هي به أيضا من ناحيتها ، [...] ، و أنّ الرّجل يقاد من رغبته مادامت أملا في قلبه ، فهو يعد المرأة ما شاءت وشاء لها الهوى ، حتّى إذا انقطع هذا الزّمام انقطع ما بين لفظ الوعد و معناه ، فأخذ منها ما أخذ و ترك في يدها ما أعطى ، و ما عسى أن يكون قد أعطاها إلاّ آمالا و مواعيد و غرورا من زخرف القول ؟

– وهكذا لا يزال الرّجل في عتوه و ظلمه كالسّاحل و لا تزال المرأة في ضعفها ولينها كالموجة ، فلو أنّ ألف موجة عاتية يصدمن السّاحل لاستباحهنّ و ما سلبنه مقدار شبر من الرّمل .

3– قرائن المعجم Les indices de lescique :

و هي مفردات النّص الحجاجي النّاتجة عن التّقابل في وجهات النّظر ، و تكون هذه المفردات متضادة نظرا لكونها تعكس تضادا في الأطروحات .

و غالبا ما ينسب النّص الحجاجي للأطروحة المقترحة مفردات " التّمعّن " و " الملاحظة الصّارمة " في مقابل الأطروحة المرفوضة . مفترضة كانت أو صريحة . مثل :

– الأطروحة المقترحة 1 :

- و لتعلمنّ أنّ المال شيء غير الحياة ، و أنّ الحياة غير المال ≠
وهذا الطّرح في مقابل الطّرح النقيض الذي يذهب إلى عكس ذلك :

– <u>الأطروحة المرفوضة 1 :</u>
– المال هو الحياة و الحياة هي المال .
– <u>الأطروحة المقترحة 2 :</u>
– ولتعلمنّ كذلك أنّ الغاية من هذه الحياة كمال الحيّ في جسمه ونفسه ، فإن ثم بالفقر فذلك غناه ، و إن نقص بالغنى فذلك فقره ≠
– <u>الأطروحة المرفوضة 2 :</u>
– كمال الحيّ في ماله و غناه .
– <u>الأطروحة المقترحة 3 :</u>
– من أسرار المرأة أنّ ذلك القلب إنّما جاءه العبث بالرّجال من أنّه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرّجال ≠
– <u>الأطروحة المرفوضة 3 :</u>
– لقد عرف النّاس أنّ قلب المرأة كثير العبث ، وهذا الذي يسمّونه دلالا ويحسبونه في الحبّ إنّما هو شيء من عبثه .

– وقد جاءت المفردات الواردة في الطروحات المقترحة : شيء غير الحياة ، شيء غير المال ، كمال الحيّ في جسمه ونفسه ، إنّما جاءه العبث بالرّجل من أنه لا يطيق أن يعبث به أحد من الرّجال ، وغيرها ، دلالة على موقف صاحب الطّرح من صحته و تأكيدا لهذه الصّحة بأسلوب التّأكيد و الإصرار . وكذا في مقابلته بالطّرح النقيض أو المرفوض ، و غالبا ما يكون في حجج الطّرح المقترح رفض للطّرح النقيض و تأكيد على خطئه و فساده .

– كما أنّ " قرائن المعجم " تعكس مواقف متضاربة و مختلفة ترتبط بمختلف خصائص الشخصيات في هذه القصّة – سحق اللّؤلؤة – كما تعكس موقف الكاتب كذلك سواء من الشخصيّات ، وذلك بخصّ كلّ منها بحقل دلالات يتماشى وحالته ومواقفه ، وكذا من الواقع الاجتماعي العام الذي تعكسه أحداث هذه القصّة بكلّ ما فيها من عبر و مواعظ ، و ما يقتضيه هذا الواقع من حقل دلالي لا يخرج عن نطاق التوجيه و الإصلاح :

<u>1–دلالة البخل :</u>
– أمّا فلان فهرم بخيل .
– هو نبيّ أمّة البخل .
– كم لأمواله من قتيل ، فمن استلف فقد ذهب به التّلف ، و من اقترض ، فقد انقرض .

- يرسل الدّرهم في يد المحتاج فيذهب فيه ديناره .
- غناه كالكنز المختوم .

2- دلالة السّخرية و التّهكّم :

- أمّا وجهه فلو أنزل الله مرآة من السّماء فنظر فيها لصدئت من قبح خياله أمّا روعته فلو خرج على الحسان لابتلاهنّ بما يفجأ الظّباء من رؤية الفهد و أمّا جهامته فلو نظر إليه البدر لغرب .
- ولو اطلع عليه الفجر لهرب.
- أمّا روحه الخفيفة ، فلو بعثت خلقا آخر لما كانت إلاّ بقّة صيف في رقبة ضيف ، ...
- شيخ مضعوف ،كالعرق المنزوف ، والعظم الملفوف ، ... .

3-دلالة التّعاسة و الشّقاء :

- كتمت عنه أنّها طريدة منبوذة .
- طوّح بها عاره وغدره ولؤمه جميعا .
- خرجت هائمة على وجهها .
- لفظها قومها .
- كانت نبتة من الطّين .
- تزفر زفرات تكاد تنشقّ لها .
- ترسل الأنّة تكاد تدفن فيها .
- لقد ردد تني من فقري وذلّتي إلى رجل رددته أسفل سافلين .
- ما أنا إلاّ لعبة في يد هذا الطّفل .
- وهل خلقت لؤلؤة لأكون في عقد من الحصى .

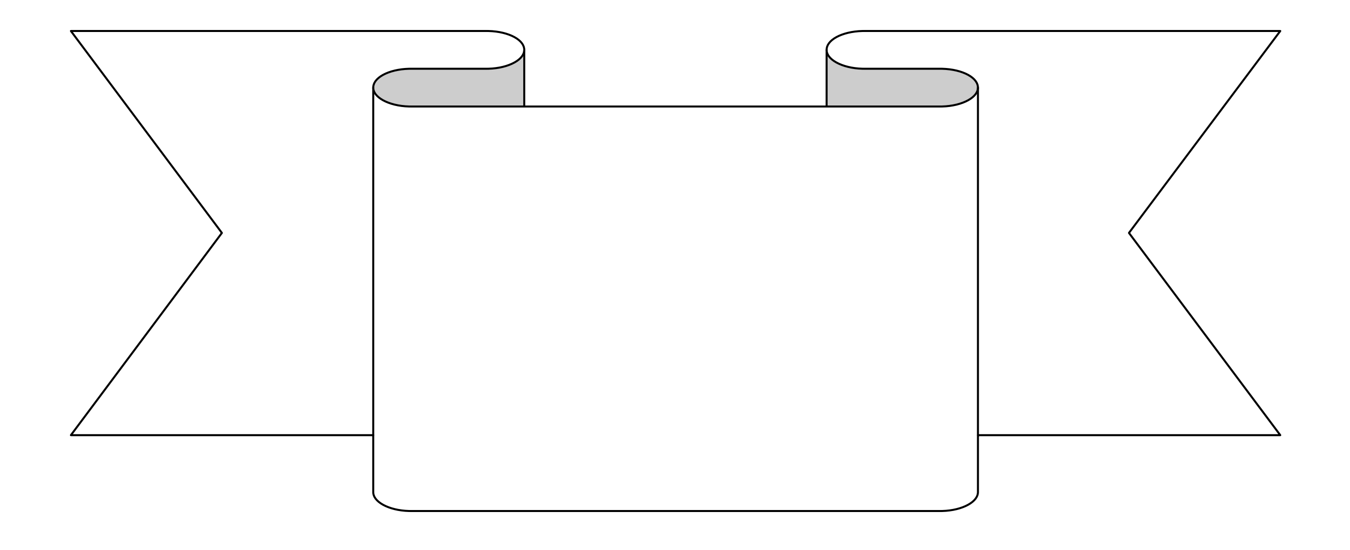
4-دلالة النّصح و الاعتبار :

- كانت غريرة لا تتبيّن منزلة ما بين الحبّ و الاستسلام .
- لم تعرف أنّ هذا الحبّ سلاح ذو حدّين .
- تحسب الفتاة إذا هي أحبّت فاستأسرت لصاحبها أنها يبذل في مرضاته أعزّ ما تملك
- إن استقضته ما وعد من زواجها رأى أنّ الزّواج قد سبق أوانه .
- لم تعد تصلح له ولا يصلح لها .
- لكنّ العذراء حين تفرط في خدرها ، تضع نفسها دون قدرها .
- العفّة إنّما عرفت بالمرأة من أصل الخلقة .
- شر عيوب المرأة ما عاب فضيلتها الخصيصة بها .
- إنّما يتصاون الرّجل تشبّها و تقليدا .

–إن هو زلّ مرّة وقارف الإثم فقد أخطأ في التّقليد و لم يفقد شيئا من طبيعته .

– نجد أن هذه الدّلالات المستمدّة من معجم الأخلاق و الطّباع و الأوضاع الإجتماعية و النفسيّة : (دلالة البخل ، التّهكم ، النّصح و الاعتبار ، الشّقاء ،و التعاسة) ، تتجسد كلها في عبارات كاملة لا في ألفاظ لا يتحقق معناها إلاّ بالتحاقها بغيرها في تتمّة هذه الجملة ؛ كلّها تشكّل قيما إنسانية متراوحة بين : الوعظ الدّيني ، و التّوجيه الأخلاقي ، وغيرها ، وبذلك تكون – القيم الإنسانية – قد شملت قيما أخرى و اختزلتها في قيمة واحدة من الجنس نفسه كدفع للمسار الحجاجيّ مشكّلة المقام الأوحد و العام ، وهو : مقام الإصلاح الإجتماعي .

و بهذا يتّضح أنّ هذه القرائن بأنواعها الثلاثة : (قرائن القول ، والتنظيم ، و المعجم) ، كانت بمثابة الآليات التي ثمّ بها الكشف عن القيم الإنسانية في النّص ، و شكلتا معا – القرائن والقيم – في علاقتهما المقام العام الذي انطلق منه " الرّافعي " في وضعه لـ ((كتاب المساكين)) ، ألا وهو مقام الإصلاح الاجتماعي ، مادام يرمي في كلّ نصوص الكتاب إلى التنبيه من سلبيّات بعض الأوضاع و الأخلاق والسلوكات ، و التّشديد على ضرورة تغييرها بما يصلحها ويصلح الواقع الإجتماعي و الإنساني في المجتمع .



– الخاتمة :

كان لمنهج " تحليل الخطاب " كآلية درس و استقراء دور في استنباط أنواع الخطابات الحجاجيّة – السّالفة الذّكر – و إبراز أهم خصائصها و مدى فاعليتها في تشكيل << الحجاج >> كمجال مفتوح يستوعب قدرا واسعا من عملية التّواصل الإنساني – المنطوق و المكتوب معا – كما مكّن من إثبات إمكانية توفّر الحجاج في النّصوص الأدبية خاصّة بعدما أبعدت من قائمة النصوص الحجاجية (بمعنى عام) ، بل و توفّره بأكثر من وجه من خلال الخطابات الحجاجيّة المستخرجة من المدوّنة ميدان البحث : ((كتاب المساكين)) لـ : " الرّافعي " ، ما أتاح لنا الوقوف على مجوع نتائج ، أهمّها :

1. يعدّ ((كتاب المساكين)) من المدوّنات الأدبيّة التي جمعت إضافة إلى رقيّها اللّغوي ، طابعا حجاجيا عمليّا خدم أغراض الكتاب أو الغرض الأوحد له وهو : الإصلاح الاجتماعي ، الذي تنوّع عرضه و تصويره بتنوّع الخطابات الحجاجيّة المتضمّنة فيه .

2. لم يحل تنوّع الخطابات الحجاجيّة في الكتاب دون ارتكازه على بنية عامة واحدة للحجاج ، تمثّلت في البدء بالنّتيجة (الأطروحة) ثم إدراج الحجج بعدها : النتيجة (الأطروحة) ← الحجج .

3. ازدواج دور " البلاغة " كبعد أسلوبي في الخطاب الحجاجي البلاغي ، فهي جمعت إلى جانب المضمون العقلي للحجّة ، التّقنية الجمالية أو المضمون البياني الذي يجعل من هذا الخطاب الحجاجي مؤثّرا و مقنعا لتوجّهه إلى القلب و العقل معا ، و إشباعه مشاعر المتلقّي و فكره في خطاب واحد .

4. كان للأسلوب البلاغي أثر كبير في تكوين بنية الحجاج في الكتاب ، وذلك باعتماد (الاحتجاج عن طريق الأمثلة) حجّة من ضمن مجموع الحجج و غالبا ما يكون حجّة (الحجّة)، حيث تكون الأولى فكرة، و الثّانية مثالا يساق لتأكيدها .

5. شكّلت الاستعارة و التّمثيل جزءا لا يستهان به في تركيب الأطروحات و الحجج على وجوه مختلفة و متعدّدة في الخطاب الحجاجي للكتاب ، لإنبنائه على التشبيه كتقنية إنشائية جمالية قبل انصرافها إلى الحجاج كمنعرج ضروري للطّرح .

6. يعتبر الحجاج في الفلسفة وعلى خلاف البلاغة ، آلية من آليات الطّرح التي تنبني عليها الخطابات الفلسفية القائمة على الاستدلال بالحجّة وفق معايير معيّنة .

7. يقوم الخطاب الحجاجي الفلسفي في المدونّة على تقنيتي : الاستنتاج (التركيب) و التّحليل الفلسفيتين حيث يبدأ الكاتب حجاجه بطرح الفكرة (الأطروحة) مجتمعة ، ثم يتبعها بمجموع حجج متتالية تعمل على تحليل هذه الفكرة المركّبة و تفسيرها . و قد يكون العكس في أحيان قليلة ، إذ يطرح مجموعة من الحجج المفسّرة تسبق الحكم النهائي عليها الذي يكون في صورة الأطروحة أو الفكرة التي تركبها . ويتيح هذا الأداء الجديد مجالا أوسع للإقناع و الإحاطة بمعطيات الموضوع أو الفكرة المقترحة (البديلة) .

8. اعتمد الخطاب الفلسفي في ((كتاب المساكين)) خاصية المناظرة (المحاورة) بنوعيها: القريبة

(المناظرة) ، و البعيدة (التّناص) ، بطرق مختلفة .

9. قامت مقاربة الخطاب الحجاجي التّداولي في المدوّنة على نوعين :

أ. التّركيز على بنية الخطاب الحجاجي و علاقته الداخلية على اعتبار في (الأفعال الإنجازية : (المباشرة و غير المباشرة) ، الرّوابط الحجاجيّة بدلالتها الدّاخلية خاصّة) .

ب. رصد التّفاعلات النّصية التي تكون على مستوى تفاعل ذوات الخطاب مع المحيط الخطابي ، أو القيمة الخارجية ، و العلاقات التي تتجسّد في كلّ من : " التّشخيص " و "المقام ".

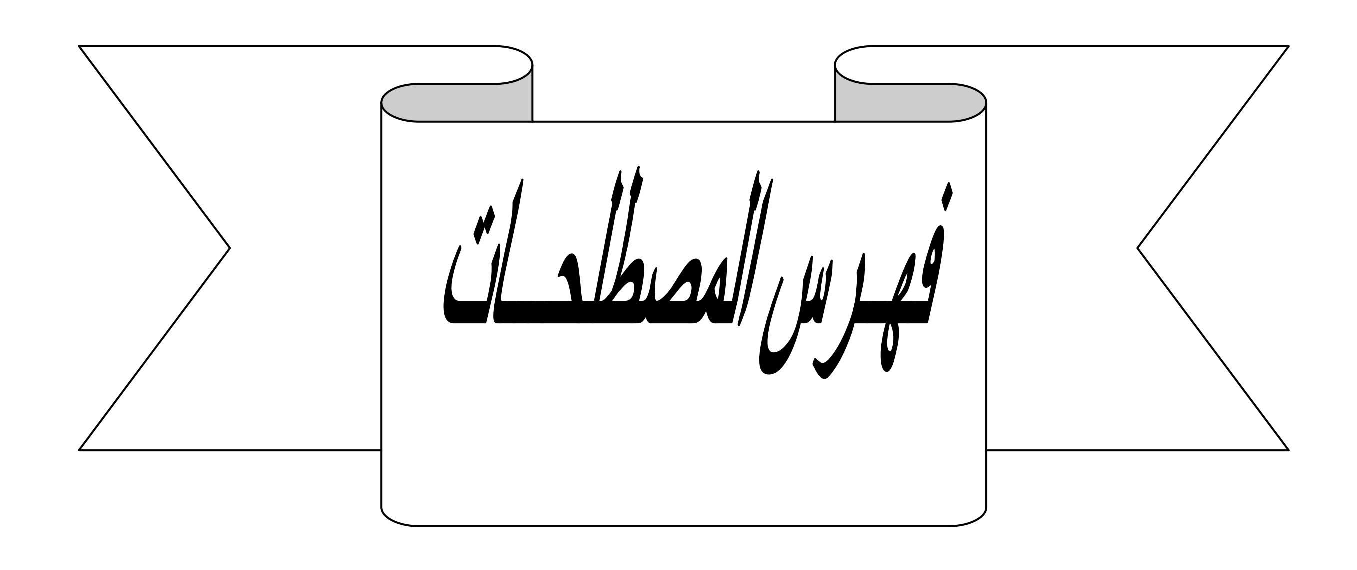
10.تحيل بنية الخطاب الحجاجي التّداولي بعلاقاتها الداخلية على الأسلوب القرآني ، سواء من خلال الأفعال الإنجازية (المباشرة و غير المباشرة) ، أو من خلال الرّوابط الحجاجية التي كانت تشبيهية في معظمها أو علّية (سببية) .

11 .أسهم التّشخيص كخاصية حوارية للخطاب الحجاجي التّداولي في خلق حوار حقيقي طرفاه : الكاتب " الرّافعي " و " الشّيخ علي " ، من خلال اعتماد تقنيات حوارية تمثلت في : الدّعاء بمراتبه (الاستهلال ، حسن التّخلّص ، الخطابيّة) و الاستدراج بالسؤال من خلال الأفعال الكلامية الجزئية : الأمر ، النّهي ، النّداء ، الاستفهام .

12. أمّا المقام كمكوّن حواري ثان ، فقد انحصر في وضع واحد هو : الإصلاح الاجتماعي ، الذي أسهمت القرائن : (قرائن القول ، و التّنظيم ، و المعجم) في علاقتها مع القيم الإنسانية للكتاب في تشكيله ، و تبين هدفه الرّامي إلى إصلاح الأوضاع و الأخلاق و السلوكات ، و التّنبيه إلى ضرورة تغييرها بما يصلح الواقع الاجتماعي و الإنساني في المجتمع .

مجموع نتائج هذا يبيّن أنّ الخطاب الحجاجي بأنواعه المختلفة متضمّن في كل مدونّة و كلّ طرح يحمل واقعا بديلا لواقع مطروح ووضع يستدعي التغيير أو إعادة النّظر ، بغضّ الطّرف عن أدبيّة أو فلسفيّة أو دينيّة المدوّنة الحاملة للفكرة .

هاجر في : **01 / 09/ 2003**


فهرس المصطلحات

ا

فهرس المصطلحات

. أ .

– الأسباب	Reasons
– إقناعية عابرة	
Ephémèreالانسجام الإيجابي	L ‘adhésion positive
– الإنشاء	illocution
– الأمريات	Directives
– الإيقاعيان	Diclaratives
– الإنفاذيات	Exercitives

. ب .

– البرهان	Démonstration – Argumentation
– البوحيّات	Expressives

. ت .

– التّداوليّة	Pragmatique
– التّلفّظ	Enonciation
– التصنيف أو النمذجة	Typologie
– التبيينات	Expositives
– التقريريات	Assertives
– تحليل المضمون	L’analyse de Contenu
– التشخيص	Personnification

. ح .

– الحدث	Acte
– الحكم	Mode
– حكم الحديث	Maximes Convesationnelles
– الحديث	Enonce
– الحجاج	Argumentation

- حجّة — **Argument**
- الحكميّات — **Verdictives**

- حال التّخاطب — **Situation de Communication**

. خ .

- خطاب — **Discours**
- الخطاب الحجاجيّ — **Discours Argumentative**

. ر .

- الرّوابط الحجاجية — **Connecteurs Argumentatifes**

. س .

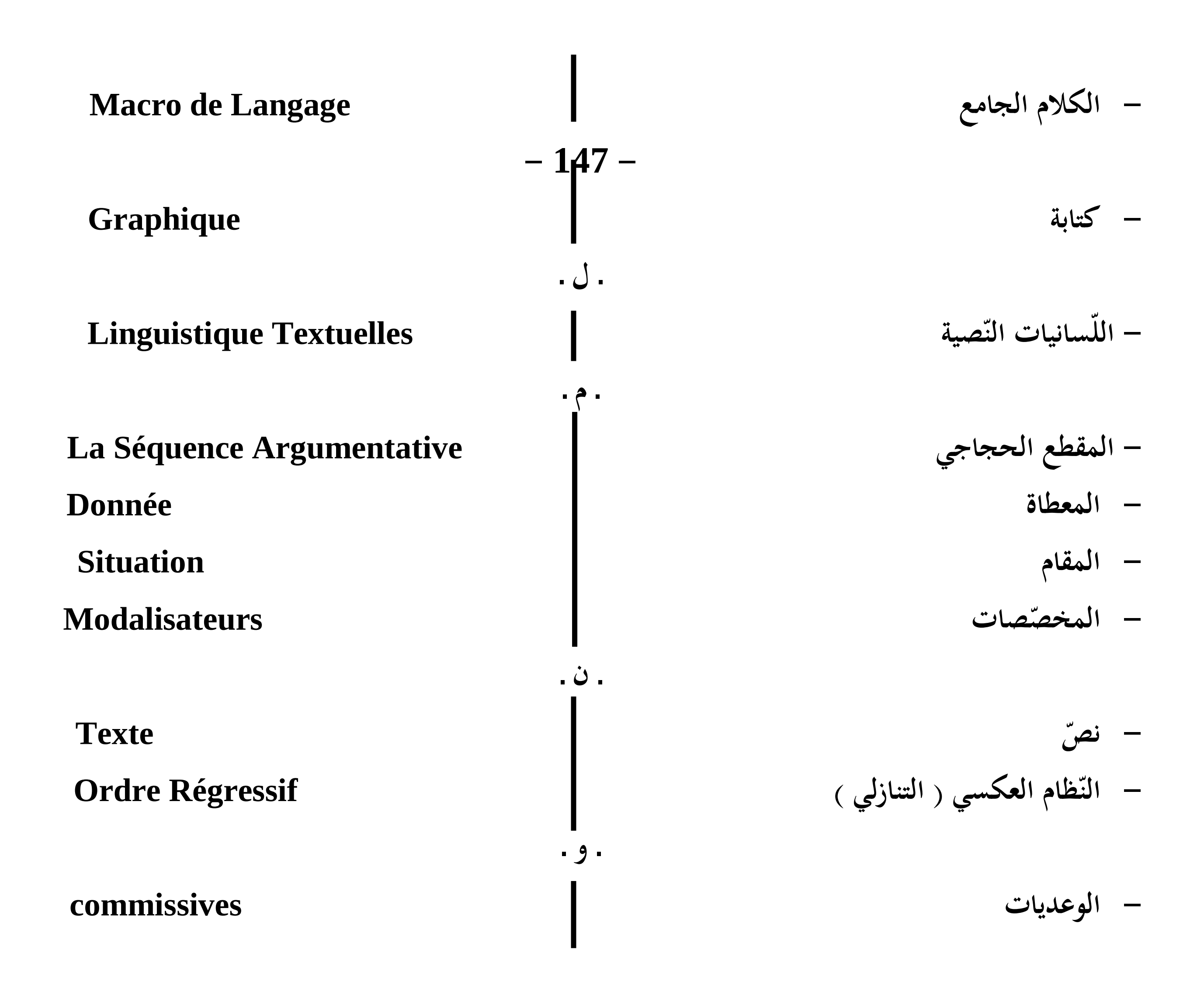
- السّلوكيات — **Behabitives**

. ف .

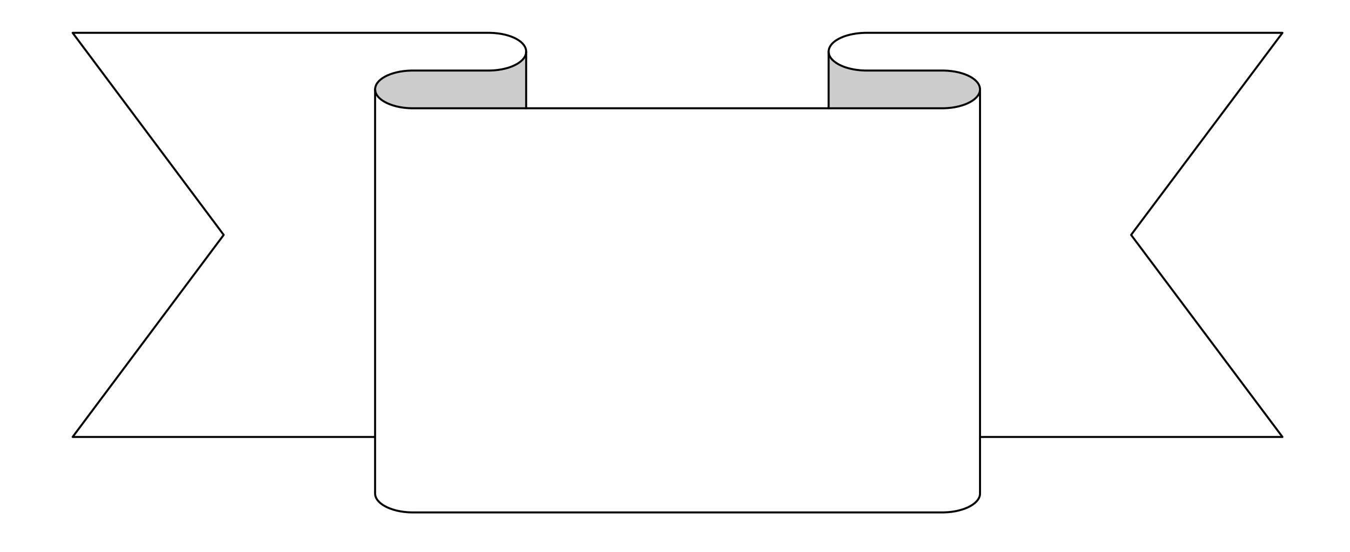
- الفعل — **Verbe**
- فعل الإسناد — **Acte Propositionnel**
- فعل التأثير — **Acte Perlocutif**
- فعل الإنشاء — **Acte Performatif**
- فعل القول — **Acte de Locution**
- فعل القول — **Acte D’énonciation**
- الفعل بواسطة القول — **Acte de perlocution**
- فعل متضمّن في القول — **Acte D’illocution**

. ق .

- القرائن — **Les indices – présomptions**
- قرائن التنظيم — **Les indices de l’organisation**
- قرائن القول — **Les indices de l’énonciation**
- قرائن المعجم — **Les indices de lescique**
- القوّة الكلاميّة — **La force illocutoire**
- قواعد حجاجية — **Règles Argumentatives**
- القياس — **L’analogie**
- القيم — **Valeurs**



. ك .	
– الكلام الجامع	Macro de Langage
– كتابة	Graphique
. ل .	
– اللّسانيات النّصية	Linguistique Textuelles
. م .	
– المقطع الحجاجي	La Séquence Argumentative
– المعطاة	Donnée
– المقام	Situation
– المخصّصات	Modalisateurs
. ن .	
– نصّ	Texte
– النّظام العكسي (التنازلي)	Ordre Régressif
. و .	
– الوعديات	commissives



فهرس الأعلام

. أ .

. ب .

- كريستيفا (جوليا) kristeva (julia)

- كنتليان
- كومبيت. Combettes

. ل .

- لايكوف (جورج) Lakoff (Georges)
- ليتش Leètch (G.N)

. م .

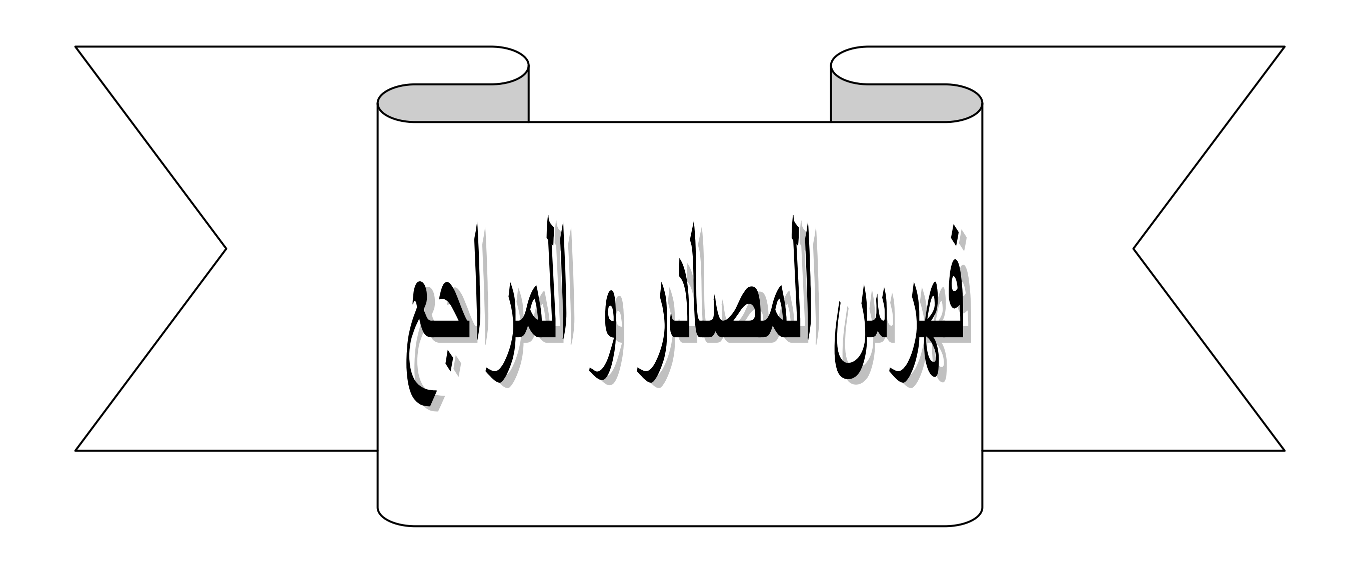
- مانقينو (دومينيك) .Mainguenea . (D)
- المراكشي (ابن البناء)
- المناوي (محمّد عبد الرؤوف)
- مصلوح (سعد)
- مفتاح (محمد)
- ميداس

. ن .

- نيتشه

. و .

- ويرلايك


فهرس المصادر و المراجع

فهرس المصادر و المراجع :

أ – المصادر :

- **القرآن الكريم .**
- الرّافعي ، مصطفى صادق .
- **كتاب المساكين** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د ط ، **2000** م .

ب – المراجع : **1– المراجع العربية :**

- ابن خلدون ، عبد الرّحمن .
- **1 – المقدّمة** ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، ط**2** ، **1961** م.
- ابن وهب ، أبو الحسن إسحاق .
- **2 – البرهان في وجوه البيان** ، تقديم و تحقيق : جفني محمّد شرف ، مطبعة الرسالة ، عابدين ، مصر د ط ، د ت ط .
- الأساتذة / نخبة من
- **3 – تدريسية النّصوص** ، ج2 ، الدّليل التربوي ، الرّباط ، المغرب ، د ط ، **1993** م .
- أوكان ، عمر .
- **4 – اللغة و الخطاب** ، إفريقيا الشّرق ، المغرب ، د ط ، **2001** م .
- بلعلى ، آمنة
- **5 – تحليل الخطاب الصّوفي في ضوء المناهج النقديّة المعاصرة** ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، ط**1** ، **2002** م .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
- **6 – البيان و التبيين** ، دار و مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط**2** ، **1992** م .
- الجوزو ، مصطفى .
- **7 – مصطفى صادق الرّافعي ، رائد الرّمزيّة العربيّة المطلّة على السّوريالية** ،دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ، ط**1** ، **1985** م .

– خطّابي ، محمد

– 8 – **لسانيات النّص ، مدخل إلى انسجام الخطاب** ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ، ط1 ، 1991 م .

– دلاش ، الجيلالي .

– 9 – **مدخل إلى اللّسانيات التّداولية** ، ترجمة : محمّد يحياتن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1992 م

– الرّويلي ، ميجان و البازعي ، سعد .

– 10 – **دليل النّاقد الأدبي** ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2000 م.

– الزّمخشري ، جار الله محمود بن عمر .

– 11 – **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، دط ، د ت ط .

–السد، نور الدّين .

– 12 – **الأسلوبية و تحليل الخطاب** ، ج2 ، دار هومة للطباعة والنّشر و التوزيع ، الجزائر ، د ط، 1997 م .

– السّعافين إبراهيم و آخرون .

– 13 – **أساليب التعبير الأدبي** ، دار الشروق ، عمان ، الأردن ، د ط ، 2000 م .

– سعفان ، كامل علي .

– 14 –**المنهج البياني في تفسير القرآن الكريم** ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، د ط ، 1981 م .

– السّكاكي ، محمّد بن علي .

– 15 – **مفتاح العلوم** ، ضبط و تحقيق : : نعيم زرزور ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1983 م.

– صحراوي إبراهيم .

– 16 – **تحليل الخطاب الأدبي** ، دراسة تطبيقية ، دار الآفاق ، الجزائر ، ط1 ، 1999 م .

- الطبطبائي ، طالب سيد هاشم .
- **17 – نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللّغة المعاصرين و البلاغيين العرب** ، مطبوعات جامعة الكويت ، **1994** م .

- فضل ، صلاح .
- **18 – بلاغة الخطاب ، وعلم النّص** ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع **164** ، أغسطس – آب **1992** م .
- القرطاجنيّ ، حازم .
- **19 – منهاج البلغاء و سراج الأدباء** ، تقديم و تحقيق : محمّد الحبيب بن خوجة ، تونس ، د ط ، **1966** م .
- عبد الرّحمن ، طه .
- **20 – في أصول الحوار و تجديد علم الكلام** ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ، ط**2** ، **2000** م .
- **21 – اللّسان و الميزان أو التكوثر العقلي** ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ، ط**1** ، **1998** م .
- عبد المجيد ، جميل .
- **22 – البلاغة و الاتصال** ، دار غريب للطّباعة و النشر و التّوزيع ، مصر ، د ط **2000** م .
- العسكري ، أبو هلال .
- **23 – كتاب الصناعتين ، الكتاب والشعر** ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط**2** ، **1989** م .
- العمري ، محمّد .
- **24 – البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها** ، إفريقيا الشّرق ، الدّار البيضاء المغرب ، د ط ، **1999** م .
- **25 – في بلاغة الخطاب الإقناعي ، مدخل نظري و تطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة**، إفريقيا الشرق، المغرب ، لبنان ، ط**2** ، **2002** م .
- يقطين ، سعيد .
- **26 – انفتاح النّص الرّوائي ، النّص و السّياق** ، المركز الثقافي العربي ، الدّار البيضاء ، بيروت ،دط ، **1991** م .

– يعقوبي ، محمود .

– 27 – **أصـول الخطاب الفلسفـي** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، **1999** م .

2– المراجع المترجمة :

– أرسططاليس .

– 28 – **كتاب الخطابة** ، ترجمة : إبراهيم سلامة ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، مصر ، ط**2** ، **1953** م .

–أرمينكو ، فرانسواز .

– 29 – **المقاربة التّداولية** ، ترجمة : سعيد علوش ، مركز الإنماء القومي ، د م ط ، د ط ، **1986** م .

– بارث ، رولان .

– 30 – **قراءة جديدة للبلاغة القديمة** ، ترجمة : عمر أوكان ، إفريقيا الشّرق ، المغرب ، ط**1** ، **1994** م .

– دايك ، فان .

– 31 – **علـم النّص ، مدخل متداخل الإختصاصات** ، ترجمة وتعليق : سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة ، مصر ، ط**1** ، **2001** م .

– 32 – **النّص و السياق ، استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي و التّداولي** ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشّرق ، المغرب ، لبنان ، د ط ، **2000** م .

– كريستيفا ، جوليا .

– 33 – **علـم الـنّص** ، ترجمـة : فريـد الزّاهـي ، مراجعـة : عبـد الجليـل نـاظم ، دار توبقـال للنشـر ، المغرب ، ط**2** ، **1997** .

– نيوتن ، ك ، م .

– 34 – **نظرية الأدب في القرن العشرين** ، ترجمة : عيسى علي الكاعوب ، عين للدّراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، مصر ، ط**1** ، **1996** م .

3– المراجع الأجنبية :

- Adam , Jean Michel .

– 35 – Les textes : types et prototypes (récit , description , argumentation
explication et dialogue) , Nathan , Paris , 1992 .
- Benveniste , Emile .
- 36 – Problèmes de linguistique générale ,1 ,2 édition Gallimard , Paris , 1966.
- Escarpit , Robert .
- 37 – L'écrit et la Communication , (coll , que sais : je ? N° 1564) Paris , 1978 .

4– المعاجم :

1 المعاجم العربية :

– ابن منظور ، جمال الدين .
– 38 – **لسان العرب** ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د ط ، 1992 م .

2 المعاجم الأجنبية :

-39 – Petit Robert , Dictionnaire de la langue français 1er redection Paris , 1990 .
- 40 – Longman , Dictionary of comtemporary english , longman , 1989 .

– الدّوريات :

– إبرير ، بشير .
– 41 – **في تعليمية الخطاب العلمي** ، مجلّة التّواصل ، جامعة عنابة ، الجزائر ، ع8 ، جوان 2001 م
– أعراب ، حبيب .
– 42 – **الحجاج و الاستدلال الحجاجي ((عناصر استقصاء نظري))** مجلة عالم الفكر ، الكويت، ع1 ، يوليو ، سبتمبر ، 2001 .
– بنّاني ، محمّد الصغير .
– 43 – **مفهوم النّص عند المنظرين القدماء** ، مجلة اللغة و الأدب ، جامعة الجزائر ، ع12 ، ديسمبر 1997 م .
– بوحوش ، رابح .
– 44 – **الخطاب و الخطاب الأدبي و ثورته اللّغوية على ضوء اللّسانيات وعلم النّص** ، مجلة اللّغة و الأدب ، الجزائر ، ع12 ، ديسمبر ، 1997 م .
– بوقربة ، الشيخ .

- **45 – المفاهيم الشعرية في النّقد العربي الحديث** ، مجلة علامات في النقد ، الجزء **40**، المجلد **10** ، النادي الأدبي الثقافي بجدّة ، المملكة العربية السعودية ، ، جوان **2001** م .
- الحاج صالح ، عبد الرّحمن .
- **46 – التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب و علم الدّلالة و البلاغة العربية**، مجلة المبرز ، الجزائر ، ع**6** ، **1995** م .

- سرفوني ، جون .
- **47 – اللّسانيات و التّداوليات** ، ترجمة : حمّو الحاج ذهبيّة ، مجلة التبيين تصدرها الجاحظية ، الجزائر ، ع**19** ، **2002** م .
- سويرتي ، محمد .
- **48 – اللّغة ودلالاتها : تقريب تداولي للمصطلح البلاغي** ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، ع**3** ، يناير – مارس ، **2000** م .
- طالب الإبراهيمي ، خولة .
- **49 – قراءة في اللّسانيات النّصية ، مباديء في اللسانيات النصية جان ميشال آدام**،مجلة اللّغة والأدب جامعة الجزائر ، ع**12** ، ديسمبر ، **1997**م .
- مسعودي ، الحوّاس .
- **50 – البنية الحجاجية في القرآن الكريم** ، مجلة اللّغة و الأدب ، جامعة الجزائر ، ع**12** ، ديسمبر ، **1997** م .
- **51 – النّصوص الحجاجية** ، مجلة اللّغة و الأدب ، جامعة الجزائر ، ع**14** ، ديسمبر ، **1999** م
- يحياتن ، محمّد .
- **52 – الأصالة في نظر رضا مالك ، تحليل الخطاب من خلال نظرية الحديث أو التلفظ** ، مجلة اللّغة و الأدب ، جامعة الجزائر ، ع**14** ، ديسمبر ، **1999** م .
- ولد محمّد الأمين ، محمّد سالم .
- **53 – مفهوم الحجاج عند بيرلمان ، وتطوّره في البلاغة المعاصرة** ، عالم الفكر ، الكويت، ع**2** ، يناير ، مارس ، **2000** م .

ملخص

تمثّل موضوع هذا البحث في : الخطاب الحجاجي أنواعه و خصائصه في ((كتاب المساكين)) لـ : " الرّافعي " ، و قد ضمّ تمهيدا ، و فصلان : نظريّ و تطبيقيّ ، و خاتمة .

أمّا التمهيد فقد كان بغرض الفصل بين مصطلحي : " النّص" و " الخطاب " منهجيا ، و التعرّف إلى ماهية كلّ منهما و خصائصه الخاصّة به .

و في الفصل الأوّل المعنون بـ : " الخطاب الحجاجي " ، تمّ تعريف الحجاج لغويا في المعجم العربي و الفرنسي و الإنجليزي ، و كان التّعريف واحد و الهدف مشترك كذلك .

كان موضوع المبحث الأوّل هو البحث في الحجاج في الفكرين الغربي و العربي قديما و حديثا ، و التوصّل إلى خصائصه في كلا الفكرين و في مختلف الأزمنة .

أمّا المبحث الثّاني ، فقد تمّ الوقوف على أنواع الخطاب الحجاجي ، وكانت ثلاثة :

1- الخطاب الحجاجي البلاغي .
2- الخطاب الحجاجي الفلسفي .
3- الخطاب الحجاجي التّداولي .

و كان في المبحث الثّالث رصد لخصائص كل نوع خطابي منها ، و التي تمثّلت في :

1- الخصائص الأسلوبية للخطاب الحجاجي البلاغي : الاستعارة ، و التمثيل .
2- الخصائص المناظراتيّة للخطاب الحجاجي الفلسفي : المناظرة (المحاورة القريبة) ، و التّناص (المحاورة البعيدة) .
3- الخصائص الحوارية للخطاب الحجاجي التّداولي : التّشخيص ، و المقام .

و في الفصل الثّاني جرى استخراج هذه الأنواع و الخصائص من المدونة الأدبية : ((كتاب المساكين)) لـ : " الرّافعي " ، حيث توفّرت فيه بنجاح ، لتؤكد أنّه من الممكن توفّر خطاب حجاجي شبه متكامل في مدوّنة أدبيّة (مقالية التّأليف) ، كما تبيّن أنّ الحجاج يمكن أن يكون موضوعا خاصّا يستدعي تقنية تبرزه كالبلاغة في الخطاب الحجاجي البلاغي ، كما يمكن أن يكون هو نفسه تقنية أو آلية في خدمة موضوع معرفيّ آخر ، كما في الفلسفة أو في الخطاب الحجاجي الفلسفي .

Résume

Le thème de ce travail de recherche porte sur le discours argumentatif , ses types , et ses caractéristiques dans ((Kitab Al Masaquine)) de « Al Rafii » , il comporte une introduction , deux parties : théorique et pratique , et une conclusion .

Quant à l’introduction, c’était pour distinguer méthodologiquement entre deux termes : « le texte », et « le discours », et pour saisir le sens de chaque un des deux ainsi que leurs caractéristiques propres.

Dans la première partie intitulé : « Le discours Argumentatif », il est question de définir l’argumentation littéralement dans les dictionnaires : arabe, français, et anglais. La définition est la même (unique) et l’objectif est aussi commun.

L’objet du premier chapitre était étudier l’argumentation dans l’idéologie Arabe et occidental et dans les époques antique et moderne, et afin de dégager les caractéristique des deux idéologies.

Quatan deuxième chapitre, il s'intéresse trois différents types du discours, asservir :

1. Le Discours argumentativo – rhétorique.
2. Le Discours argumentativo – philosophique.
3. Le Discours argumentativo – pragmatique.

Dans le troisième chapitre il était question de détecter chacun de ses types :

Les caractéristiques stylistique du discours argumentativo-rhétorique : La métaphore, et l’analogie.

2 – les caractéristiques interactionnelles du discours argumentativo-philosophique : l’interaction (du types face à face), et l’intertextualité (dialogue texte à texte), (hors texte) .

3 – Les caractéristiques dialogiques du discours argumentativo pragmatique : la personnification, et le situation.

Dans la deuxième partie dégagés ces types et ces caractéristiques ont été dégagés de l’œuvre littéraire (Kitab al Masaquine) de (Al Rafii) qui existait bonnement pour affirmer la possibilité de l’existence d’un discours argamentatif qu'aussi complet que dans une oeuvre littéraire (articulaire) ; il s'averse, par ailleurs, que l’argumentation pourrait constituer un objet particulier, qui érige le recours a une technique qui le met au valeur telle que dans le discours argumentatif – rhétorique. Comme il se pourrait lui même la technique ou profit d’autre sujet épistémologique qu’il soit même dans la philosophique ou le discours argumentativo philosophique.